ترتيب جديد
حسب إرشاد المؤلف

التبيان
في
علوم القرآن

محاضرات في علوم القرآن تبحث عن نزوله وتدوينه
وجمعه وإعجازه وعن التفسير والمفسرين مع ردّ شبهات المستشرقين
بأسلوب يجمع بين الجدة والتحقيق

للشّيخ محمّد على الصّابوني حفظه الله

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة (سابقا)

طبعة جديدة مصححة ملونة

مكتبة البشرى
كراتشي - باكستان

بترتيب جديد
حسب إرشاد المؤلف

التبيان
في
علوم القرآن

محاضرات في علوم القرآن تبحث عن نزوله وتدوينه
وجمعه وإعجازه وعن التفسير والمفسرين مع ردّ شبهات المستشرقين
بأسلوب يجمع بين الجدة والتحقيق

للشّيخ محمّد علي الصّابوني حفظه الله

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة (سابقا)

طبعة جديدة مصححة ملونة

مكتبة البشرى
للطباعة والنشر

اسم الكتاب : التبيان في علوم القرآن
تأليف : للشيخ محمد علي الصابوني حفظه الله
الطبعة الأولى : سنه ١٤٣١هـ/ سنه ٢٠١٠ء
الطبعة الجديدة : سنه ١٤٣٢هـ/ سنه ٢٠١١ء
عدد الصفحات : ٢٣٦

السعر =/150 روبية

مكتبة البشرى
للطباعة والنشر والتوزيع

AL-BUSHRA PUBLISHERS
Choudhri Mohammad Ali Charitable Trust (Regd.)
Z-3, Overseas Bungalows Gulistan-e-Jouhar,
Karachi- Pakistan
الهاتف: +92-21-34541739, +92-21-37740738
الفاكس: +92-21-34023113
الموقع على الإنترنت: www.maktaba-tul-bushra.com.pk
www.ibnabbasaisha.edu.pk
البريد الإلكتروني: al-bushra@cyber.net.pk

يطلب من
مكتبة البشرىٰ، كراتشي. باكستان +92-321-2196170
مكتبة الحرمين، اردو بازار، لاهور. +92-321-4399313
المصباح، ١٦- اردو بازار، لاهور. +92-42-7124656,7223210
بك لينڈ، سٹي پلازه كالج روڈ، راولپنڈی. +92-51-5773341, 5557926
دار الإخلاص، نزد قصه خوانی بازار، پشاور. +92-91-2567539
مكتبة رشيدية، سركي روڈ، كوئٹه. +92-333-7825484

وأيضًا يوجد عند جميع المكتبات المشهورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد المبعوث هاديا ورحمة للعالمين، فكان نعم المبلغ للرسالة ونعم المؤدي للأمانة، وكان بالمؤمنين رؤوفا رحيما.

وبعد، فالقرآن الكريم هي المعجزة الخالدة وآخر الكتب السماوية الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فقد اعتنى به العلماء اعتناء خاصا منذ الرعيل الأول للمسلمين، وتناولوه قراءة وحفظا وتعليما وتفسيرا، وإبرازا لغامضه وما خفي من المعاني، وإظهارا لوجوه بيانه، ومعرفة لأسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، ورسمه، وتأريخ نزوله وتدوينه إلى أن نضجت العلوم والفنون، وتقدم موكب الحضارة والتمدن، فتشعبت العلوم والفنون، فأصبح كل فرع متشعب يصب في مصبّه.

ومادة علوم القرآن أيضا وليدة هذا التطور العلمي والتشعب الفني، وألفت مئات الكتب في هذا الموضوع قديما وحديثا، والكتاب هذا أي "التبيان في علوم القرآن" في الحقيقة مجموعة محاضراته التي ألقيتُها على طلاب الجامعة، ثم رتبت هذه المحاضرات وطبعت لعموم الفائدة، وقد منحها الله سبحانه وتعالى قبولا حسنا فانتشرت في العالم، وبدأ الناس يطبعونها في بلاد أخرى أيضا بعد المملكة العربية السعودية، والتفت إليها بعض الناس في باكستان أيضا فطبعوها، فوجدها العلماء والطلاب نافعة ومفيدة، ورأوها بنظر الإعجاب.

وبما أن أصحاب مكتبة البشرى تحمّلوا على عواتقهم مسؤولية إخراج الكتب الدينية في ثياب جديدة وحلل قشيبة، فالتفتوا إلى طباعة هذا الكتاب أيضا، فأخرجوه في طبعته الرابعة مع بعض التعديلات التي رأها بعض العلماء مفيدة ونافعة للقراء، واستشاروني في هذا الأمر أيضا،

وكانوا معي دائم الاتصال عبر الهاتف، فالتعديلات التي تم إنجازها في هذا الكتاب كالتالي:

- الترتيب الجديد للفصول.
- تعديل بسيط في علامات الترقيم.
- توضيح الكلمات الصعبة في الهوامش.
- تخريج أحاديث الكتاب.
- ذكر عناوين رئيسية وفرعية على رأس كل صفحة.

و لم يتم أي تغيير بعدُ في هذا الكتاب على ما كان عليه في الطبعة الثالثة.

وأخيراً أشكر لفضيلة رئيس وفاق المدارس العربية بباكستان ومسؤوليه بأنهم اختاروا هذا الكتاب لمنهجهم في مادة علوم القرآن، وأشكر لأصحاب مكتبة البشرى أيضا على طباعته بثوبه الجديد وبورق أنيق، واعتنوا به اعتناء كبيراً يستحقه، وأسال الله سبحانه وتعالى أن يجزيهم خير الجزاء على هذا العمل الجليل، والله وليّ التوفيق.

الشيخ محمد علي الصابوني

١٤٣٠/١٢/٢٥هـ

الشيخ محمد علي الصابوني

١٤٣٠/١٢/٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله أنزل كتابه المبين، تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وأصحابه، شموس الهداية، ونجوم العرفان، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلّم تسليماً كثيرا.

أما بعد، فإن القرآن العظيم معجزة "محمد" ﷺ الخالدة، وحجته الدائمة، الناطقة بصدق رسالته، وهو البرهان على أنه الوحي الإلهي، المنزل على هذا النبي الأميّ، الذي لم يتلقَّ علماً على يد إنسان، ولا عرف له صلةٌ بأحد من علماء أهل الكتاب، وهو مع ذلك لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وجاء بهذا الكتاب المعجز، كبرهان ساطع، ودليل قاطع، على أنه وحي من عند رب العالمين: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَّلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ، بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨،٤٩).

وقد حوى هذا القرآن العظيم علوماً ومعارف، وجاء بأحكام وتشريعات في معالجة الأمراض الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، تُحيِّر الألباب، ويعجز عن محاكاتها ومجاراتها فطاحل(١) النبغاء والعلماء، وفيه من الوجوه البيانية والبلاغية ما لا يستطيعه فرسان البلاغة، وفحول الأدباء، وأهل الكلام، ولهذا كان من الجدير بالمشتغلين بالدراسات القرآنية أن يبيّنوا للناس ما حواه هذا القرآنُ المجيد من أصول العلوم والمعارف، وأن يوضحوا وجوه الإعجاز في سوره وآياته، وقصصه وأخباره، وفي أسلوبه وبيانه، وسائر ما حواه من كنوز ودقائق.

هذا وقد تناولتُ في هذا الكتاب "التبيان في علوم القرآن" بعضَ هذه الخصائص والمزايا، وفصلتُ فيه شيئاً من أسرار هذا الكتاب المعجِز في دراستي لعلوم القرآن، وأخرجته في فصول

---

(١) فَطَاحِل جمع فِطْحَل: السيد العظيم والضَّخمُ الممتلئ الجسم والغزيرُ العلم. (المنجد:٦٩٤).

عشرة، هي كما يراه القارئ:

الفصل الأول: التعريف بعلوم القرآن، وبيان فضائل القرآن، وآداب حملته وحفظته.

الفصل الثاني: معرفة أسباب النزول، وفوائد معرفة الأسباب في فهم آيات الكتاب، وأمثلة ذلك.

الفصل الثالث: في حكمة نزول القرآن المجيد مفرّقاً، واختلافه عن الكتب السماوية السابقة المنزّلة جملة.

الفصل الرابع: جمع القرآن العظيم في عصر النبوة، وجمعه في مصاحف متعددة في زمن أبي بكر رضي الله عنه، ثم في مصحف واحد زمن عثمان رضي الله عنه.

الفصل الخامس: النسخ في القرآن الكريم، ومعنى النسخ، والحكمة التشريعية من نسخ الأحكام.

الفصل السادس: التفسير والمفسرون، وأنواع التفسير بالرواية والدراية، وشروط المفسر لكتاب الله الجليل.

الفصل السابع: في التفسير الإشاري، وموقف العلماء منه، والفرق بين الإشاري والتفسير الباطني، وغرائب التفسير.

الفصل الثامن: في أشهر كتب التفسير "بالرواية والدراية والإشارة"، والتعريف بمزايا كتب التفسير.

الفصل التاسع: بحث حول ترجمة القرآن العظيم، وما يحلّ منها، وما يحرم، وشروط الترجمة.

الفصل العاشر: نزول القرآن على سبعة أحرف، والقراءات السبع المتواترة، وأشهر القُرَّاء من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

واللهَ أسألُ أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به إخواننا المؤمنين، ويرزقنا العمل الصالح بكتابه المبين؛ ليكون لنا ذخراً يوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليمٍ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مكة المكرمة / غرة رجب الفرد سنة (١٤٠٨) هـ
وكتبه خادم الكتاب والسنة
لشيخ محمد علي الصابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

الفصل الأول:

علوم القرآن

تمهيد :

يقتضينا علم التفسير أن نُلمَّ إلمامة موجزة بـ"علوم القرآن"، وأن نعرف ما رافق هذا الكتاب المجيد من عناية فائقة، وجهود واسعة، وأبحاث مستفيضة، بُذلت كلّها في سبيل خدمة هذا الكتاب العزيز على أيدي أساتذة أعلام، وعلماء فطاحل، أفنوا أعمارهم في سبيل الحفاظ على هذا التراث الكريم، والكنز الثمين من لدن عصر نزول القرآن إلى يومنا هذا، ثم انتقلوا إلى جوار الله، وقد خلّفوا لنا ثروة علمية هائلة، لاينضب معينها، ولا تنتهي دررها على كرّ الدهور ومرّ الأزمان، ومع كل هذه الجهود المبذولة – في القديم والحديث – فإن القرآن يبقى بحرا ذاخرا، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه؛ ليستخرج منه اللآلي والدرر.

ولقد تسابق الفصحاء والبلغاء، والحكماء والشعراء في وصف هذا القرآن، وسرد محاسنه وفضائله، ولكننا لا نجد أبلغ ولا أسمى من وصف صاحب الرسالة "محمد بن عبد الله" صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول:

"كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلَق(١) على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ (الجن:١-٢)، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم". (رواه الترمذي، في باب: "فضائل القرآن").

---

(١) أي: لا يبلى ولا تذهب جدته على كثرة القراءة والترداد.

ما المقصود بعلوم القرآن؟

يقصد بعلوم القرآن الأبحاث التي تتعلق بهذا الكتاب المجيد الخالد من حيث النزول والجمع، والترتيب والتدوين، ومعرفة أسباب النزول، والمكيِّ منه والمدنيِّ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وغير ذلك من الأبحاث الكثيرة التي تتعلق بالقرآن العظيم، أو لها صلة به.

والغرض من هذه الدراسة فهم كلام الله عز وجل، على ضوء ما جاء عن الرسول ﷺ من توضيح وبيان، وما نقل عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم حول تفسيرهم لآيات القرآن، ومعرفة طريقة المفسرين، وأساليبهم في التفسير مع بيان مشاهيرهم، ومعرفة خصائص كل من المفسرين، وشروط التفسير، وغير ذلك من دقائق هذا العلم.

تعريف القرآن:

"هو كلام الله المعجز، المنزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبَّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس".

وهذا التعريف متفق عليه بين العلماء والأصوليين.

أنزله الله تبارك وتعالى؛ ليكون دستورا للأمة، وهداية للخلق، وليكون دليلا على صدق الرسول ﷺ، وبرهانا ساطعا على نبوّته ورسالته، وحجة قائمة إلى يوم الدين، تشهد بأنه تنزيل الحكيم الحميد، بلى هو المعجزة الخالدة، التي تتحدى الأجيال والأمم على كرّ الأزمان ومرّ الدهور، ولله در "شوقي" حيث يقول:

جاء النبيُّون بالآياتِ[١] فانصرمتْ[٢] وجئْتَنَا بكتابٍ غيرِ منصرمِ
آياتُه كلما طال المدَى[٣] جددٌ يُزيِّنهن جمالُ العتق والقِدمِ

---

[١] المراد بالآيات هنا: المعجزات التي أيد الله بها رسله الكرام.

[٢] انصرمت: أي ذهبت بذهابهم وانقضت بوفاتهم، فلم يعد لها وجود.

[٣] المدى: الزمان الطويل.

فضائل القرآن:

وقد وردت آثار كثيرة في فضائل القرآن وعلومه، منها ما هو متعلق بفضل التعلّم والتعليم، ومنها ما هو متعلق بالقراءة والترتيل، ومنها ما له علاقة بحفظه وترجيعه. كما وردت آيات عديدة في كتاب الله عزوجل، تدعو المؤمنين إلى تدبره وتطبيق أحكامه، وإلى الاستماع والإنصات عند تلاوته، نذكر بعض هذه الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة.

الآيات الكريمة:

أولا: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ (فاطر:٢٩).

ثانيا: وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٤).

ثالثا: وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد:٢٤).

الأحاديث الشريفة:

أولا: وقال ﷺ: "خيركم مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمه" (رواه البخاري). **ثانيا**: وقال ﷺ: "الماهر بالقرآن مع السَّفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن، ويتعتع فيه – أي تصعب قراءته عليه لِعَيِّ لسانه – وهو عليه شاقّ له أجران". (رواه البخاري ومسلم). **ثالثا**: وقال أيضا: "أشراف أمتي حملة القرآن". (رواه الترمذي). **رابعا**: وقال أيضا: "اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه". (رواه الترمذي). **خامسا**: وقال أيضا: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأُترُجَّة(١)، ريحها طيب، وطعمها طيب". (متفق عليه).

سادسا: وقال أيضا: "إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلَّموا من مأدبته ما استطعتم..." (متفق عليه).

وينبغي للدارس لعلوم القرآن أن يتأدَّب بآداب القرآن، ويتخلَّق بأخلاقه، ويكون غرضه من

---

(١) الأُتْرُج: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبيّ اللون، ذكيّ الرائحة، حامض الماء. (المعجم الوسيط:٤).

وراء العلم رضوان الله والدار الآخرة، لا حطام الدنيا، وأن يعمل بما فيه؛ ليكون حجةً له يوم القيامة، فقد صح في الحديث الشريف: "القرآن حجةٌ لك أو عليك"[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: "من لم يقرأ القرآن فقد هجره، ومن قرأ القرآن ولم يتدبر معانيه فقد هجره، ومن قرأه وتدبره ولم يعمل بما فيه فقد هجره". يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ (الفرقان: ٣٠).

أسماء القرآن:

للقرآن الكريم أسماء عديدة، كلها تدل على رفعة شأنه وعُلوِّ مكانته، وعلى أنه أشرف كتاب سماوي على الإطلاق، فيسمى: "القرآن" و"الفرقان" و"التنزيل" و"الذكر" و"الكتاب"...إلخ.

كما وصفه الله تبارك وتعالى بأوصاف جليلة عديدة.

منها: "نور" و"هدى" و"رحمة" و"شفاء" و"موعظة" و"عزيز" و"مبارك" و"بشير" و"نذير"... إلى غير ذلك من الأوصاف التي تشعر بعظمته وقدسيته.

وجه التسمية:

أ- أما تسميته بـ"القرآن" فقد جاء في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿ق، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق: ١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

ب- أما تسميته بـ"الفرقان" فقد جاء في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان: ١).

ج- وأما تسميته بـ"التنزيل" ففي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٣).

---

[١] انظر "تفسير القرطبي" الجزء الأول.

د- وأما تسميته بـــ"الذكر" ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

هـ- وأما تسميته بـــ"الكتاب" ففي قوله تعالى: ﴿حٰمٓ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ...﴾ (الدخان: ٢-٣).

وأما الأوصاف فقد ورد فيها آيات عديدة، وقلّما تخلو سورة من سور القرآن من وصف رائع مجيد لهذا الكتاب الذي أنزله ربُّ العزة؛ ليكون معجزةً خالدة لخاتم الأنبياء. نذكر منها:

أولا: قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (النساء:١٧٤).

ثانيا: وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ (الإسراء:٨٢).

ثالثا: وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ﴾ (فصلت:٤٤).

رابعا: وقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧).

والقرآن كالقراءة، مصدر: قرأ قراءة وقرآنا، هكذا يرى بعض العلماء، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة١٨،١٧) أي: قراءته. فالقرآن على هذا الرأي يكون مشتقا.

ويرى بعض العلماء: أنه ليس مشتقا من قرأ، وإنما هو "اسم علم" لهذا الكتاب المجيد، فهو مثل "التوراة"، ومثل اسم "الإنجيل"، وهذا رأي الإمام الشافعي رحمه الله. انظر كتاب "مباحث القرآن" للأستاذ منّاع القطان.

متى ابتدأ نزول القرآن؟

كان بدء نزول القرآن الكريم في السابع عشر من رمضان لأربعين سنة خلت من حياة النبي الأمي محمد ﷺ، فبينما كان رسول الله ﷺ يتحنث – أي يتعبد – في غار حراء، إذ نزل

عليه الوحي – جبريل الأمين – بآيات الذكر الحكيم، فضمّه إلى صدره ثم أفلته – فعل ذلك به ثلاث مرات – وهو يقول له في كل مرة: ﴿اقْرَأْ﴾، والرسول الكريم ﷺ يجيبه: "ما أنا بقارئ" أي: لست أعرف القراءة، وفي المرّة الثالثة قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:١-٥).

فكان ذلك بدء الوحي، وبدء نزول القرآن، ولقد سبق نزوله بعض الإرهاصات — أي الإشارات والدلائل – التي تدل على قرب الوحي، وتحقّق النبوة للرسول الكريم ﷺ.

من هذه الدلائل: "الرؤيا الصادقة" في النوم، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا وقعت، كما رآها في منامه. ومنها: "حبّه للعزلة والخلوة"، فكان يخلو بغار حراء، يتعبد ربّه فيه.

رواية البخاري:

وقد أخرج البخاري في صحيحه، في باب "بدء الوحي" ما يشير إلى هذا، وإلى كيفية نزول القرآن، حيث روى بسنده عن عائشة أم المؤمنين ﵂ أنها قالت:

"أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح،(١) ثم حُبِّب إليه الخلاء،(٢) وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع(٣) إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك(١) فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني،(٢) حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني، فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني، فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده..." (صحيح البخاري، الجزء الأول).

---

(١) أي نور الصباح وضياؤه. (٢) الخلاء: أي العزلة. (٣) ينزع: أي يرجع.

(١) الملك: المراد به جبريل ﵇. (٢) فغطني: أي ضمني إلى صدره.

ونزول القرآن في شهر رمضان، وفيه نص صريح واضح في كتاب الله عز وجل، حيث يقول عز من قائل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥).

وأما كون الملك الذي نزل به هو "جبرئيل" عليه السلام، فقد ثبت أيضا بنص صريح في القرآن، وهو: قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَّبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:١٠٢).

والمراد بالروح الأمين أو روح القدس، إنما هو "جبرئيل" عليه السلام باتفاق المفسرين، فهو أمين الله على وحيه، وهو الذي نزل بالوحي على جميع الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

أول ما نزل، وآخر ما نزل:

أول ما نزل من القرآن الكريم الآيات الأولى من سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ (العلق:١-٥) كما مر سابقا في حديث البخاري، وأما آخر ما نزل من القرآن، فهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٨١).

هذا هو الصحيح الراجح الذي اختاره العلماء، وعلى رأسهم "السيوطي"، وهو منقول عن حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فقد أخرج النسائي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ (البقرة:٢٨١)،وقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات ليلة الاثنين في الثالث من ربيع الأول"[1].

وأما قول بعضهم: إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً...﴾ (المائدة:٣)، فهو رأي غير صحيح؛ لأن هذه الآية

---

[1] انظر كتاب "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي: (٨٢/١).

الكريمة نزلت على رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهو واقف بعرفة، وقد عاش ﷺ بعدها واحدا وثمانين يوما، وقبل وفاته بتسع ليال نزلت آية البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً...﴾، فتكون هي آخر ما نزل، لا آية المائدة، وهذا هو الرأي الصحيح، وبنزول هذه الآية الكريمة انقطع الوحي، فكان ذلك آخر اتصال السماء بالأرض، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد نزول ختام القرآن، بعد أن أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وهدى الناس إلى دين الله.

آية المائدة متأخرة في النزول:

ومما يدل على أن آية المائدة نزلت في حجة الوداع ما ورد في "صحيح البخاري" أن يهوديا جاء إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين! آية في كتابكم، لو علينا – معشراليهود – نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، فقال عمر: وأيّ آية تعني؟ قال: قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً...﴾، فقال له عمر: "والله إني لأعلم المكان الذي نزلت فيه، والساعة التي نزلت فيها، نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ بعرفة في يوم الجمعة بعد العصر"(١)، أي إنها نزلت في يوم، هو من أعظم الأعياد الإسلامية، فهو عيد على عيد.

تنبيه:

أورد العلامة السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" بعض الإشكالات على أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل، وأجاب عنها بأجوبة سديدة، نلخصها فيما يلي:(٢)

١– الإشكال الأول: أنه روي في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه سئل: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (المدثر:١)، فقيل له: بل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١)، فقال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: "إني جاورت

---

(١) انظر صحيح البخاري، باب التفسير.

(٢) انظر "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي: (٧٥/١).

بحراء، فلما قضيت جواري، نزلت، فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وشمالي، ثم نظرتُ إلى السماء، فإذا جبرئيل، فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرهم، فدثروني، فأنزل الله ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾". فهذا الحديث يدل على أن سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن. وقد أجاب عن ذلك السيوطي بقوله:

ويجاب عن هذا الحديث بأجوبة:

أحدها: أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبين أن "سورة المدثر" نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة ﴿اقْـرَأْ﴾؛ فإنها أول ما نزل منها صدرها، ويؤيد هذا ما في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ - وهو يحدث عن فترة الوحي - فقال في حديثه: "بينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعت، فقلت: زملوني، فأنزل الله ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾".(١) فقوله: الملك الذي جاءني بحراء، يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ثم سرد أجوبة أخرى، لا حاجة إلى ذكرها.

٢- وأما الإشكال الثاني: فهو أن آية المائدة وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ تدل على أن الدين قد كمل وتمّ، فكيف تنزل بعد ذلك آيات، ونقول: إنها ختام القرآن؟

والجواب عن ذلك أن الله عز وجل قد أكمل الدين ببيان الفرائض والأحكام، وبيان الحلال والحرام، فما تحتاج إليه الأمة قد بينه الله عز وجل وفصل أحكامه، حتى أصبحوا على "المحجة البيضاء"، وهذا لا ينافي أن تنزل بعض الآيات الكريمة التي فيها التذكير والتحذير من عذاب الله، وفيها تذكير الناس بالوقفة الكبرى بين يدي أحكم الحاكمين في ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وقد صرح بهذا جماعة من العلماء حتى قال السدي: "لم ينزل بعدها حلال، ولا حرام".(٢)

---

(١) انظر صحيح البخاري، باب التفسير. (٢) انظر "الإتقان": (٨٦/١).

أول ما نزل في القتال، والخمر، والأطعمة:

أولا: نزلت في القتال آيات عديدة، ولكن هذه الآيات التي نزلت في شأن القتال كلها مدنية؛ لأن المسلمين – في مكة – كانوا في حالة ضعف، فكان جهادهم للأعداء باللسان لا بالسنان، و لم يسمح لهم بقتال الأعداء إلا بعد الهجرة بعد أن تقوى المسلمين و كثروا، وأصبح لهم دولة في المدينة المنورة، فنزل عند ذلك الإذن بالقتال، وأول آية نزلت في القتال: هي قول الله تبارك وتعالى في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٣٩،٤٠).

فأنت ترى في هذا النص الكريم ما يوضح الحكمة من مشروعية الإذن بالقتال، فلم يكن القتال إلا دفعا للظلم، ودفعا للعدوان، و لم يشرع إلا دفاعا عن المظلومين، وردعا للمعتدين كما هو صريح النص الكريم.

ثانيا: وأما الخمر، فقد نزلت فيها آيات عديدة، وكان أول ما نزل فيها: قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...﴾ (البقرة:٢١٩). روي عن ابن عمر ﵄ أنه قال: نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ...﴾. إلخ

ثالثا: وأما أول ما نزل من الأطعمة في مكة، فقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:١٤٥). التي نزلت بها أحكام القرآن، وهي مما ينبغي وهذه أوائل مخصوصة ببعض الأحكام التشريعية معرفته؛ ليقف الإنسان على سرِّ التشريع الإسلامي الدقيق، الذي راعى حاجات الناس ومصالح البشر، والتي معرفته؛ هي أحد الأسس الحكيمة التي سلكها الإسلام في معالجة الأوضاع الاجتماعية، والأمراض الخلقية التي كان عليها الناس في الجاهلية، كما سنوضح ذلك في بحث آخر إن شاء الله.

الفصل الثاني:

حكمة نزول القرآن مفرقا

نزول القرآن الكريم:

شرف الله هذه الأمة المحمدية، فأنزل عليها كتابه المعجز – خاتمة الكتب السماوية – ليكون دستورا لحياتها، وعلاجا لمشاكلها، وبلسما(١) شافيا لعللها وأمراضها، وآية مجدٍ وفخار على اصطفاء هذه الأمة، واختيارها لحمل أقدس الرسالات السماوية، حيث أكرمها الله بإنزال أشرف كتاب، وخصها بالانتساب إلى أشرف مخلوق محمد بن عبد الله ﷺ.

وبنزول هذا القرآن اكتمل عقد الرسالات السماوية، فشع النور على العالم، وسطع الضياء على الكون، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بواسطة أمين السماء جبريل عليه السلام، يهبط به على قلب النبي ﷺ؛ ليبلغه وحي الله، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٥).

كيف نزل القرآن الكريم؟

للقرآن الكريم تنزلان:

الأول: من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا (جملة واحدة) في ليلة القدر.

الثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض "مفرَّقا" في مدة ثلاث وعشرين سنة.

أما التنزل الأول: فقد كان في ليلة مباركة من ليالي الدهر، هي: "ليلة القدر"، أُنزل فيه القرآن كاملا إلى "بيت العِزَّة" في السماء الدنيا، ويدل عليه عدة نصوص وهي:

أ– قوله تعالى: ﴿حٰمٓ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (الدخان:١، ٣).

ب– وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١، ٢).

---

(١) بَلْسَم: مادّة صُمغيَة تُضمَّد بها الجراحات، سائل عطريٌّ (يونانية): المنجد:٤٨.

ج- وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥).

فقد دلت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة، وتسمى "ليلة القدر"، وهي من ليالي شهر رمضان، ويتعين أن يكون هذا النزول هو النزول الأول إلى بيت العزة في السماء؛ لأنه لو أريد به النزول الثاني على النبي ﷺ لما صح أن يكون في ليلة واحدة، وفي شهر واحد هو "شهر رمضان"؛ لأن القرآن إنما نزل في مدة طويلة، هي مدة البعثة "٢٣" سنة، ونزل في غير رمضان في جميع الأشهر، فتعين أن يكون المراد به "النزول الأول"، وقد جاءت الأخبار الصحيحة تؤيد ذلك، منها:

أ- عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "فصل القرآن من الذكر، فوُضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ".(١)

ب- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله يُنزّله على رسوله ﷺ، بعضُه في إثر بعض".(٢)

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر
ج- رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل نجوما".(٣)

فهذه الروايات الثلاث: رواها السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"،(٤) وبين أنها كلها صحيحة، كما روى السيوطي أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأله عطية بن الأسود فقال: أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وهذا أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم، وصفر، وشهر ربيع، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم رِسلا في الشهور والأيام.

---

(١) رواه الحاكم. (٢) رواه الحاكم والبيهقي. (٣) رواه الطبراني. (٤) انظر "الإتقان": ١/٩٠،٨٩.

يريد بقوله: "مواقع النجوم" وبقوله: "رسلا"، أي أنه أنزل منجما مفرقا، يتلو بعضه بعضا على تؤدة ورفق، وذكر السيوطي أن القرطبي نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

ولعل الحكمة في هذا النزول هي تفخيم أمر القرآن، وأمر من نزل عليه، بإعلام سكان السموات السبع: أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم.

قال السيوطي: ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجما بحسب الوقائع، لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله سبحانه باين – أي خالف – بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقا، تشريفا للمنزل عليه. (١)

التنزيل الثاني: وأما التنزل الثاني فقد كان من السماء الدنيا على قلب النبي ﷺ منجما، أي مفرقا في مدة ثلاث وعشرين سنة، وهي من حين البعثة إلى حين وفاته صلوات الله وسلامه عليه. والدليل على هذا النزول، وأنه نزل منجما:

أ- قول الله تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَقُرْآنا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا﴾ (الإسراء:١٠٦) .

ب- وقوله تعالى في سورة الفرقان:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا﴾ (الفرقان:٣٢).

روي أن اليهود والمشركين عابوا على النبي ﷺ نزول القرآن مفرقا، واقترحوا عليه أن ينزل جملة واحدة، حتى قال اليهود له: يا أبا القاسم! لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى عليه السلام، فأنزل الله هاتين الآيتين ردا عليهم، وهذا الرد - كما يقول الزّرقاني -

---

(١) الإتقان: ص:٤٢.

يدل على أمرين:

أحدهما: أن القرآن نزل مفرقا على النبي ﷺ.

والثاني: أن الكتب السماوية قبله نزلت جملة، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء، حتى كاد يكون إجماعا.

ووجه الدلالة على هذين الأمرين: أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملة، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفرقا، ولو كان نزول الكتب السماوية مفرقا كالقرآن، لرد عليهم بالتكذيب، وبإعلان أن التنجيم هو سنة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل، كما رد عليهم حين طعنوا على الرسول وقالوا: ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان:٧)، رد عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان:٢٠). (١)

حكمة نزول القرآن منجما:

لنزول القرآن الكريم منجما، أي مفرقا حِكم جليلة، وأسرار عديدة عرفها العالمون، وغفل عنها الجاهلون، ونستطيع أن نجملها فيما يأتي، وهي:

أولا: تثبيت قلب النبي ﷺ أمام أذى المشركين.

ثانيا: التلطف بالنبي ﷺ عند نزول الوحي.

ثالثا: التدرج في تشريع الأحكام السماوية.

رابعا: تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين.

خامسا: مسايرة الحوادث والوقائع، والتنبيه عليها في حينها.

سادسا: الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه تنزيل الحكيم الحميد.

ولنبدأ بشيء من التفصيل عن هذه الحِكَم العديدة التي أجملناها فيما سبق، فنقول - ومن الله نستمد العون - :

---

(١) مناهل العرفان، ص:٤٦.

أولا: أما الحكمة الأولى وهي: "تثبيت قلب النبي ﷺ، فقد ذكرتْها الآية الكريمة في معرض الرد على المشركين، حين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة، كما نزلت الكتب السماوية السابقة، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا﴾ (الفرقان:٣٢)، وتثبيت قلب النبي ﷺ إنما هو رعاية من الله، وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له، وإيذائهم الشديد له ولأتباعه، فقد كانت الآيات الكريمة تنزل على رسول الله ﷺ تسلية له، وشحذا لهمته؛ للمضيِّ في طريق الدعوة مهما اعترضه المصاعب والشدائد، وتقوية لقلبه الشريف، فقد تعهَّده الله سبحانه وتعالى بما يخفف عنه الشدائد والآلام، فكان إذا اشتد الأذى عليه، نزلت الآيات تسلية له وتخفيفا عما يلقاه، وكانت التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين؛ ليقتدي بهم في صبرهم وجهادهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا....﴾ (الأنعام:٣٤)

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف:٣٥)، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور:٤٨).

وقد أوضح الباري - جلَّت عظمته - الحكمة من ذكر قصص الأنبياء، فقال - وهو أصدق القائلين - : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود:١٢٠) .

وتارة كانت التسلية عن طريق الوعد بالنصر، والتأييد للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرا عَزِيزا﴾ (الفتح:٣)، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات:١٧١-١٧٣) .

وأخرى تكون التسلية عن طريق إخبار الرسول باندحار أعدائه وانهزامهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر:٤٥)، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران:١٢)، إلى آخر ما هنالك من ألوان في التخفيف عن قلب الرسول، وتطييب نفسه وفؤاده.

ولا شك أن في تجدُّد نزول الوحي، وتكرر هبوط الأمين جبريل بالآيات البينات، التي فيها تسلية للنبي ﷺ، وفيها الوعد بالنصر والحفظ والتأييد، كان لها أعظم الأثر في تثبيت قلب الرسول لمتابعة الدعوة، والمضيِّ في تبليغ الرسالة الإلهية؛ لأن الله معه، وهل يشعر بالخذلان والفتور من كانت عناية الله تحوطه، وعينه ترعاه؟

ثانيا: أما الحكمة الثانية، وهي "التلطف بالنبي ﷺ عند نزول الوحي، فقد كانت بسبب روعة القرآن وهيبته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا﴾ (المزمل:٥). فالقرآن - كما هو مقطوع به - كلام الله المعجز، الذي له جلال ووقار، وهيبة وروعة، وهو الكتاب الذي لو نزل على جبل لتَفتَّت وتصدع من هيبته وجلاله، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعا مُتَصَدِّعا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر:٢١)، فكيف إذا بقلب النبي الرقيق؟ هل يستطيع أن يتلقى جميع القرآن دون أن يتأثر ويضطرب، ويشعر بروعة القرآن وجلاله؟

ولقد أوضحت السيدة عائشة رضي الله عنها حالة الرسول حين نزل عليه القرآن، وما يلاقيه من شدة وهول من أثر التنزيل، فقالت - كما رواه البخاري -: "ولقد رأيته حين ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه - أي ينفصل -، وإن جبينه ليتفصد عرقا". يتفصد: أي: يتصبب عرقا، وذلك من شدة الوحي ووطأته على النبي ﷺ.

ثالثا: وأما الحكمة الثالثة وهي: "التدرج في تشريع الأحكام"، فقد كانت جليَّة واضحة، حيث سلك القرآن الكريم مع البشرية - وخاصة منهم العرب - طريق الحكمة، ففطمهم عن الشرك، وأحيا قلوبهم بنور الإيمان، وغرس في نفوسهم حب الله ورسوله، والإيمان بالبعث والجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة - مرحلة تثبيت دعائم الإيمان - إلى العبادات، فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة، ثم ثَنى بالصوم، وبالزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ثم ختم بالحج في السنة السادسة منها، وكذلك فعل في العادات المتوارثة: زجرهم أولا عن الكبائر، ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق، وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلا في نفوسهم: الخمر، والربا، والميسر تدرجا

---

(١) الزُّلال: الماء العذب الصافي البارد السلس (المعجم الوسيط:٣٩٨).

حكيما، استطاع بذلك أن يقتلع الشر والفساد من جذوره اقتلاعا كاملا.

ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك التشريع الحكيم، الذي نجح في انتهاجه القرآن، في معالجة الأمراض الاجتماعية: تحريم الخمر، الذي كان داء مستشربا عند العرب، كيف استطاع أن يمحوه ويقضي عليه الإسلام؟

المرحلة الأولى: لقد انتهج القرآن في تحريمه أربعة مراحل، كما هو الشأن في تحريم الربا، فلم يحرمه دفعة واحدة؛ لأنهم كانوا يتعاطون شرب الخمر، كما يشرب الواحد منا الماء الزلال، (١) فلم يكن من الحكمة أن يحرمه عليهم دفعة واحدة، وإنما حرمه بالتدريج، فبدأ أولا بالتنفير منه بطريق غير مباشر، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرا وَرِزْقا حَسَنا﴾ (النحل:٦٧).

فقد أخبر تعالى أنه قد أنعم على الناس بهاتين الشجرتين: "النخيل، والأعناب"، يستخرجون منهما "السكر"، أي الخمر الذي يسكر، و"الرزق الحسن"، الذي ينتفع منه الناس من مأكول ومشروب، فمدح الثاني، ووصفه بأنه رزق حسن، وأخبر عن الأول بأنه "سكر"، أي شيء يسكر ويذهب بعقل الإنسان، وبهذه المباينة في الوصف يتضح لكل عاقل الفارق الكبير بين الأمرين المذكورين.

المرحلة الثانية: جاء التنفير المباشر عن طريق المقارنة العملية بين شيئين: شيء فيه نفع مادي ضئيل، وشيء فيه ضرر جسمي وصحي وعقلي جسيم، وفيه كذلك زيادة على الأضرار العظيمة مهلكة للإنسان عن طريق وقوعه في الإثم الكبير، استمع إلى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (البقرة:٢١٩).

والمراد بالمنافع هنا المنافع المادية التي كانوا يستفيدونها من وراء التجارة والبيع للخمر، حيث يربحون منها، كما يربحون من وراء الميسر، وقد جمع القرآن بين الخمر والميسر في الآية الكريمة، ولاشك أن النفع في الميسر "مادي" بحت،(١) حيث يربح بعض المقامرين، فكذلك في الخمر.

---

(١) بَحْتٌ: الصرف الخالص لا يخالطه غيره، يقال: شرابٌ بحتٌ، غير ممزوج. (المعجم الوسيط:٣٩).

قال العلامة القرطبي في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾: أما في الخمر فربح التجارة، فإنهم كانوا يجلبونها من الشام برُخص، فيبيعونها في الحجاز بربح، هذا أصح ما قيل في منفعتها.

وبالمقارنة بين هذين الشيئين تبين أن الإسلام نفر من الخمر عن طريق بيان أضرارها الجسيمة، ولكنه لم يحرمها، وقد روي في سبب نزول هذه الآية: أن جماعة من المسلمين - فيهم عمر بن الخطاب - جاءوا إلى الرسول الكريم، فقالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن الخمر؟ فإنها مذهبة للعقل، مضيعة للمال، منهكة للجسم؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.

وفي المرحلة الثالثة: كان التحريم للخمر، ولكنه كان "تحريما جزئيا" حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء:٤٣).

فقد حرم الله عليهم الخمر وقت الصلاة فقط، حتى يصحوا من سكرهم، فكان المسلمون يشربونها ليلا، وفي غير أوقات الصلاة، وقد روي في سبب نزول هذه الآية: أن عبد الرحمن ابن عوف صنع وليمة، فدعا إليها بعض الصحابة، قال علي بن أبي طالب: فدعانا، وسقانا الخمر، فأخذت الخمرُ مِنّا، وحضرت الصلاة، فقدموني لأصلي بهم إماما، فقرأت: "قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما عبدتم" إلى آخر ذلك، أي: إنه لسكره غيَّر فيها، فنزلت الآية الكريمة.

وفي المرحلة الرابعة: وهي المرحلة الأخيرة، كان التحريم الكلي، القاطع، المانع، حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩٠، ٩١).

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة، على ما ذكره المفسرون هو: أن بعض الصحابة صلوا العشاء، ثم شربوا الخمر، وجلسوا يتسامرون، فلعبت الخمر في رؤوسهم، وكان فيهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وكانت جارية صغيرة تنشدهم وتغنيهم، فقالت ضمن نشيدها:

ألا يا حمزُ للشُرُف النواءِ   وهن معقّلاتٌ بالفناء

هيّج حمزة على النوق الإبل، التي كانت بجوار الدار، فقام حمزة، فجب(١) أسنمة ناقتي علي، وبقر خاصرتيهما - وهو في حالة السكر -، فأخبر علي بذلك، فتألم أشد الألم، وذهب إلى النبي ﷺ يشكو إليه ما فعل عمه حمزة، فجاء النبي ﷺ إليه يعاتبه، ويلومه على صنيعه، فجعل حمزة ينظر إليه نظرة غريبة، يصوب بصره ويُخفضه، ثم خاطب النبي ﷺ ومن معه، بقوله: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعلم رسول الله ﷺ أن عمه ثمل — أي سكران - فلم يؤاخذه، فقال عمر عندئذ: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانا شافيا، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ (المائدة:٩٠).

وهكذا تم تحريم الخمر تحريما "بالتدرج"، فكان في ذلك أعظم حكمة جليلة، سلكها الإسلام في معالجة الأمراض الاجتماعية.

وقد جاء في كتاب "مناهل العرفان" للزرقاني ما نصه: "وتدرج الإسلام بهم في تحريم ما كان مستأصلا فيهم، كالخمر تدرجا حكيما حقق الغاية، وأنقذهم من كابوسها(٢) في النهاية، وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطّة المُثلى أبعد نظرا، وأهدى سبيلا، وأنجح تشريعا، وأنجع سياسة، من تلكم الأمم المتمدنة المتحضرة، التي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أفظع إفلاس، وفشلت أمرَّ فشل، وما عهد أمريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد، أليس ذلك إعجازا للإسلام في سياسة الشعوب، وتهذيب الجماعات؟ بلى! والتاريخ من الشاهدين.

رابعا: أما الحكمة الرابعة: فهي تسهيل حفظ القرآن على المسلمين، وفهمهم وتدبرهم له، فمن المعلوم أن العرب كانوا أميين، أي لا يقرؤون ولا يكتبون، وقد سجّل القرآن الكريم عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ (الجمعة:٢)، كما

---

(١) جَبَّ: أي قطع. (المعجم الوسيط:١٠٤). (٢) الكابوس: ضغط يقع على صدر النائم لا يقدر معه أن يتحرك. قيل: ليس بعربي وهو بالعربية: الجاثوم. (المعجم الوسيط:٧٧٣).

كان صلوات الله عليه أميا كذلك ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ (الأعراف:١٥٧)، فاقتضت حكمة الله أن ينزل كتابه المجيد "منجما"؛ ليسهل حفظه على المسلمين؛ لأنهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم، فكانت صدورهم أناجيلهم كما ورد في وصف أمة محمد ﷺ، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه، وعجزوا بالتالي عن تدبره وفهمه.

خامسا: أما الحكمة الخامسة: فهي مسايرة الحوادث والوقائع في حينها، والتنبيه على الأخطاء في وقتها، فإن ذلك أوقع في النفس، وأدعى إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق "الدرس العملي"، فكلما جدَّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلما حصل منهم خطأ، أو انحراف نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغي اجتنابه، وطلب عمله، ونبّههم إلى مواطن الخطأ في ذلك الوقت والحين، خذ مثلا على ذلك: غزوة حنين، فقد دخل الغرور إلى نفوس المسلمين، وقالوا قولة الإعجاب والاغترار، لمَّا رأوا عددهم يزيد على عدد المشركين أضعافا مضاعفة، حين ذاك داخلهم العجب، فقالوا: "لن نغلب اليوم من قلة"، وكانت النتيجة انكسارهم، وانهزامهم وتوليتهم الأدبار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (التوبة:٢٥).

ولو أن القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن التنبيه على الخطأ في حينه؛ إذ كيف يتصور أن تنزل الآيات في شأن المؤمنين واغترارهم، و لم تحدث بعد تلك الواقعة أو الغزوة؟

وكذلك الحال في أخذ الفداء من الأسرى في "بدر"، حيث نزل التوجيه السماوي الرائع: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ....﴾ (الأنفال:٦٧).

سادسا: أما الحكمة السادسة: فهي الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل الحكيم الحميد، وفي هذه الحكمة الجليلة يجدر بنا أن ننقل نصَّ ما كتبه العالم الفاضل الشيخ محمد عبد العظيم الزّرقاني في كتابه "مناهل العرفان" حيث جاء برائع البيان، فقال رحمه الله:

"الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ،

ولا كلام مخلوق سواه، وبيان ذلك: أن القرآن الكريم نقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة[١] واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكُّك ولا تخاذل، كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نُظِّمت حروفه وكلماته، ونُسّقت جُمَله وآياته...، وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة؛ بل تنزل آحادا مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاما؟

الجواب: إننا نلمح هنا سرا جديدا من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة[٢] من سِمَات الربوبية، ونقرأ دليلا ساطعا على مصدر القرآن، وأنه كلام الواحد الديان: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافا كَثِيرا﴾ (النساء:٨٢) وإلا فحدِّثني بربك كيف تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعا أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النسج والسرد، متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعا لها، ومتحدثا عنها، سببا بعد سبب، وداعية إثر داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التأليف، وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عاما؟ لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي، يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال، ولا يدعان مجالا للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام.

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضا نزل مفرقا منجما، ولكنه تمَّ مترابطا محكما، أليس ذلك برهانا ساطعا على أنه كلام خالق القُوَى والقُدَر، ومالك الأسباب والمسببات،

---

[١] سبيكةٌ: من الذهب أو الفضة كتلة من الذهب أو الفضة مصبوبة على صورة معلومة، كالقضبان ونحوها، وجمعها سبائك. (المعجم الوسيط:٤١٥).

[٢] الفَذُّ: الفرد والمتفرد في مكانته، أو كفايته، والجمع أفذاذ وفُذوذ، والفَذَّة: الشَّاذة. (المعجم الوسيط:٦٧٨).

ومدبر الخلق والكائنات، وقيوم الأرض والسماوات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون؟

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا أنزلت عليه آية، أو آيات قال: "ضعوها في مكان كذا، من سورة كذا"، وهو بشر لا يدري طبعا ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلا عما سينزل من الله فيها... وهكذا يمضي العمر الطويل، والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجما بعد نجم، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم، وينتظم ويتآخى، ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يُعْجِز الخلق طُرّا، بما فيه من انسجام ووحدة وترابط: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١).

وإنه ليتبين لك سر هذا الإعجاز إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن، ولا على قريب من هذا النمط، لا في كلام الرسول ﷺ، ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء، خذ مثلا (حديث النبي ﷺ)، وهو ما هو في روعته وبلاغته وطهره وسموه، لقد قاله الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة، لدواع متباينة في أزمان متطاولة، فهل في مكنتك ومكنة البشر معك أن ينظموا من هذا السرد الشتيت وحده، كتابا واحدا يصقله الاسترسال والوحدة، من غير أن ينقصوا منه، أو يتزيدوا عليه، أو يتصرفوا فيه؟

ذلك ما لن يكون، ولا يمكن أن يكون، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث، ويخرج للناس بثوب مرقع، وكلام ملفق، ينقصه الترابط والانسجام، ويعوزه الوحدة والاسترسال، وتمجّه الأسماع والأفهام، إذن فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجما بأنه كلام الله وحده، وتلك حكمة وتلك حكمة جليلة الشأن، تدل الخلق على الحق في مصدر القرآن، ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورا رَحِيما﴾ (الفرقان:٦).

كيف تلقى النبي ﷺ القرآن؟

تلقى النبي ﷺ القرآن بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وجبريل تلقاه عن رب العزة جل جلاله، وليس لجبريل الأمين سوى تبليغ كلام الله وإيحائه للرسول ﷺ. فالله - جلت حكمته - قد أنزل كتابه المقدس على خاتم أنبيائه بواسطة أمين الوحي جبريل، وعلمه جبريل للرسول، وبلغه الرسول لأمته، وقد وصف جبريل عليه السلام بأنه أمين على الوحي، يبلغه كما سمعه عن الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير:١٩-٢١). وقال تعالى في وصفه أيضا: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (الشعراء:١٩٣،١٩٤).

أما حقيقة الكلام وحقيقة المنزل، فإنما هو كلام الله، وتنزيل رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل:٦)، وقد كان - صلوات الله عليه - يعاني عند نزول القرآن شدة، وكان يحاول أن يجهد نفسه من أجل حفظ القرآن، فيكرر القراءة مع جبريل حين يتلو عليه القرآن، خشية أن ينساه أو يضيع عليه شيء منه، فأمره الله تعالى بالإنصات والسكوت عند قراءة جبريل عليه، واطمأنه بأنه تعالى سيجعل هذا القرآن محفوظا في صدره، فلا يتعجل في أمره، ولا يجهد نفسه في تلقِّيه: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طـه:١١٤).

وأما تكفُّلُ الله تعالى له الحفظ، فقد جاء في قوله سبحانه: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة:١٦-١٩).

وقد كان جبريل يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان، فينزل جبريل على رسول الله ويستمع له القرآن، فيقرأ الرسول بين يديه وجبريل يستمع، ويقرأ جبريل والنبي يستمع، وهكذا يدارسه في كل رمضان ما نزل من القرآن مرة واحدة، وقبل وفاته ﷺ نزل عليه جبريل مرتين في رمضان، فدارسه القرآن، حتى لقد شعر عليه الصلاة والسلام - من نزول جبريل مرتين عليه - بدنوِّ أجله، وقال لعائشة رضي الله عنها: "إن جبريل كان ينزل عليّ، فيدارسني القرآن مرة واحدة في رمضان، وقد نزل عليّ هذا العام مرتين، وما أراني إلا قد اقترب أجلي". وقد كان الأمر كذلك،

فقد انتقل في ذلك العام إلى جوار ربه، صلوات الله وسلامه عليه، وانقطع بوفاته نزول الوحي.

أما كيف تلقى جبريل القرآن عن الله عزوجل؟ فقد تقدم معنا أنه كان سماعا، حيث سمع من الله عزوجل هذه الآيات، فنزل بها على رسول الله، قال البيهقي في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١)، يريد – الله أعلم – : إنا أسمعنا المَلَك وأفهمناه إياه، وأنزلناه بما سمع.

ومعنى هذا: أن جبريل أخذ القرآن عن الله تعالى سماعا، ويؤيده ما روي في الحديث الشريف: "إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا، وخروا سجدا، فيكون أولهم يرفع رأسه "جبريل"، فيكلمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلما مر بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أُمِر".(١)

قال الزّرقاني في كتابه "مناهل العرفان":

"وقد أسفّ بعض الناس، فزعم أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بمعاني القرآن، والرسول يعبر عنها بلغة العرب، وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل، وأن الله كان يوحي إليه المعنى فقط، وكلاهما قول باطل أثيم، مصادم لصريح الكتاب والسنة والإجماع، ولا يساوي قيمة المِدَاد الذي يكتب به، وعقيدتي أنه مدسوس على المسلمين في كتبهم، وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزا، واللفظ لمحمد أو لجبريل؟ ثم كيف تصح نسبته إلى الله، واللفظ ليس لله؟ مع أن الله يقول: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة:٦) إلى غير ذلك مما يطول بنا تفصيله".(٢)

هل السنة النبوية بوحي من الله؟

تقدم معنا أن القرآن الكريم "كلام الله"، ومعنى ذلك أن اللفظ والمعنى هو من عند الله، ولا دخل لجبريل أو لمحمد ﷺ فيه سوى التبليغ عن الله عزوجل، أما السنة النبوية، فإنها بوحي كذلك من الله، ولكن اللفظ للرسول والمعنى من عند الله؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣،٤).

---

(١) رواه الطبراني. (٢) مناهل العرفان، ص:٤٢.

وقد نقل السيوطي عن الجويني(١) أنه قال: "كلام الله المنزل قسمان:

قسم: قال الله لجبريل: قل للنبي الذي أنت مُرسَل إليه: "إن الله يقول: افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا"، ففهم جبريل ما قاله ربه، ثم نزل على ذلك النبي، وقال له ما قاله ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملِك لمن يثق به: قل لفلان: "يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة، واجمع جُندك للقتال"، فإن قال الرسول: "يقول لك الملك: لا تتهاون في خدمتي، ولا تترك الجند يتفرق، وحُثّهم على القتال...إلخ"، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير.

وقسم آخر: قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب، فنزل به جبريل من الله من غير تغيير، كما يكتب الملك كتابا، ويسلمه إلى أمين، ويقول: اقرأه على فلان.

قال السيوطي: القرآن هو القسم الثاني، والقسم الأول هو السنة، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى بخلاف القرآن.

* * * *

---

(١) انظر "الإتقان": ١/٨٩.

الفصل الثالث:

أسباب النزول

معرفة أسباب النزول، له أثر كبير في فهم معنى الآية الكريمة، ولهذا اعتنى كثير من العلماء بمعرفة أسباب النزول، حتى أفرد له بالتصنيف جماعة من العلماء، كان من أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري رحمهما الله، ومن أشهر ما كتب في هذا الفن كتاب "أسباب النزول" للواحدي، كما ألف فيه شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله، وألف فيه أيضا العلامة السيوطي رحمه الله كتابا حافلا عظيما، سماه "لباب النقول في أسباب النزول".

ولمعرفة أهمية هذا النوع من علوم القرآن، والتأكد من ضرورته لفهم معاني الآيات الكريمة نستطيع أن نقول: إن بعض الآيات لا يمكن فهمها أو معرفة أحكامها إلا على ضوء سبب النزول، فمثلا قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة:١١٥)، قد يفهم منها جواز التوجه في الصلاة إلى غير القبلة، وهذا الفهم خاطئ؛ لأن استقبال القبلة شرط لصحة الصلاة، وبمعرفة سبب النزول يتضح فهم الآية، فقد نزلت هذه الآية الكريمة فيمن كان في سفرٍ، وأضاع القبلة، فلم يعرف جهتها، فإنه يجتهد ويتحرَّى، ثم يصلي، فإلى أيّ جهة صلى، تصح صلاته، ولاتجب عليه إعادة الصلاة فيما إذا تبين له بعد الانتهاء خطأ توجهه. فالآية إذا ليست عامة، إنما هي خاصة فيمن جهل القبلة، فلم يعرف جهتها.

ومثال آخر على أهمية سبب النزول في فهم الآية أن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:٩٣)، إنما نزلت في الخمر، وقد يفهم من هذا النص الكريم إباحة شرب الخمر، كما ظن بعض الجهلة حيث قالوا: الخمر مباحة. واحتجوا بالآية الكريمة، ولو علموا سبب نزولها لم يفتروا ذلك، فقد روي أنه لما نزل تحريم الخمر في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠)، قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: فكيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا، وكانوا يشربون الخمر وهي رجس؟ فنزلت الآية الكريمة تبين أن من شرِبَها قبل التحريم، فإن الله قد عفا عنه، وليس عليه ذنب أو إثم؛ لأن الله لايؤاخذ على ما سبق من العبد قبل الإسلام، أو قبل التحريم، وبذلك تفهم الآية، ويبقى النص القطعي في تحريم شرب الخمر.

فوائد معرفة أسباب النزول:

قد يظن بعض الناس أنه لاطائل تحت هذا الفن، وليس له أثر كبير لجريانه مجرى التاريخ والقصص، فإن أسباب النزول – على زعمهم – ليست ضرورية لمن أراد تفسير كتاب الله.

وهذا زعم خاطئ وقول مردود، لايصدر من عالم بالكتاب، مطلع على أقوال المفسرين، وهنا نحن ننقل طرفا من آراء بعض العلماء، ثم نعقبها بذكر فوائد أسباب النزول:

قال **الواحدي**: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، وبيان نزولها.(١) وقال **ابن دقيق العيد**: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.(٢) وقال **ابن تيمية**: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.(٣)

وهكذا تظهر أهمية هذا الفن من علوم القرآن.

وأما فوائده فيمكن تلخيصها فيما يلي:

أ- معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

ب- دفع توهم الحصر فيما ظاهره الحصر.

ج- تخصيص الحكم بالسبب (عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب).

د- معرفة اسم من نزلت فيه الآية، وتعيين المبهم فيها.

---

(١) انظر "الإتقان": ١/٨٧. (٢) المصدر السابق. (٣) المصدر السابق.

إلى غير ما هنالك من فوائد أخرى جليلة.

أمثلة على معرفة أسباب النزول:

أولا: أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (آل عمران:١٨٨)، فقال لخادمه: اذهب إلى ابن عباس، فقل له: "لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذّبن أجمعون". فبين له ابن عباس رضي الله عنهما ما أزال عنه الإشكال، وقال له: إن الآية نزلت في أهل الكتاب – اليهود – حين سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، أروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، فنزلت الآية (رواه الشيخان).

ثانيا: كما أشكل على عروة بن الزبير رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة:١٥٨)، فإن ظاهر الآية الكريمة يشير إلى عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة، حتى قال عروة بن الزبير لخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: يا خالة! إن الله تعالى يقول: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، فأرى أنه لا بأس على الإنسان أن يترك السعي بينهما؟ فقالت له عائشة: بئس ما قلت يا ابن أختي! لو كان الأمر كما ذكرت، لقال الله تعالى: "فلا جناح عليه ألا يطوف بهما"، ثم أخبرته بأن الناس في الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة، وكانوا يحجُّون في سعيهم لصنمين، أحدهما على الصفا، يسمى "إسافا"، والثاني على المروة، ويسمى "نائلة"، فلما دخل الناس في الإسلام، تحرَّج بعض الصحابة من السعي بينهما خشيةَ أن يلتبس الأمر بعبادة الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة، تدفع عنهم الإثم والحرج، وتوجب عليهم السعي لله تعالى، لا للأصنام، فقد ردت عائشة على عروة فهمه، وكان ذلك بسبب النزول. (١)

---

(١) انظر "الإتقان": ٨٩/١.

ثالثا: أشكل على بعض الأئمة معنى الشرط في قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ (الطلاق:٤)، حتى قال الظاهرية: إن الآيسة التي انقطع دم الحيض عليها لكبر السن، لا عدة عليها إذا لم تَرْتَب، وقد تبين خطأ فهمهم بسبب النزول؛ فإن الآية خطاب لمن لم يعلم "ما حكمهن في العدة"، وارتاب "هل عليهن عدة أم لا"؟ فيكون معنى ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: إن أشكل عليكم حكمهن، وجهلتم "كيف يعتدون؟" فهذا هو حكمهن، وقد نزلت هذه الآية بعد أن قال بعض الصحابة: إن عدة بعض النساء لم تذكر في القرآن، وهن الصغيرات والآيسات، فنزلت الآية الكريمة، تبين حكم عدة كلٍّ منهن، والله أعلم. (١)

رابعا: ومن أمثلة فوائد معرفة أسباب النزول في دفع توهم الحصر، ما روي عن الشافعي ﵀ في قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (الأنعام:١٤٥)، فقد قال ما معناه: "إن الكفار لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادَّة والمحادَّة، جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه، فلم يقصد حل ما وراءه، وإنما القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل. قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك، لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية. (٢)

توضيح لمعنى الآية الكريمة:

وتوضيحا لهذه الفكرة أقول: إن ظاهر الآية الكريمة يدل على حصر المحرمات في هذه الأشياء المذكورة في الآية الكريمة، وليس الأمر كذلك، فإن هناك محرمات غير هذه، وإنما وردت الآية بصورة الحصر، وليس معناها الحصر للرد على المشركين في تحريمهم ما أحل الله، وتحليلهم لما حرم الله.

---

(١) انظر "الإتقان": ١/٨٨. (٢) انظر "الإتقان": ١/٨٩.

خامسا: ومن أمثلة فوائد سبب النزول أن نعرف اسم من نزلت فيه؛ ليزول اللبس والإبهام، فقد زعم مروان أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ (الأحقاف:١٧)، أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، فردت عليه عائشة رضي الله عنها هذا الزعم الباطل، وبينتْ له سبب نزولها، وتفصيل القصة على ما ذكرها البخاري، هي:

"إن مروان كان عاملا على المدينة، فأراد معاوية رضي الله عنه أن يستخلف يزيد، فكتب إلى مروان بذلك، فجمع مروان الناس فخطبهم، فذكر يزيد ودعا إلى بيعته، وقال: إن أمير المؤمنين أراه الله في يزيد رأيا حسنا، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: ما هي إلا هرقلية – يعنى أنها استبداد للمُلك، كعمل ملوك الروم – فقال مروان: سنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: هرقلية. إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا في أهل بيته، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده، فقال مروان: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ (الأحقاف:١٧)، فقالت عائشة من وراء الحجاب: "ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري – براءتي – ولو شئت أن أسمي من نزلت فيه لسميتُه"(١)

ما هو سبب النزول؟

قد تحصل واقعة، أو تحدث حادثة، فتنزل آية، أو آيات كريمة في شأن تلك الواقعة أو الحادثة، فهذا هو ما يسمى بـــ"سبب النزول"، وقد يعرض سؤال على النبي ﷺ بقصد معرفة الحكم الشرعي فيه، أو الاستفسار عن أمر من أمور الدين، فتنزل بعض الآيات الكريمة، فهذا أيضا ما يسمى بـــ"سبب النزول".

مثال الحادثة: ما رواه البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: كنت قينا – أي حدادا – وكان لي

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة حم الأحقاف (رقم الحديث: ٤٥٥٠).

على العاص بن وائل دين، فجئت أتقاضاه دَيني، فقال لي: لا أعطيك دينك حتى تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله، ثم يبعثك، فقال: إني إذا لميّت، ثم مبعوث، فانتظرني إلى ذلك اليوم، فسأوتي مالا وولدا، فأوفيك دينك، فأنزل الله عزوجل فيه قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَّوَلَداً، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً، كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً، وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ (مريم: ٧٧-٨٠)[١].

ومثال السؤال: ماروي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: "يا رسول الله! إن اليهود تغشانا، ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقا، ثم يزيد حتى يستوي ويستدبر، ثم ينتقص حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة:١٨٩)[٢].

كيف يعرف سبب النزول؟

يظهر مما سبق أن أسباب النزول لا يمكن أن تدرك بالرأي، ولابد فيها من الرواية الصحيحة والسماع، ممن شاهدوا التنزيل، أو وقفوا على الأسباب، وبحثوا فيها، من الصحابة والتابعين وغيرهم، ممن اكتسبوا علومهم على أيدي العلماء الموثوقين.

وقد قال ابن سيرين رحمه الله: سألت عبيدة عن آية من القرآن؟ فقال: اتق الله، وقل سدادا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن.

ويعتمد في معرفة سبب النزول على النقل الصحيح، فإذا صرح الراوي بلفظ السبب، فهو نص صريح فيه، كقول الراوي: سبب نزول هذه الآية كذا وكذا. وكذلك إذا أتى بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول، كقوله: حدث كذا، أو سئل النبي ﷺ عن كذا، "فنزلت"، فهو نص صريح في سبب النزول أيضا.

---

[١] انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة مريم، باب أفرأيت الذي كفر بآياتنا. (رقم الحديث:٤٤٥٥).

[٢] انظر "روح المعاني للآلوسي": ١٤٢/٢.

وقد لا تكون الصيغة نصا في السبب كقولهم: نزلت هذه الآية في كذا، فقد يراد منه سبب النزول، وقد يراد ما تضمنته الآية من أحكام، فيكون مثل قوله: عني بهذه الآية كذا.

قال الزركشي رحمه الله في البرهان: قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا...، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها. (١)

وقال ابن تيمية: قولهم: "نزلت هذه الآية في كذا"، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب فيه. (٢)

هل يتعدد سبب النزول؟

كثيرا ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسبابا متعددة، والمعتمد في مثل هذه الحال أن ننظر إلى العبارة التي قالوها، ونستطيع أن نستخلص ما يلي:

أولا: أن يعبر كل منهما بقوله: "نزلت هذه الآية في كذا.."، ويذكر أمرا آخر غير الذي ذكره الأول، فيحمل على أنه استنباط للحكم، وتفسير لمعنى الآية، فلا منافاة بينهما كما مر؛ لأنه ليس بسبب النزول.

ثانيا: أن يعبر أحدهما بقوله: "نزلت الآية في كذا"، ويصرح الآخر بذكر سبب النزول، فالمعتمد هنا التصريح، مثاله: ما رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ (البقرة:٢٢٣) في إتيان النساء في أدبارهن. (٣)

وروى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: "من أتى امرأته من دبرها

---

(١) انظر "الإتقان": ١/٩٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة البقرة، باب "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم" (رقم الحديث: ٤٤٥٣)، ولفظه: عن ابن عمر : "فأتوا حرثكم أنى شئتم" قال يأتيها في ...."

في قُبُلها جاء الولد أحول" فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾،(١) فالمعتمد هنا الثاني، وهو حديث جابر رضي الله عنه؛ لأنه نص في السبب، فهو نقل، وقول ابن عمر رضي الله عنهما ليس بنص، فيحمل على أنه استنباط للحكم وتفسير له.

ثالثا: أن يذكر كل واحد سببا صريحا للنزول غير الآخر، فيعتمد هنا الصحيح دون الضعيف، مثاله: ما أخرجه الشيخان عن جندب رضي الله عنه قال: اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة، فقالت: يا محمد! ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى١-٣).(٣)

وأخرج الطبراني: أن جروا دخل بيت النبي ﷺ، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة! ما حدث في بيت رسول الله ﷺ جبريل لا يأتيني؟ فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي ترعد لحيته — وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة –، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ إلى قوله ﴿فَتَرْضَى﴾ (الضحى١-٥)، فتعتمد على الرواية الأولى؛ لأنها في الصحيحين.

قال ابن حجر في شرح البخاري: قصة جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما في الصحيح.(٣)

رابعا: أن يستوي الإسنادان في الصحة، فنرجح أحدهما على الآخر لوجه من وجوه الترجيحات، كذكر الراوي أنه حضر القصة مثلا، أو نحو ذلك.

مثاله: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة، وهو يتوكأ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب النكاح، باب "جواز جماع امرأته في قبلها من قدامها ومن ورائها من غير تعرض للدبر". (رقم الحديث:١٤٣٦،١٤٣٥)

(٢) أخرجه البخاري في أبواب التهجد، باب ترك القيام المريض (رقم الحديث: ١٠٧٢،١٠٧٣)، وفي التفسير، سورة الضحى (رقم الحديث:٤٦٦٧)، وأخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين. (رقم الحديث:١٧٩٧) (٣) الإتقان: ٩٥/١.

على عسيب، فمرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة، ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥).⁽¹⁾

وما أخرجه الترمذي وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل عنه، فقالوا: اسألوه عن الروح، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ....﴾ (الإسراء:٨٥)⁽²⁾

فهذه الرواية تقتضي أنها نزلت بمكة، والأولى تقتضي أنها نزلت بالمدينة، فترجح الرواية الأولى؛ لأن ابن مسعود كان حاضر القصة، ثم ما رواه البخاري يرجح على ما رواه غيره.

خامسا: أن تكون كل من الروايتين صحيحة الإسناد، وأن يكون بينهما تقارب في المدة، فتنزل الآية أو الآيات بسبب الحادثتين معا، وننتهي إلى الجمع بين الروايتين.

مثاله: ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: "البينة أو حد في ظهرك"، فقال: يا رسول الله! إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلا، ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: "البينة أو حد في ظهرك"، فقال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله تعالى ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل عليه السلام، وأنزل الله عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (النور:٦-٩).⁽³⁾

وما أخرجه الشيخان عن سهل بن سعد قال: جاء عويمر بن نصر إلى عاصم بن عدي فقال: اسأل رسول الله عن رجل وجد مع امرأته رجلا، أيقتله فيقتل به، أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ، فعاب السائل، فأخبر عاصم عويمرا، فقال: والله لآتين رسول الله فلأسألنه، فأتاه

⁽¹⁾ أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب قول الله: "وما أو تيتم من العلم إلا قليلا". (رقم الحديث:١٢٥)

⁽²⁾ أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، سورة بني إسرائيل. (رقم الحديث:٣١٤٠)

⁽³⁾ أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة النور، باب ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. (رقم الحديث:٤٤٧٠).

فقال ﷺ: "إنه قد أنزل فيك وفي صاحبتك قرآن، وتلا الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ (النور:٦). (١)

وطريق الجمع بينهما أن نقول: إن أول من وقع له ذلك "هلال"، وصادف مجيء "عويمر" أيضا، فنزلت فيهما جميعا، قال ابن حجر: ولا مانع من تعدد الأسباب.

سادسا: أن لا يمكن الجمع بين الروايات الصحيحة، فيحمل على تعدد النزول وتكرره؛ لأن المدة بينهما بعيدة.

مثاله: ما روي في الصحيحين عن المسيب قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه رسول الله ﷺ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: أي عم! قل: لآ إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ....﴾ (التوبة:١١٣). (٢)

وما أخرجه الترمذي عن علي ﷺ قال: سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: استغفرَ إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك للرسول ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾. (٣)

وروي أيضا أن النبي ﷺ خرج يوما إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها، فناجاه طويلا، ثم بكى فقال: "إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء، فلم يأذن لي،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة النور، باب قوله عز وجل: "والذين يرمون أزواجهم" الآية (رقم الحديث: ٤٤٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب اللعان. (رقم الحديث:١٤٩٢)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: "لا إله إلا الله" (رقم الحديث:١٢٩٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضرة الموت ما لم يشرع في النزع (رقم الحديث:٣٩).

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، سورة التوبة (رقم الحديث:٣١٠١).

فأنزل علي: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ....﴾ (التوبة:١١٣). (١) قال السيوطي: فيجمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول. (٢)

هل العبرة بعموم اللفظ، أم بخصوص السبب؟

اختلف علماء الأصول في مسألة دقيقة، وهي: هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ أي أنه إذا وقعت حادثة فنزلت في شأنها آية كريمة، فهل يقتصر حكم هذه الآية على تلك الحادثة، أو الواقعة، أو الشخص الذي نزلت فيه، أم يتعدى الحكم إلى الجميع؟

فجمهور العلماء يذهبون إلى أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وهذا هو الصحيح، وهناك رأي آخر بأن العبرة بخصوص السبب.

قال السيوطي ﵀ في كتابه "الإتقان في علوم القرآن":

ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ: احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة، كنزول آية الظهار في سلمة بن صخر، وآية اللعان في شأن هلال بن أمية، وحد القذف في رماة عائشة، ثم تعدى الحكم إلى غيرهم لعموم اللفظ، وقد ورد عن ابن عباس ﵄ ما يدل على اعتبار العموم، فإنه قال به في آية السرقة، مع أنها نزلت في امرأة سرقت، ثم روي عن "نجدة الحنفي" قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

---

(١) وقال خاتمة المحققين الشيخ محمد أمين الشهير بابن عابدين ﵀ في "رد المحتار على الدر المختار" (٣٦٩/٦): "مَطلبٌ في إحياء أبوي النبي ﷺ بعد موتهما" ألا ترى أن نبينا ﷺ قد أكرمه الله تعالى بحياة أبويه له حتى آمنا به في حديث صححه القرطبي ﵀ وابن ناصر الدين حافظ الشام ﵀ وغيرهما، فانتفعا بالإيمان بعد الموت على خلاف القاعدة إكراما لنبيه ﷺ كما أحيا قتيل بني إسرائيل ليخبر بقاتله وكان عيسى ﵇ يحيي الموتى، وكذلك نبينا ﷺ أحيا الله على يديه جماعة من الموتى، وقد صح أن الله تعالى رد عليه ﷺ الشمس بعد مضيها حتى صلى علي كرم الله وجهه العصر، فكما أكرمه بعود الشمس والوقت بعد فواته، فكذلك أكرم بعود الحياة ووقت الإيمان بعد فواته. وما قيل: "إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة:١١٩) نزل فيهما" لم يصح، وخبر مسلم: "أبي وأبوك في النار" كان قبل علمه.

(٢) انظر "الإتقان": ٧١/١.

فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة:٣٨) أخاص أم عام؟ قال: بل عام.

قال ابن تيمية: قد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا – لا سيما إن كان المذكور شخصا – كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله، وأن قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة:٤٩) نزلت في بني قريظة وبني النضير، ونظائر ذلك.

فالذين قالوا ذلك، لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم؛ فإن هذا لا يقوله مسلم، ولا عاقل على الإطلاق.

وقال الزمخشري في تفسير سورة الهُمزة: يجوز أن يكون السبب خاصا، والوعيد عاما؛ ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون ذلك جاريا مجرى التعريض،(١) والله تعالى أعلم.

* * * *

---

(١) انتهى بتصرف، من كتاب "الإتقان في علوم القرآن".

الفصل الرابع:

نزول القرآن على سبعة أحرف
والقراءات المشهورة

تمهيد:

لما خلق الله الخلق، جعل لكل منهم شرعة ومنهاجا، وكان للعرب لهجات متعددة، اكتسبوها من فطرهم، واقتبسوا بعضها من جيرانهم، وكانت لغة قريش لها الصدارة والذيوع لأسباب عدة، منها اشتغالهم بالتجارة، ووجودهم عند بيت الله الحرام، وقيامهم على السدانة والرفادة، وكان القرشيون يقتبسون بعض اللهجات والكلمات التي تعجبهم، من غيرهم، وكان من الطبيعي أن ينزل الله أحكم الحاكمين القرآن باللغة التي يفهمها العرب أجمع؛ لتيسير فهمها، وللإعجاز والتحدي لأرباب الفصاحة بالإتيان بسورة أو بآية، وتيسير قراءته وفهمه وحفظه لهم؛ لأنه نزل بلغتهم كما قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢).

أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف:

أولا: روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف".[١]

زاد مسلم: "قال ابن شهاب: بلغني أن تلك السبعة في الأمر الذي يكون واحدا، لا يختلف في حلال ولا حرام".

ثانيا: روى البخاري ومسلم - واللفظ للبخاري - أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلم،

---

[١] صحيح البخاري (٣:٢٢٧)، صحيح مسلم (١:٥٦١) بسندهما عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

ثم لببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ، أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان.

فقال رسول الله ﷺ: أرسله يا عمر! اقرأ يا هشام!، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها، قال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت، ثم قال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه". وفي بعض الروايات: أن رسول الله استمع إلى قراءة عمر أيضا وقال: هكذا أنزلت.

ثالثا: روى مسلم بسنده عن أبي بن كعب قال: كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرها عليه، ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرءا، فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب، ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضضت عرقا، وكأنما أنظر إلى الله عزوجل فرقا، فقال له: يا أبي! أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هوِّن على أمتي، فرد إلي الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم، حتى إبراهيم عليه السلام.

قال القرطبي: "فكان هذا الخاطر (يشير إلى ما سقط في نفس أبي) من قبيل ما قال فيه النبي ﷺ حين سألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: "أوَقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان".(١)

رابعا: روى الحافظ أبو يعلى في مسنده الكبير: أن عثمان رضي الله عنه قال يوما وهو على المنبر:

---

(١) رواه مسلم.

أذكِّر الله رجلا سمع النبي ﷺ قال: "إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف"، لما قام، فقاموا حتى لم يحصوا، فشهدوا أن الرسول ﷺ قال: "أنزل القرآن على سبعة حروف، كلها شاف كاف"، فقال عثمان رضي الله عنه: "وأنا أشهد معهم".

خامسا: روى مسلم بسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان عند أضاة[1] بني غفار قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: "إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على حرف. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الثالثة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا".

سادسا: روى الترمذي عن أبي بن كعب أيضا قال: لقي رسولُ الله ﷺ جبريل عند أحجار المروة، قال: فقال رسول الله ﷺ لجبريل: إني بعثتُ إلى أمة أميين، فيهم الشيخ الفاني، والعجوز الكبيرة، والغلام، قال: فمرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف، قال الترمذي: حسن صحيح. وفي لفظ: "فمن قرأ بحرف منها فهو كما قرأ".

وفي لفظ حذيفة: فقلت: يا جبريل! إني أرسلت إلى أمة أمية، فيهم الرجل والمرأة، والغلام والجارية، والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتابا قط قال: "إن القرآن أنزل على سبعة أحرف".

سابعا: أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو أن رجلا قرأ آية من القرآن، فقال له عمرو: إنما هي كذا وكذا، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأي ذلك قرأتم أصبتم، فلا تماروا".

ثامنا: روى الطبري والطبراني عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:

---

[1] مستنقع الماء كالغدير، وهو موضع بالمدينة نسب إلى بني غفار؛ لأنهم نزلوا عنده.

أقرأني ابن مسعود سورة أقرأنيها زيد بن ثابت، وأقرأنيها أبي بن كعب، فاختلفت قراءهم، فبقراءة أيهم آخذ؟ فسكت رسول الله ﷺ وعلي إلى جنبه، فقال علي: ليقرأ كل إنسان منكم كما علم، فإنه حسن جميل.

تاسعا: أخرج ابن جرير الطبري عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة".

الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف:

١- التيسير على الأمة الإسلامية، وخاصة الأمة العربية التي نزل عليها القرآن، وكان لها لهجات متعددة على الرغم أنها تجمعها كلمة العروبة، نأخذ هذا من قوله ﷺ: "أن هوِّن على أمتي"، "وإن أمتي لا تطيق ذلك"، وغيرها.

قال المحقق ابن الجزري:

"وأما سبب وروده على سبعة أحرف؛ فللتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها، شرفا لها، وتوسعة ورحمة، وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق، حيث أتاه جبريل فقال: "إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال ﷺ: أسألُ الله معافاته ومغفرته، فإن أمتي لا تطيق ذلك، ولم يزل يردِّد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف.

ثم قال: وكما ثبت أن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف، وأن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد، وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين، والنبي ﷺ بعث إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم، عربيهم وعجميهم، وكان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، لغاتُهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج، لا سيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ كتابا، كما أشار إليه ﷺ، فلو

كُلِّفوا العدول عن لغتهم، والانتقال عن ألسنتهم، لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع".

٢- جمع الأمة الإسلامية على لسان واحد، يوحد بينها هو لسان قريش الذي انتظم كثيرا من مختارات ألسنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وغيره؛ ولذلك نزل القرآن على سبعة أحرف، يصطفي ما شاء من لغات القبائل العربية التي تمثلت في لسان القرشيين، وهذه حكمة إلهية سامية، فإن وحدة اللسان العام من أهم العوامل في وحدة الأمة، خصوصا أول عهدها بالتوثب والنهوض.

معنى نزول القرآن على سبعة أحرف؟

الأحرف: جمع حرف، والحرف له معان كثيرة، قال صاحب القاموس: "الحرف من كل شيء طرفه، وشفيره وحدُّه، ومن الجبل أعلاه المحدد، وواحد حروف التهجي ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ (الحج:١١) أي وجه واحد، وهو أن يعبده على السراء لا على الضراء، أو على شك، أو على غير طمأنينة من أمره، أي لا يدخل في الدين متمكنا. و"نزل القرآن على سبعة أحرف"، أي سبع لغات من لغات العرب. وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه وإن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر، ولكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن". (بتصرف)

مما تقدم نرى أن الحرف من قبيل المشترك اللفظي، والمشترك اللفظي يراد به أحد معانيه التي تعينها القرائن وتناسب المقام.

فالمراد من لفظ الحرف: أنه الوجه، بدليل ما يأتي:

قوله ﷺ: أنزل القرآن على سبعة أحرف.

كلمة "على" تشير إلى أن هذا الشرط للتوسعة والتيسير، بمعنى أنزل القرآن موسعا فيه على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه، يقرأ بأي حرف أراد منها على البدل من صاحبه، كأنه قال: أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسعة.

اختلاف العلماء في تفسير الأحرف الواردة في الحديث:

هنا يحتدم الجدال والنزاع، ويكثر القيل والقال، وسنذكر بعضا من الآراء، ونرجح ما نراه أقرب للصواب:

١- ذهب بعض العلماء إلى أن المراد به سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير في معنى من المعاني، يأتي القرآن بألفاظ على قدر هذه اللغات، وإذا لم يكن اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد.

وقيل: إن السبعة هي لغة "قريش"، و"هذيل"، و"ثقيف"، و"هوازن"، و"كنانة"، و"تميم"، و"اليمن".

٢- وقيل: إن المراد بالأحرف السبعة: سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغات، هي أفصح لغاتهم، فأكثره بلغة قريش، ومنه ما هو بلغة هذيل، أو ثقيف، أو هوازن، أو كنانة، أو تميم، أو اليمن.

قال بعضهم: هذا أصح الأقوال وأولاها بالصواب، وهو الذي صححه البيهقي، واختاره الأبهري، واقتصر عليه صاحب القاموس.

٣- إن المراد بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، سبعة أصناف في القرآن.

ولكن أصحاب هذه الأقوال يختلفون في تعيين هذه الأصناف، وفي أسلوب التعبير عنها اختلافا كبيرا، فمنهم من يقول: إنها أمر، ونهي، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال.

ومنهم من يقول: إنها وعد، ووعيد، وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال، واحتجاج.

ومنهم من يقول: إنها محكم، ومتشابه، وناسخ، ومنسوخ، وخصوص، وعموم، وقصص.(١)

٤- إن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختلفة في كلمة واحدة، ومعنى واحد، نحو: هلم، وأقبل، وتعال، وعجل، وأسرع، وقصدي، ونحوي، فهذه الألفاظ السبعة معناها واحد هو "طلب الإقبال".

---

(١) مناهل العرفان ص:١٧٦.

وهذا القول منسوب لجمهور أهل الفقه والحديث، منهم ابن جرير الطبري، والطحاوي، وغيرهما.

٥- أن المراد بالأحرف السبعة الاختلاف في أمور سبعة:

أ- اختلاف الأسماء إفرادا وتذكيرا وفروعهما، مثاله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون:٨) فكلمة "أمانتهم" قرئ بالجمع والإفراد.

ب- الاختلاف في تصريف الأفعال من مضارع، وماض، وأمر، مثاله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ (سبأ:١٩) قرئ بنصب لفظ "ربَّنا" على أنه منادى، وبلفظ "بَاعد" فعل أمر. وقرئ "ربُّنا بعَّد" برفع "ربّ" على أنه مبتدأ، وبلفظ "بعّد" فعلا ماضيا مضعف العين، جملته خبر.

ج الاختلاف بالإبدال، سواء كان إبدال حرف بحرف، كقوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ (البقرة:٢٥٩) قرئ بالزاي وبالراء مع فتح النون، وقوله سبحانه: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ (الواقعة:٢٩) قرئ "وطَلْعٍ"، فلا فرق في هذا بين الاسم والفعل أو إبدال لفظ بلفظ، كقوله سبحانه: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (القارعة:٥) قرأ ابن مسعود: "كالصوف المنفوش".

د- اختلاف بالتقديم والتأخير، إما في حرف كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ (الرعد:٣١) قرئ "أفَلَمْ يَأْيسْ"، وإما في الكلمة، نحو: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (التوبة:١١١) قرئ بالبناء للفاعل في الأول، وللمفعول في الثاني، وقرئ بالعكس، وكقوله سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ (ق:١٩) قرئ "وجاءت سكرة الحق بالموت".

ح- اختلاف وجوه الإعراب، كقوله سبحانه: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَراً﴾ (يوسف:٣١) قرأ ابن مسعود بالرفع، وكقوله سبحانه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (البروج:١٥) برفع المجيد على أنه نعت كلمة "ذو"،وجرها على أنها صفة العرش.

و- الاختلاف بالزيادة والنقص، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ (الليل:٣) قرئ "والذكر والأنثى" بحذف "ما خلق".

ظ- اختلاف اللهجات بالتفخيم، والترقيق، والإمالة، والإظهار، والإدغام، وهو كثير، ومنه الإمالة وعدمها، في مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (النازعات:١٥).

وهذا الرأي الأخير قد ذهب إليه الرازي، وقاربه كل القرب مذهب ابن قتيبة، وابن الجزري، وابن الطيب، وقد أخذ به الشيخ الزّرقاني في كتابه "مناهل العرفان" وأيده ببعض الأدلة.

الترجيح:

وأقرب الوجوه إلى الصواب هو المذهب الأخير، الذي اختاره الرازي، واعتمده الزّرقاني في كتابه "مناهل العرفان" وأيده بأدلة، منها:

١- إن هذا المذهب هو الذي تؤيده الأحاديث المتقدمة.

٢- إنه يعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات، وما ترجع إليه من الوجوه السبعة.

٣- إن هذا الرأي لا يلزمه محذور.

والآراء في "الأحرف السبعة" كاملة تجدها في كتاب "مناهل العرفان" للزرقاني، وفيها توهين المذاهب الأخرى والرد عليها (ص:١٦٥-١٧٧).

ونحن ننقل خلاصة هذا المذهب من كلام أبي الفضل الرازي في اللوائح حيث يقول: الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف.

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد، وتثنية، وجمع، وتذكير، وتأنيث.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماض، ومضارع، وأمر.

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة.

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير.

السادس: الاختلاف بالإبدال.

السابع: اختلاف اللغات، يعني اللهجات، كالفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والإظهار والإدغام، ونحو ذلك.

هل الأحرف السبعة موجودة في المصاحف الآن؟

١- ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن جميع هذه الأحرف موجودة بالمصاحف العثمانية.

حجتهم:

أ- أنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء منها.

ب- أن الصحابة أجمعوا على أن الصحف التي نقلها عثمان ﵁ من الصحف التي كتبها أبوبكر ﵁.

ج- معنى ما تقدم أن الصحف التي عند أبي بكر قد جمعت الأحرف السبعة، ونقلت منها المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة كذلك.

د- قول النبي ﷺ: "إن أمتي لا تُطيق ذلك" لا يختص بعهد الصحابة دون غيرهم، وبقاء تيسير القرآن مع بقاء إعجازه.

٢- ذهب جماهير العلماء من السلف والخلف، وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل ﵇.

٣- ذهب ابن جرير الطبري ومن معه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة، وقالوا: إن الأحرف السبعة كانت في أيام الرسول ﷺ، وأبي بكر وعمر، فلما كان عهد عثمان رأت الأمة بقيادته أن تقتصر على حرف واحد جمعا لكلمة المسلمين،

ونسخ عثمان بهذا الحرف الذي استبقته الأمة وحده جميع المصاحف العثمانية.

قال الزّرقاني في "مناهل العرفان" (ص:٦٦٢) ما نصه:

"ونحن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية، وما هو مخطوط بها في الواقع ونفس الأمر، نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقض، ونصل إلى فصل الخطاب في هذا الباب، وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلا أو بعضا، بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرف منها رأسا".

وقد بين ووضح الشيخ الزّرقاني وجود الأوجه السبعة على مذهبه المختار، وأن الأوجه السبعة موجودة الآن في المصاحف العثمانية، وسأكتفي بذكر مثال من أمثلته، غير أن بعض الوجوه السبعة ذكر أنها منسوخة بالعرضة الأخيرة.

مثاله: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون:٨) المقروءة بجمع الأمانة وإفرادها، فقد اشتمل عليها المصحف إذ كان الرسم العثماني فيه هكذا: (لِأَمَٰنَٰتِهِمْ) برسم المفرد في الحروف، ولكن عليها ألف صغيرة؛ لتشير إلى قراءة الجمع، وغير منقوطة ولا مشكولة.(١)

مناقشة مذهب الطبري:

قال الطبري: إن الأحرف الستة نسخت بإجماع الأمة في عهد عثمان رضي الله عنه، وبقي حرف واحد حفاظا لوحدة الأمة الإسلامية من التفرق، حين كفر بعضهم بعضا بسبب اختلاف القراءات وخيفت الفتنة، فلم تجد الأمة حلا لهذه المشكلة إلا جمع الأمة على قراءة حرف واحد.

الرد عليه:

١- الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في القراءة في عهد رسول الله ﷺ، وكادت أن تقع فتنة -كما

---

(١) مناهل العرفان، ص:١٦٢.

قلتم - فكيف حل الرسول ﷺ هذه المشكلة؟ إنما كان حله الوحيد إقرار كل من المختلفين على القراءة التي قرأ بها، وأفهمهم أن تعدد وجوه القراءة هو رحمة من الله بهم وتيسير عليهم، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة.

٢- وقال في الحديث: "إن أمتي لا تطيق ذلك"، وأمته باقية إلى يوم القيامة، كما نشاهد نحن الآن أن بعض الشعوب الإسلامية لا يتيسر لها النطق ببعض الحروف، ولا تحسن إتقان بعض اللهجات دون بعض.

٣- بعد ما عرفنا ما تقدم، نقول: كيف يسوغ لصحابة رسول الله عليهم من الله الرضوان، - وعلى رأسهم عثمان بن عفان رضي الله عنه - إغلاق باب الرحمة والتخفيف الذي فتحه الله لأمة الإسلام؟ مخالفي الرسول عليه الصلاة والسلام في علاجه للنزاع الذي حصل بين الصحابة بتقرير هذا التعدد للحروف.

٤- إننا نربأ بأصحاب رسول الله ﷺ أن يكونوا قد وافقوا، أو فكروا على ضياع ستة أحرف من القرآن الكريم، وهي لم تنسخ لا تلاوة ولا حكما، ولم يكونوا ليخالفوا الرسول في قوله وعمله.

٥- لو كانت هذه الأحرف نسخت في عهد عثمان رضي الله عنه، لم يبق مجال لاختلاف العلماء فيها، ولكننا نجدهم اختلفوا فيها على نحو من أربعين قولا.

٦- لو فرضنا - جدلا - أن الأحرف الستة نسخت في عهد عثمان فلماذا لا تبقى لمجرد التاريخ فقط في أعظم كتاب مقدس، مع أن الصحابة بينوا الآيات المنسوخة تلاوة أو حكما، وكذلك الآيات المنسوخة والأحاديث الموضوعة، وبينوا لكل وجهته.

٧- وقصارى القول: أن الصحابة رضي الله عنهم لم يرضوا بمخالفة رسول الله ﷺ في قوله أو فعله، ولم يكن لهم التبديل ونسخ ما لم ينسخ من كتاب الله، وحاشاهم أن يقدموا على مثل هذا الفعل، رضي الله عنهم وأرضاهم.(١)

---

(١) انظر صفحة ٢٥١-٢٦٠ للبحث المفصل المتعلق بالأحرف السبعة.

بعض الشبهات الواردة على الموضوع والرد عليها

الشبهة الأولى:

يقولون: إن المراد بالأحرف السبعة هي القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء.

الرد عليهم: قولكم هذا باطل من وجوه:

١- إن قول الرسول ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف" يكون عاريا من الفائدة على قولكم حتى يولد الأئمة السبعة، مع أن قولكم غير صحيح؛ لأن الرسول ﷺ قرأ بها وصحابته والتابعون قبل ميلاد القراء.

قال المحقق ابن الجزري: "فلو كان الحديث منصرفا إلى قراءات القراء السبعة المشهورين، أو سبعة غيرهم من القراء الذين ولدوا بعد التابعين لأدى ذلك إلى أن يكون الخبر عاريا عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء السبعة، فتؤخذ عنهم القراءة، وأدى أيضا إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا، اختاروا القراءة به، وهذا باطل؛ إذ طريق أخذ القراءة أن تؤخذ عن إمام ثقة، لفظا عن لفظ، إماما عن إمام، إلى أن يتصل بالنبي ﷺ".

٢- إن الأحرف السبعة أعم من القراءات السبع عموما مطلقا؛ لأن الأحرف السبعة تشمل القراءات التي قرأ بها الرسول ﷺ، وتشمل أيضا ما وصل إلى هؤلاء القراء السبعة، وما نسخ قبل أن يصل إليهم، وتنتظم جميع القراءات صحيحها، ومنكرها، وشاذها، فما دام أن الأحرف أعم من القراءات فلاتكون هي نفس القراءات.

٣- من المحال عقلا أن يفرض الرسول ﷺ قراءة القرآن على صحابته بقراءة القراء الذين لم يخلقوا بعد، وهذا الرأي باطل.

الشبهة الثانية:

يقولون: إن أحاديث نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف تثبت الاختلاف مع أن القرآن نفسه ينفي الاختلاف بقوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ (النساء:٨٢)، وذلك تناقض، ولا ندري أيهما الصادق؟

الجواب: إن الاختلاف الذي تثبته الأحاديث غير الذي ينفيه القرآن، وعلى هذا كلاهما صادق؛ إذ أن الاختلاف الذي تثبته الأحاديث فيما يتعلق بطرق الأداء والنطق بألفاظ القرآن في دائرة محدودة، لا تعدو سبعة أحرف، وبشرط التلقي فيها كلها عن النبي ﷺ.

فعلى هذا يكون الاختلاف في الأحاديث بمعنى التنويع، أما القرآن فينفي التناقض بين أحكامه ومعانيه وتعاليمه، مع ثبوت التنويع في التلفظ والأداء[1].

والحاصل: قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وهذا المجموع في المصحف: هل هو جميع الأحرف السبعة التي أقيمت القراءة عليها؟ أو حرف واحد فيها؟ قال القاضي أبوبكر: إنه جميعها، وصرح أبو جعفر الطبري والأكثرون من بعده بأنه حرف منها، ومال الشيخ الشاطبيُّ إلى قول القاضي فيما جمعه أبو بكر ﵁، وإلى قول الطبري فيما جمعه عثمان ﵁.

قال الزركشي في البرهان: قال بعض المتأخرين: القراءات السبع التي قرأها القراء السبعة كلها صحت عن رسول الله ﷺ، وهو الذي جمع عليه عثمان ﵁ المصحف، وهذه القراءات السبع اختيارات أولئك القراء، فإن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهة من القراءة ما هو الأحسن عنده، ولزم طريقة منها ورواها وقرأ بها، واشتهرت عنه، ونسبت إليه فقيل: حرف نافع، وحرف ابن كثير، ولم يمنع واحد منهم حرف الآخر، ولا أنكره، بل سوغه وحسنه، إلى أن قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عنهم، وكان الإنزال على

---

[1] نقلا عن "مناهل العرفان" ص:١٧٩ بتصرف.

الأحرف السبعة توسعة من الله ورحمة للأمة؛ إذ لو كلف كل فريق منهم ترك لغته والعدول عن عادة نشؤوا عليها من الإمالة والهمز، والتليين والمد، وغيره لشق عليهم.

القراءات المشهورة:

في نهاية البحث نرى لزاما علينا أن نتكلم على نبذة مختصرة عن القراءات وكيف نشأت؟ ومن هم القراء المشهورون؟

تعريف القراءات:

القراءات: جمع قراءة، مصدر قرأ يقرأ قراءة، واصطلاحا: مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمامٌ من الأئمة القراء مذهبا يخالف غيره في النطق بالقرآن الكريم وهي ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله ﷺ.

هل كان في عهد الصحابة قراء؟

نعم! يرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة الكرام، فقد اشتهر بالإقراء منهم: أبيّ، وعلي، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم رضي الله عنهم.

وعن هؤلاء أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار، وكلهم يسند إلى رسول الله ﷺ إلى أن جاء عهد التابعين في المائة الأولى، فتجرد قوم، واعتنوا بضبط القراءة عناية تامة حين دعت الحاجة إلى ذلك، وجعلوها علما كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخرى.

ونعود ونقول كيف نشأت القراءات؟

عرفنا آنفا أن عهد القراء من عهد الصحابة إلى عهد التابعين، وأن المعول عليه في القرآن الكريم إنما هو التلقي والأخذ، ثقة عن ثقة، وإماما عن إمام، إلى النبي ﷺ، وكانت المصاحف غير منقوطة ولا مشكولة، وأن صورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءات

المختلفة، وإذا لم تحتملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر، وهلم جرا. فلا غرو أن كان التعويل على الرواية والتلقي هو العمدة في باب القراءة والقرآن.

ثم إن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ، فمنهم من قرأ بحرف، ومنهم من أخذه عنه بحرفين، ومنهم من زاد، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال.

وكان عثمان رضي الله عنه حين بعث المصاحف إلى الآفاق، أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الغالب، وعند تفرق الصحابة في البلدان مع اختلافهم في القراءات نقل ذلك عنهم التابعون ومن تبعهم، واختلف بسبب ذلك أخذ التابعين حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين، الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها، ويعنون بها، وينشرونها.

هذا منشأ علم القراءات واختلافها، وإن كان هذا الاختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة لمواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم، وهذا الاختلاف في حدود الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم كلها من عند الله.

ويحسن في هذا المقام أن ننقل ما كتبه الشيخ الزّرقاني في كتابه "مناهل العرفان"، وقد نقله من كتاب للنويري مخطوط بدار الكتب المصرية وضعه شرحا للطيبة في القراءات، قال:

"والاعتماد في نقل القرآن على الحفاظ، ولذلك أرسل - أي عثمان رضي الله عنه - كل مصحف مع من يوافق قراءته في الأكثر، وليس بلازم. وقرأ كل مصر بما في مصحفهم، وتلقوا ما فيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ، ثم تجرد للأخذ عن هؤلاء قوم أسهروا ليلهم في ضبطها، وأتعبوا نهارهم في نقلها، حتى صاروا في ذلك أئمة للاقتداء، وأنجما للاهتداء، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم، ولم يختلف عليهم اثنان في صحة روايتهم ودرايتهم، ولتصدّيهم للقراءة نسبت إليهم، وكان المعول فيها عليهم.

"ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا، وفي البلاد انتشروا، وخلفهم أممٌ بعد أمم، وعرفت طبقاتهم،

واختلفت صفاهم، فكان منهم المتقن للتلاوة المشهورة بالرواية والدراية، ومنهم المحصل لوصف واحد، ومنهم المحصل لأكثر من واحد، فكثر بينهم لذلك الاختلاف، وقلّ منهم الائتلاف.

فقام عند ذلك جهابذة الأئمة، وصناديد الأمة، فبالغوا في الاجتهاد بقدر الحاصل، وميزوا بين الصحيح والباطل، وجمعوا الحروف والقراءات، وعزوا الأوجه والروايات، وبينوا الصحيح والشاذ، والكثير والفاذ بأصول أصلوها وأركان فصلوها...إلخ"(١).

عدد القراءات وأنواعها:

ذكر صاحب كتاب "الإتقان" أن القراءات متواترة، ومشهورة، وآحاد، وشاذ، وموضوع، ومدرج. قال القاضي جلال الدين البلقيني: القراءة تنقسم إلى متواتر، وآحاد، وشاذ.

فالمتواتر: القراءات السبع المشهورة(٢).

والآحاد: قراءة الثلاثة التي هي تمام العشر، ويلحق بها قراءة الصحابة.

والشاذ: قراءة التابعين، كالأعمش، ويحيى بن وثاب، وابن جبير، ونحوهم.

قال السيوطي: هذا الكلام فيه نظر، وأحسن من تكلم في هذا النوع إمام القراء في زمانه الشيخ أبو الخير ابن الجزري، قال في أول كتابه "النشر":

"كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة، أم عمن هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف.(٣)

---

(١) مناهل العرفان: ١/٤٠٧.

(٢) الإتقان: ١/٢٠٣.

(٣) مناهل العرفان: ١/٤٠٩، والإتقان: ١/٢٠٣.

قال صاحب الطيبة في ضابط قبول القراءات:

وكلُّ ما وافقَ وجهَ النحو وكان للرَّسم احتمالا يحوِي
وصحَّ إسناداً، هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختلُّ ركنٌ أثْبِت شذوذَه لو أنه في السَّبعة

والقراءات: قيل: القراءات السبع، والقراءات العشر، والقراءات الأربع عشرة، وأحظى الجميع بالشهرة، ونباهة الشأن: القراءات السبع.

وتنسب هذه القراءات إلى الأئمة السبعة المعروفين، وهم: نافع، وعاصم، وحمزة، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلي الكسائي رحمهم الله.

والقراءات العشر، هذه السبعة وزيادة قراءة أبي جعفر، ويعقوب، وخلف.

والقراءات الأربع عشرة، بزيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة وهي قراءة الحسن البصري، وابن محيص، ويحي اليزيدي، والشنبوذي.

أول من صنف في القراءات:

علم القراءات أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا.

وأول من صنف في القراءات أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي حاتم السجستاني، وأبي جعفر الطبري، وإسماعيل القاضي.

متى اشتهرت قراءة السبعة؟

اشتهرت قراءة السبعة على رأس المائتين في الأمصار الإسلامية. فكان الناس في البصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع.

متى دونت القراءات؟

دونت في نهاية القرن الثالث ببغداد على يد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس، فجمع

قراءات هؤلاء السبعة، غير أنه أثبت اسم الكسائي، وحذف يعقوب.

طريقته:

كان آخذا على نفسه ألا يروي إلا عمن اشتهر بالضبط والأمانة، وطول العمر في ملازمة القراءة، واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقي منه.

واقتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة، ليس بحاصر للقراء فيهم، ولا بملزم أحدا أن يقف عند حدود قراءتهم.

القراء السبعة المشهورون:

القراءات المتواترة نقلت لنا عن القراء الحفظة، المشهورين بالحفظ والضبط والإتقان، وهم أئمة القراءات المشهورة، الذين نقلوا لنا قراءة الصحابة عن رسول الله ﷺ، وكان لهم فضل العلم والتعليم لكتاب الله العظيم، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: "خيرُكم من تعلَّم القرآن وعلمه"، وقد جمع الشيخ أبو اليسر عابدين هؤلاء القراء في بيتين من الشعر فقال:

فنافع، وابن كثير، عاصمُ وحمزة، ثمَّ أبو عمرو همو
مع ابن عامر أتى الكسائي أئمة السبع بلا امتراء

القراء السبعة:

١ - ابن عامر:

اسمه عبد الله اليحصبي، قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك، ويكنى أبا عمران، وهو تابعي، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ، توفي بدمشق سنة ثماني عشر ومائة وقد اشتهر برواية قراءته هشام، وابن ذكوان.

قال فيهم صاحب الشاطبية:

وما دمشق الشام دار ابن عامر فتلك بعبد الله طابت محللا
هشام وعبد الله وهو انتسابه لذكوان بالإسناد عنه نقلا

٢- ابن كثير:

هو أبو محمد، عبد الله بن كثير الداري المكي، كان إمام الناس في القراءة بمكة، وهو تابعي، لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك، وتوفي بمكة سنة مائة وعشرين.

وراوياه البزي (ت٢٥٠هـ) وقنبل (ت٢٩١هـ).

قال فيهم صاحب الشاطبية:

ومكة عبد الله فيها مقامه هو ابن كثير كاثر القوم مُعْتَلا
روى أحمد البزي له ومحمد على سند وهو الملقب قنبلا

٣- عاصم الكوفي:

هو عاصم بن أبي النجود الأسدي، ويقال له: ابن بهدلة، ويكنى أبا بكر، وهو تابعي، توفي بالكوفة سنة ١٢٧أو ١٢٨، وراوياه شعبة (ت١٩٣هـ) وحفص (ت١٨٠هـ).

يقول فيهم صاحب الشاطبية:

وبالكوفة الغراء منهم ثلاثة أذاعوا فقد ضاعت شذى وقرنفلا
فأما أبو بكر وعاصم اسمه فشعبة راويه المبرز أفضلا
وذاك ابن عياش أبو بكر الرضا وحفص وبالإتقان كان مفضلا

٤- أبو عمرو:

هو أبو عمرو زبَّان بن العلاء بن عمار البصري، شيخ الرواة، وقيل: اسمه يحيى، وقيل: اسمه كنيته، توفي بالكوفة سنة أربع وخمسين مائة، وراوياه الدوري (ت٢٤٦هـ) والسوسي (ت٢٦١هـ).

قال صاحب الشاطبية:

وأما الإمام المازني صريحهم   أبو عمرو البصري فوالده العلا
أفاض على يحيى اليزيدي سيبه   فأصبح بالعذب الفرات معللا
أبو عمرو الدوري وصالحهم أبو   شعيب هو السوسي عنه نقلا

٥- حمزة الكوفي:

هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضي التيمي، مولى عكرمة بن ربيع التيمي، ويكنى أبا عمارة، توفي بحلوان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٦هـ، وراوياه خلف (ت٢٢٩هـ) وخلاد (ت٢٢٠هـ) بواسطة سليم.

قال صاحب الشاطبية:

وحمزة ما أزكاه من متورِّع   إماماً صبوراً للقرآن مرتلا
روى خلَفٌ عنه وخلَّاد الذي   رواه سليم متقناً ومحصلا

٦- نافع:

هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي، أصله من أصفهان، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة المنورة، وتوفي بها سنة ١٦٩هـ، وراوياه قالون(1) (ت٢٢٠هـ) وورش (ت١٩٧هـ).

يقول صاحب الشاطبية:

فأما الكريم السر في الطيب نافع   فذاك الذي اختار المدينة منزلا
وقالون عيسى، ثم عثمان ورشهم   بصحبة المجد الرفيع تأثَّلاً

٧- الكسائي:

هو علي بن حمزة إمام النحاة الكوفيين، ويكنى أبا الحسن، وقيل له: الكسائي؛ لأنه كان في الإحرام

---

(1) معناه: الجيد في أصل وضعها، ورش؛ لشدة بياضه.

لابسا كساء، توفي بـــ"برنبوية" قرية من قرى الريّ، حين توجه إلى خراسان مع الرشيد سنة ١٨٩، وراوياه أبو الحارث (ت٢٤٢هـــ) والدوري (ت٢٤٦هـــ).

يقول صاحب الشاطبية:

وأما علي فالكسائي نعته لما كان في الإحرام فيه تسربلا
روى ليثهم عنه أبو الحارث الرضا وحفص هو الدوري وفي الذكر قد خلا

* * * *

الفصل الخامس:

النسخ في القرآن الكريم وحكمته التشريعية

جاءت الشريعة الإسلامية الغراء، محققة لمصالح الناس، متمشية مع تطور الزمن، صالحة لكل زمان ومكان، وكان من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن سنّ لهم سنة "التدرج في الأحكام"؛ لتبقى النفوس على أتم الاستعداد؛ لتقبل تلك التكاليف الشرعية برضى وقناعة وطمأنينة، فلا تشعر بملل أو ضجر، ولاتشعر بمشقة أو شدة، ولتظل الشريعة الغراء - كما أرادها المولى جل وعلا - شريعة سمحة، سهلة، يسيرة، لا عسر فيها ولا تعقيد، ولاشطط فيها ولاإرهاق، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥)، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ...﴾ (الحج:٧٨) الآية.

ومن المعلوم أن الأحكام ما شرعت إلا لمصلحة العباد، وهذه المصلحة تختلف باختلاف الزمان والمكان، فإذا شرع حكم في وقت من الأوقات، وكانت الحاجة ملحّة إليه، ثم زالت تلك الحاجة، فمن الحكمة نسخه وتبديله بحكم يوافق الوقت الآخر، فيكون هذا التبديل والتغيير محققا للمصلحة، مؤديا للغاية، نافعا للعباد، وما مثل ذلك إلا كمثل الطبيب، الذي يغير الأغذية والأدوية للمريض باختلاف الأمزجة والقابلية والاستعداد.

والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، هم "أطباء القلوب"، ومصلحو النفوس؛ لذلك جاءت شرائعهم مختلفة، تبعا لاختلاف الأزمنة والأمكنة، وجاءت بسنة "التدرج في الأحكام"؛ لأنها بمثابة الأدوية والعقاقير⁽¹⁾ للأبدان، فما يكون منها في وقت مصلحة، قد يصبح في وقت آخر مفسدة، وما يصلح لأمة لا يصلح لأخرى، وتلك هي حكمة العليم الحكيم، الذي شرع لكل زمان ما يصلح له.

---

(1) العقاقير جمع عاقر: أصل الدواء.

كلمة لطيفة في النسخ للقاسمي:

وجاء في التفسير المسمى "محاسن التأويل" للشيخ جمال الدين القاسمي، كلمة بديعة ننقلها هنا لجمالها، يقول الشيخ رحمه الله:

"إن الخالق تبارك وتعالى ربَّى الأمة العربية في ثلاث وعشرين سنة تربية تدريجية، لا تتمّ لغيرها - بواسطة الفواعل الاجتماعية - إلا في قرون عديدة، لذلك كانت عليها الأحكام على حسب قابليتها، ومتى ارتقت قابليتها بدَّل الله ذلك الحكم بغيره، وهذه سنة الخالق في الأفراد والأمم على حد سواء، فإنك لو نظرت في الكائنات الحية، لرأيت أن النسخ ناموس طبيعي محسوس في الأمور المادية والأدبية معا، فإن انتقال الخلية الإنسانية إلى جنين، ثم إلى طفل، فيافع، فشاب، فكهل، فشيخ، وما يتبع كلّ دور من هذه الأدوار، يريك بأجلى دليل: أن التبدل في الكائنات ناموس طبيعي محقق، وإذا كان هذا النسخ ليس بمستنكر في الكائنات، فكيف يستنكر نسخ حكم وإبداله بحكم آخر في الأمة، وهي في حالة نمو وتدرج من أدنى إلى أرقى؟

هل يرى إنسان له مسكة من عقل أن من الحكمة تكليف العرب - وهم في مبدأ أمرهم - بما يلزم أن يتصفوا به، وهم في نهاية الرقي الإنساني، وغاية الكمال البشري؟ وإذا كان هذا لا يقول به عاقل في الوجود، فكيف يجوز على الله - وهو أحكم الحاكمين - بأن يكلف الأمة وهي في دور "طفوليتها" بما لاتتحمله إلا في دور "شبوبيَّتِها، وكهولتها"...؟

وأي الأمرين أفضل؟ أشرعنا الذي سنّ الله لنا حدوده بنفسه، ونسخ منه ما أراد بعلمه، وأتمّه بحيث لا يستطيع الإنس والجن أن ينقصوا حرفا منه؛ لانطباقه على كل زمان ومكان، وعدم مجافاته لأية حالة من حالات الإنسان؟ أم شرائع دينية أخرى، حرّفها كُهّانُها، ونسخ الوجود أحكامها - بحيث يستحيل العمل بها - ؛ لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه...؟"(١)

---

(١) انظر "محاسن التأويل" للشيخ جمال الدين القاسمي: ٢/٢١٩.

تعريف النسخ لغة واصطلاحا:

النسخ لغة: يأتي بمعنى الإزالة، تقول العرب: نسخت الشمس الظل - أي: أزالته -، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ (الحج:٥٢) أي: يزيله ويبطله، ويأتي بمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه قولهم: نسختُ الكتاب، أي: نقلت ما فيه إلى كتاب آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثـية:٢٩) ويأتي بمعنى التبديل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ (النحل:١٠١)، وبمعنى التحويل، ومنه تناسخ المواريث من واحد إلى واحد، هذا من حيث اللغة.

وأما في الشرع: فهو انتهاء الحكم وتبديله بحكم آخر، وقد عرَّفه الفقهاء والأصوليون بتعريفات كثيرة نختار منها أخصرها وأجمعها، وهو ما قاله ابن الحاجب حيث قال في تعريفه رحمه الله: "النسخ: هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر". قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٦).

سبب النزول لآية النسخ:

روي أن اليهود قالوا لبعضهم البعض: ألا تعجبون من أمر محمد؟ يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولا، ويرجع عنه غدا، فما هذا القرآن إلا من كلام محمد، يقوله من تلقاء نفسه، ويناقض بعضه بعضا؟ فنزلت الآية الكريمة ردا على سفههم وجهلهم، بقوله - تقدست أسماؤه - : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.(١)

ومعنى ﴿نُنْسِهَا﴾: هو ما قاله ترجمان القرآن ابن عباس: أي نتركها فلا نبدلها، ولاننسخها.

وقيل: هو من النسيان بمعنى الترك، أي: نتركها بدون تبديل.

---

(١) انظر روح المعاني للآلوسي: ٣٥٢/١. وتفسير الكشاف: ١٣١/١.

هل النسخ واقع في الشرائع السماوية؟

النسخ في الشريعة الإسلامية جائز عقلا، حادث سمعا، وهو واقع بإجماع المسلمين، خلافا لليهود، فإنهم أنكروا وقوعه، وقالوا: لم يحدث نسخ في الشرائع؛ لأنه يدل على الجهل، والله منزّه عن ذلك، ووافقهم على هذا القول "أبو مسلم الأصفهاني"، فقال: إن النسخ في كتاب الله تعالى لم يحصل؛ لأن الله تعالى قال عن القرآن العظيم: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢)، فلو جاز النسخ لكان قد أتاه الباطل.

واحتج جمهور العلماء على جواز النسخ ووقوعه بأن الدلائل القطعية دلت على نبوة محمد ﷺ، ونبوته عليه السلام لاتصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله، وهذا دليل عقلى. وأما الوقوع فقد قالوا: إن النسخ قد حصل في الشرائع السابقة، وفي نفس شريعة اليهود، فإنه جاء في التوراة أن آدم عليه السلام أمر بتزويج بناته من بنيه، ثم قد حرم ذلك باتفاق.[1]

أدلة الجمهور:

استدل الجمهور على وقوع النسخ بحجج كثيرة، نوجزها فيما يلي:

الحجة الأولى: أن الله تعالى قد صرح به في الآية الكريمة، وهي قوله سبحانه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة:١٠٦)، قالوا: فهذه الآية صريحة في وقوع النسخ.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ، قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (النحل:١٠١،١٠٢)، قالوا: إن هذه الآية واضحة كل الوضوح في تبديل الآيات والأحكام، والتبديل: يشتمل على رفع حكم وإثبات آخر، والمرفوع إما التلاوة وإما الحكم، وكيفما كان الأمر، فإنه رفع ونسخ، وهو ما دلت عليه الآية الكريمة.

---

[1] انظر "التفسير الكبير" للإمام الفخر الرازي: ٢٢٧/٣.

الحجة الثالثة: نسخ القِبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، وهو ظاهر لايجادل فيه عاقل، فقد كان المسلمون يتوجهون في صلاتهم في بدء الدعوة الإسلامية إلى بيت المقدس، ثم نسخ ذلك الحكم، وأمر النبي ﷺ والمسلمون بالتوجه إلى البيت العتيق في مكة المكرمة بقوله تباركت أسماؤه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة:١٤٤).

وأخبر تبارك وتعالى بما سيقوله المنافقون، وأهل الكتاب من الطعن في القرآن وفي النبي ﷺ بسبب تركهم التوجه إلى بيت المقدس وصلاتهم نحو البيت الحرام، فقال جلت عظمته: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة:١٤٢).

الحجة الرابعة: أن الله تعالى أمر المتوفى عنها زوجها بالاعتداد أربعة أشهر وعشرة أيام، بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ (البقرة:٢٣٤) الآية.

وقد نسخت هذه الآية الحكم السابق وهو أن عدة المتوفى عنها زوجها حول كامل بقوله سبحانه: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ﴾ (البقرة:٢٤٠)، وهذا أمر معلوم عند كل مسلم بأن حكم الاعتداد للوفاة بعامٍ كامل قد نسخ إلى أربعة أشهر وعشرة أيام. .

وهكذا يظهر دليل الجمهور واضحا ساطعا كالشمس في رابعة النهار، بحصول النسخ في الشريعة الإسلامية الغراء، ولاعبرة بقول من أنكر النسخ لمعارضته للنصوص الصحيحة الصريحة.

كلام الإمام القرطبي في جامع الأحكام:

قال العلامة القرطبي في تفسيره: "معرفة هذا الباب أكيدة، وفائدته عظيمة، لايستغني عن معرفته العلماء، ولاينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ لما يترتب عليه النوازل من الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، وقد أنكرت طوائف من المتأخرين، المنتمين للإسلام جوازه، وهم محجوجون

بإجماع السلف على وقوعه في الشريعة...، ثم قال رحمه الله: لا خلاف بين العلماء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية، وإنما كان يلزم البداء - أي ظهور الحكمة بعد خفائها - لمن لم يكن عالما بمآل الأمور، وأما العالم بذلك فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح، كالطبيب المراعي أحوال العليل، فراعى ذلك في خليقته بمشيته وإرادته، لا إله إلا هو، فخطابه يتبدل، وعلمه وإرادته لاتتغير، فإن ذلك محال في جهة الله تعالى".(١)

أقسام النسخ في القرآن الكريم:

ينقسم النسخ إلى ثلاثة أقسام:

الأول: نسخ التلاوة والحكم معا.

الثاني: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

الثالث: نسخ الحكم مع بقاء التلاوة.

أما الأول: وهو: "نسخ التلاوة والحكم"، فلاتجوز قراءته ولاالعمل به؛ لأنه قد نسخ بالكلية، كآية التحريم بعشر رضعات، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما نزل من القرآن "عشر رضعات معلومات يحرِّمن"، فنسخن بخمس رضعات معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ، وهن فيما يقرأ من القرآن. (٢)

قال الفخر: فالجزء الأول منسوخ الحكم والتلاوة، والجزء الثاني وهو الخمس منسوخ التلاوة، باقي الحكم عند الشافعية.

---

(١) انظر "جامع الأحكام" للإمام القرطبي: ٥٧/٢، وللشيخ زكريا يوسف كتاب سماه: "الإيمان وآثاره"، ذكر فيه فصلا طويلا رد فيه على المجددين الذين أنكروا النسخ في القرآن بغير دليل ولابرهان.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في الرضاع برقم: ١٤٥٢، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، ومعناه: أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله، حتى توفي رسول الله وبعض الناس يقرؤه؛ لأنه لم يبلغه النسخ لقرب عهده.

وأما الثاني: وهو نسخ التلاوة وبقاء الحكم، فهو كما قال الزركشي في"البرهان في علوم القرآن": يعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول، كما روي في سورة النور "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة نكالا من الله، والله عزيز حكيم"، قال عمر ﷺ: "ولولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي".(١)

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي بن كعب ﷺ أنه قال: "كانت سورة الأحزاب توازي سورة النور – يعني في الطول –، ثم نسخت آياتٌ منها".

وهذان النوعان "نسخ الحكم والتلاوة" و"نسخ التلاوة مع بقاء الحكم" قليل جدا في القرآن الكريم، ونادر أن نجد فيه مثل هذا النوع؛ لأن الله سبحانه أنزل كتابه المجيد؛ ليتعبد الناس بتلاوته وبتطبيق أحكامه.

وأما الثالث: وهو "نسخ الحكم مع بقاء التلاوة"، فهو كثير في القرآن الكريم، وهو كما قال الزركشي: في ثلاث وستين سورة، ومن أمثلة هذا النوع آية الوصية للوالدين نسخت بآية المواريث، وآية العدة بحول كامل نسخت بآية العدة بأربعة أشهر وعشرة أيام، وآية الفدية في الصوم للقادر نسخت بآية وجوب الصوم، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، والكف عن قتال المشركين، كل ذلك نسخ بآيات في القرآن الكريم واضحات الدلالة والحكم.

وقد ألّف الشيخ هبة الله بن سلامة رسالةً في "الناسخ والمنسوخ" جاء فيها ما نصه: "اعلم أن أول النسخ في الشريعة: أمر الصلاة، ثم أمر القبلة، ثم الصيام ليوم عاشوراء، ثم الإعراض عن المشركين، ثم الأمر بجهادهم، ثم أمره بقتل المشركين، ثم أمره بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، ثم ما كان أهل العقود عليه من المواريث، ثم هدم منار الجاهلية؛ لئلا يخالطوا المسلمين في حجهم..." إلى آخر ذلك.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه.

الحكمة من نسخ الحكم مع بقاء التلاوة؟

أما الحكمة من ذلك، فقد بيَّنها العلامة الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، فقال: "وهنا سؤال، وهو أن يسأل: ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: أن القرآن كما يتلى؛ ليعرف الحكم منه، والعمل به، فإنه كذلك يتلى؛ لكونه كلام الله عزوجل، فيثاب على تلاوته، فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

وثانيها: أن النسخ غالبا يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيرا بالنعمة، ورفع المشقة، حتى يتذكر المسلم نعمة الله عليه بتيسير الدين".(١)

هل ينسخ القرآن بالسنة النبوية المطهرة؟

اتفق العلماء على أن القرآن ينسخ بالقرآن، وأن السنة النبوية تنسخ بالسنة، والخبر المتواتر ينسخ بمثله، ولكنهم اختلفوا في مسألة، وهي هل ينسخ القرآن بالسنة؟ والخبر المتواتر بغير المتواتر؟

فذهب الشافعي رحمه الله إلى أن الناسخ للقرآن، لا بدَّ أن يكون قرآنا مثله، فلايجوز عنده نسخ القرآن بالسنة النبوية؛ لأنها ليست في درجة القرآن.

وذهب الجمهور إلى جواز نسخ القرآن بالقرآن، وبالسنة المطهرة أيضا؛ لأن الكل حكم الله تعالى ومن عنده، والكل بوحي من الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣،٤)، وحجة الجمهور ما ورد من نسخ آية الوصية بحديث: "إن الله أعطى كل ذي حقّ حقّه، ألا لا وصية لوارث".

ونسخ جلد الزاني المحصن في الآية الكريمة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور:٢) حيث نسخ الجلد بالرجم، فقد رجَمَ رسول الله ﷺ ماعزا والغامدية، و لم يجلد واحدا منهما، فدل على أن الحكم وهو الجلد نسخ بالسنة المطهرة، وهذا القول هو الأشهر والأظهر،(٢) والله أعلم.

---

(١) انظر كتاب "البرهان في علوم القرآن" للإمام الزركشي.

(٢) انظر أدلة الفريقين مفصلة في كتابنا "روائع البيان" في تفسير آيات الأحكام من القرآن ١/١٠٦.

هل يقع النسخ في الأخبار؟

جمهور العلماء على أن النسخ مختص بالأحكام، بالأوامر والنواهي، والخبر لا يدخله النسخ؛ لاستحالة الكذب في خبر الله تبارك وتعالى.

وقيل: إن الخبر إذا تضمّن حكما شرعيا جاز نسخه، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ (النحل:٦٧)، فهذا خبر عن الخمر الذي يخرج من التمر والعنب، وقد نسخه الله عزّوجل بآية تحريم الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠).

يقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره "جامع البيان" ما نصه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة:١٠٦)، أي: ما ننقل من حكم آية إلى غيره، فنبدله ونغيره، وذلك أن يحوّل الحلال حراما، والحرام حلالا، والمباح محظورا، والمحظور مباحا... ثم قال: ولايكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة، فأما الأخبار فلايكون فلايكون فيها ناسخ ولا منسوخ".(١)

هذه لمحة خاطفة عن النسخ في الشريعة الإسلامية، وفي القرآن والسنة النبوية، ينبغي أن يلم بها طالب العلم، وأن يعرف حكمة الله عزوجل في تشريع الأحكام، وإنزال الآيات على هذا الوجه الدقيق، الذي حقق مصالح العباد، وساير تطور الزمن بواسطة الناسخ والمنسوخ، أوجزناه في هذه العجالة ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب:٤).

* * * *

---

(١) انظر تفسير "جامع البيان" للطبري: ١/٤٠٧

الفصل السادس:

جمع القرآن الكريم

جمع القرآن في عهد النبوة:

جمع القرآن الكريم في عهدين: عهد النبوة، وعهد الخلفاء الراشدين، وقد كان لكل جمع خصائصه ومزاياه. وكلمة "جمع" تطلق أحيانا ويراد منها الحفظ والاستظهار في صدور الرجال، وتطلق تارة ويراد منها الكتابة والتسجيل في الصحائف والأوراق.

وقد كان لجمع القرآن في عصر النبوة الأمران معا:

أولا: الجمع في الصدور عن طريق الحفظ والاستظهار.

ثانيا: الجمع في السطور عن طريق الكتابة والنقش.

وسنتحدث عن كلا الجمعين بشيء من التفصيل؛ ليتبين لنا العناية الفائقة بالقرآن العظيم وكتابته وتدوينه، مما لم يسبق لكتاب سماوي أن نال من الرعاية والعناية والاهتمام كما ناله القرآن الكريم، كتاب الله المجيد، ومعجزة محمد الخالدة.

جمع القرآن في الصدور:

نزل القرآن الكريم على النبي الأمي، فكانت همته منصرفة إلى حفظه واستظهاره؛ ليحفظه كما نزل عليه، ثم يقرأه على الناس على مكث؛ ليحفظوه ويستظهروه ضرورة أنه نبي أمي، بعثه الله إلى العرب الأميين[1]: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:٢) الآية.

ومن شأن الأمي – في العادة – أن يعتمد على حافظته وذاكرته؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولقد كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن، تتمتع بخصائص العروبة الكاملة التي فيها قوة الذاكرة،

---

[1] انظر "مناهل العرفان" للزرقاني.

وسرعة الحفظ، وسيلان الأذهان. وكان العربي يحفظ مئات الآلاف من الأشعار، ويعرف الأحساب والأنساب، فيستظهرها عن ظهر قلب، ويعرف التواريخ، وقلَّ أن تجد منهم من لا يعد لك الحسب والنسب، أو من لا يحفظ "المعلقات العشر" على كثرة أشعارها، وصعوبة حفظها.ثم جاءهم القرآن الكريم، فبهرهم بقوة بيانه، وروعة أحكامه، وجلال سلطانه، فأخذ عليهم مشاعرهم، واستحوذ على عقولهم وأفكارهم، حتى صرف هممهم إلى الكتاب المجيد، فيمموا وجوههم نحوه، يحفظونه ويستظهرون آياته وسوره، وتركوا الشعر؛ لأنهم وجدوا في القرآن روح الحياة.

أما النبي ﷺ فقد بلغ من حرصه الشديد على حفظ القرآن: أن يحيي الليل بتلاوة آيات القرآن في الصلاة، عبادةً وتلاوةً وتدبرا لمعانيه، حتى تفطَّرتْ قدماه الشريفتان من كثرة القيام امتثالا لأمر الله العلي الكبير: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل:١-٤) لذلك فلا عجب أن يكون ﷺ سيّدَ الحفاظ، وأن يجمع القرآن في قلبه الشريف، ويكون مرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن العظيم.

وأما الصحابة رضي الله عنهم فقد كانوا يتسابقون إلى تلاوة القرآن ومدارسته، ويبذلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه، ويعلِّمونه أزواجهم وأولادهم في البيوت، حتى لقد كان الذي يمرُّ ببيوت الصحابة في غسق الدّجى، يسمع فيها دويّا كدوي النحل بالقرآن، حتى كان صلوات الله عليه يمرُّ على بعض دور الأنصار، فيقف على بعضهم يستمع القرآن في ظلام الليل.

أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال له: "لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك، لقد أُعطيتَ مزمارا من مزامير آل داود". وزاد في رواية لمسلم: فقلت: "لو علمتُ والله يا رسول الله! أنك تستمع لقراءتي لحبَّرتُه لك تحبيرا". (١)

وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون

---

(١) حَبَّرَه أي زيَّنه (المعجم الوسيط:١٥١).

بالليل، وأعرف منازلَهم من أصواهم بالليل بالقرآن، وإن كنت لم أر منازلهم بالنهار"(رواه الشيخان).

وقد اشتهر كثير من الصحابة بحفظ القرآن الكريم، وكان الرسول ﷺ يُذكي فيهم روح العناية بحفظ القرآن، ويبعث إلى المدن والقرى من يعلّمهم ويقرئهم، كما بعث قبل الهجرة مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة، يعلماهم الإسلام، ويقرئاهم القرآن، وكما بعث معاذ بن جبل إلى مكة للتحفيظ والتعليم بعد هجرته ﷺ.

قال عبادة بن الصامت: "كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل من يعلمه القرآن، وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجّة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواهم؛ لئلا يتغالطوا".

ومن هنا كان حفاظ القرآن في حياة الرسول ﷺ لا يحصون، ويكفي أن نعلم أن عدد الذين استشهدوا في "معركة اليمامة" يزيد عددهم على سبعين من كبار الحفاظ، كما قُتل مثل هذا العدد في عهد الرسول ببئر معونة. قال القرطبي: قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل في عهد رسول الله ببئر معونة مثل هذا العدد. أي أن عدد الذين استشهدوا من الحفظة ١٤٠.

ولقد كانت أشرف خصوصية لهذه الأمة المحمدية أن يكون هذا الكتاب المقدس محفوظا في صدورها، وأن تعتمد في نقله على حفظ القلوب والصدور، لا على كتابته في المصاحف والسطور فحسب، بخلاف أهل الكتاب الذين لا نجد منهم من يحفظ التوراة أو الإنجيل، وإنما يعتمدون في حفظهما على الكتب المسطرة، ولا يقرؤونه إلا نظرا، لا عن ظهر قلب، ولهذا دخل إليهما التحريف والتبديل.

أما القرآن الكريم فقد حفظه الله بعنايته الإلهية، فيسّره للحفظ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧)، وصانه من التحريف والتبديل بطريق حفظه في السطور، وحفظه في الصدور مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وهذا بلا شك عناية من الله خاصة بهذا القرآن المجيد، وشرف عظيم اختص الله به هذه الأمة المحمدية حيث

جعل أناجيلها في صدورها، وأنزل عليها كتابا لا يغسله الماء، ولله در القائل:

الله أكبـــر إن دينَ محمد وكتابه أقوى وأقومُ قِيلاً
لا تُذكر الكتب السوالفُ عنده طلعَ الصَّباحُ فأَطفأ القِنديلا

جمع القرآن في السطور:

وأما المزية الثانية لهذا القرآن العظيم، فهو جمعه وكتابته في الصحف، فقد كان لرسول الله ﷺ كُتّاب للوحي، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته، مبالغة في تسجيله وتقييده، وزيادة في التوثق والضبط، والاحتياط الشديد في كتاب الله عز وجل حتى تظاهر الكتابة الحفظ، ويعاضد التسجيل المسطور ما أودعه الله في الصدور.

وكان هؤلاء الكتّاب من خيرة الصحابة، اختارهم رسول الله ﷺ من المجيدين المتقنين؛ ليتولوا هذه المهمة العظيمة، وقد اشتهر منهم "زيد بن ثابت، وأبيٌّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، ومعاوية ابن أبي سفيان، والخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة الأجلاء ﵃".

روى الشيخان عن أنس ﵁ أنه قال: "جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد ﵃، قيل لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي".

وهؤلاء هم مشاهير كُتّاب الوحي، وإلا فهناك من الصحابة الجمع الكبير الذين كانوا يكتبون القرآن، وكثير منهم كان له مصحف خاص كتب فيه ما سمعه أو حفظه من رسول الله ﷺ، كمصحف ابن مسعود، ومصحف علي، ومصحف عائشة، وغيرهم.

طريقة الكتابة:

وأما طريقة الكتابة: فقد كانوا يكتبون القرآ ن على العسب واللخاف والرقاع،(١) وعظام

---

(١) العسب: جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشفون الخوص، ويكتبون في الطرف العريض. اللخاف: جمع لخفة، بفتح اللام وسكون الخاء، وهي الحجارة الرقيقة. الرقاع: جمع رقعة، وهي قد تكون من جلد أو ورق، أو غيرها من أدوات الكتابة.

الأكتاف وغيرها. ذلك؛ لأن صنع الورق لم يكن مشتهرا عند العرب، وقد كان عند بعض الأمم الآخرين كالفرس والروم، ولكنه كذلك كان نادرا، فلم يكن منتشرا، فكان العرب يكتبون على ما يقع تحت أيديهم مما يصلح للكتابة.

روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: "كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع"، أي نجمعه، وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ وبأمر من الله تبارك وتعالى، ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن "توقيفي"، يعني: أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف إنما هو بأمر ووحي من الله، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل بالآية أو الآيات على النبي، فيقول له: يا محمد! إن الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا، من سورة كذا، وكذلك كان الرسول يقول للصحابة: ضعوها في موضع كذا.

جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه:

انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار الله بعد أن أدى الرسالة، وبلغ الأمانة، ونصح الأمة، وهدى الناس إلى دين الله القويم، وتولى الخلافة بعده "أبو بكر الصديق" رضي الله عنه وأرضاه، وقد واجهته – في خلافته – خطوب جسيمة، وشدائد عظيمة، ومشاكل صعاب، منها حروب الردّة التي وقعت بين المسلمين وبين أتباع مسيلمة الكذاب، وكانت معركة "اليمامة" معركة حامية الوطيس، وقد استشهد فيها كثير من قراء الصحابة ومن حفظة القرآن، يزيد عددهم علىعلى سبعين من كبار الحفاظ. وقد هال ذلك المسلمين، وعزّ الأمر على عمر رضي الله عنه، فدخل على أبي بكر، فوجده في حزن وألم، فأشار عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ، فتردد أبوبكر أول الأمر، ثم رأى أن يأخذ بإشارة عمر بعد أن تبين له وجه المصلحة، وشرح الله صدره لذلك العمل الجليل، فأرسل إلى زيد بن ثابت، وعرض عليه الأمر، وطلب منه أن يقوم بجمع القرآن في مصحف واحد، ولكن زيدا تردد في بادئ الأمر، ثم شرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر،

وقد روى البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع ننقلها بنصها لأهميتها:

رواية البخاري:

عن زيد بن ثابت ﵁ أنه قال: "أرسل إليّ أبوبكر ﵁ مقتل أهل اليمامة – أي عقب استشهاد الحفاظ السبعين في معركة اليمامة - فإذا عمر جالس عنده، فقال أبوبكر: إن عمر جاءني، فقال: إن القتل قد استحرَّ – أي كثر واشتدَّ – يوم اليمامة بقرَّاء القرآن، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء في كل المواطن، فيذهب من القرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت: وكيف أفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر ﵁: هو والله خير، فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله تعالى صدري للذي شرح الله له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأى.

قال زيد: فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، لا نتّهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبَّع القرآن واجمعه، قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به، فقلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من اللخاف، والعسب، وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع"أبي خزيمة الأنصاري" لم أجدها عند أحد غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة:١٢٨،١٢٩) أي إلى آخر السورة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى، ثم عند عمر حتى توفاه الله تعالى، ثم عند حفصة بنت عمر ﵂" (رواه البخاري). فهذه الرواية دلت على سبب جمع القرآن.

تساؤلات حول جمع القرآن؟

وهنا أسئلة ينبغي الإجابة عليها بشيء من التفصيل، ونحن نوجزها فيما يلي:

أولا: لماذا تردد أبو بكر عن جمع القرآن مع أنه شيء حسن، وأمر يوجبه الإسلام؟

والجواب عن ذلك: أن أبا بكر ﷺ خشي أن يتساهل الناس في استظهار القرآن وحفظه غيبا، ويعتمدوا على وجوده في المصاحف، فتضعف نفوسهم عن الحفظ، وتصبح رغبتهم ضعيفة في حفظه واستظهاره اعتمادا على أنه مسطَّر وموجود في مصاحف مكتوبة يمكنهم قراءة القرآن بها. أما قبل أن توجد المصاحف، فقد كان الجميع يسعون جهدهم لحفظ القرآن، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى: فإن أبابكر الصديق كان رجلا وقافا عند حدود الشرع، مقتفيا لآثار الرسول ﷺ، فقد خشي أن يكون بعمله هذا مبتدعا شيئا لا يحبه رسول الله، ولهذا قال لعمر: "كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله؟" ولعله كان يخاف أن يسوقه الإنساء والاختراع إلى الوقوع في المخالفة والابتداع، ولكنه لما رأى الأمر خطيرا، والفكرة — في حد ذاتها — وسيلة من أعظم الوسائل لحفظ الكتاب الشريف، والمحافظة عليه من الضياع والتحريف، وأيقن أنها ليست من الأمور الخارجة، ولا من البدع المستحدثة، عزم على جمع القرآن، وظل يقنع زيدا بتلك حتى شرح الله صدره، فقام بتنفيذ ذلك الأمر الخطير، والله أعلم.

ثانيا: لماذا اختار أبوبكر زيد بن ثابت من بين الصحابة الكرام لهذا العمل الجليل؟

والجواب عن ذلك: أن زيدا ﷺ قد اجتمع فيه من المواهب العظيمة التي تؤهله لجمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال؛ إذ كان من حفاظ القرآن، ومن كتاب الوحي لرسول الله، وشهد "العرضة الأخيرة" للقرآن في ختام حياته ﷺ، وكان فوق ذلك معروفا بشدة ورعه، وعظم أمانته، وكمال خلقه، واستقامة دينه، وكان معروفا بالنبوغ والذكاء، وهذا ما أشار إليه كلام أبي بكر في رواية البخاري حين استدعاه، وقال له: "إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله".

فلهذه الخصائل والمزايا الحميدة، اختاره أبوبكر الصديق لجمع القرآن، ومما يدل على شدة ورع زيد ابن ثابت أنه قال: "فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به". الحديث

ثالثا: ما هو المقصود من قول زيد ﵁ في رواية البخاري: "حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة ﵁ لم أجدها عند غيره؟"

والجواب عن ذلك: أن زيدا ﵁ لم يجد هذه الآيات مكتوبة عند أحد من الصحابة، إلا عند أبي خزيمة الأنصاري، وليس المراد أنها لم تكن محفوظة؛ إذ أن زيدا نفسه كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها، ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة، كما سنبينه إن شاء الله زيادة في التوثق، ومبالغة في الاحتياط، وعلى ذلك النهج الرشيد تمَّ جمع القرآن.

الخطة الرشيدة في جمع القرآن:

وقد انتهج زيد بن ثابت ﵁ في جمع القرآن خُطَّة رشيدة في غاية الدقة والإحكام، فيها ضمان لحياطة هذا الكتاب المجيد بما يليق به من تثبت بالغ، وحذر دقيق، فلم يكتف بما حفظ في قلبه ولا بما كتب بيده، ولا بما سمع بأذنه، بل جعل يتتبع ويستقصي آخذا نفسه أن يعتمد في جمع القرآن على مصدرين اثنين:

أ- ما كان محفوظا في صدور الرجال.

ب- ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

فلا بد أن يتضافر الأمران "الحفظ، والكتابة"، وبلغ من شدة حرصه واحتياطه أنه كان لا يقبل شيئا من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله ﷺ يدل عليه الحديث الذي رواه أبو داود في سننه قال: "قدم عمر، فقال: من كان تلقّى من رسول الله ﷺ شيئا من القرآن، فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان".

ويدل عليه كذلك ما رواه أبو داود أيضا أن أبا بكر ﵁ قال لعمر ولزيد: "اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه".

قال ابن حجر: المراد بالشاهدين: الحفظ، والكتابة. وقال السخاوي: المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، وذلك غاية في التثبت والدقة والإحكام من الصِّديق رضي الله عنه، رَسَمه منهجا لزيد بن ثابت رضي الله عنه.

مزايا مصحف أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

امتازت الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق في "مصحف واحد" بعدة مزايا، أهمها:

أولا: التحرّي الدقيق التام، والتثبت الكامل.

ثانيا: لم يسجل في المصحف إلا ما ثبت عدم نسخ تلاوته.

ثالثا: إجماع الأمة عليه، وتواتر ما سجّل فيه من الآيات القرآنية.

رابعا: شمول المصحف للقراءات يلهجون بالثناء العاطر على أبي بكر الصديق حيث حفظ القرآن الكريم من الضياع، وذلك بتوفيق من الله عزوجل، ومدد من عنده.

وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "أعظم الناس في المصاحف أجراً أبوبكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله".

ولقد أصبح جمع القرآن منقبة خالدة، لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل والثناء العاطر لأبي بكر في التوجيه والإشراف، ولزيد بن ثابت في التنفيذ والعمل رضي الله عنهما.

وجمع القرآن في مصحف واحد في عهد أبي بكر لا يعنى أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكن لديهم مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل، فإن ذلك لاينافي أن يكون لبعض الصحابة مصحف خاص، ولكن هذه المصاحف لم تظفر بما ظفر به مصحف أبي بكر من دقة البحث والتحري، والاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، ومن بلوغه حدّ التواتر، ومن إجماع الأمة عليه، ومن شموله للأحرف السبعة "القراءات السبع" كما تقدم.

فهذا علي رضي الله عنه كان له مصحف خاص كتبه في بدء خلافة أبي بكر، وعزم ألا يخرج إلا للصلاة

حتى ينتهي من كتابته. روى السيوطي عن محمد بن سيرين عن عكرمة أنه قال: لما كان بدء خلافة أبي بكر، قعد علي بن أبي طالب في بيته، فقيل لأبي بكر: قد كره بيعتك، فأرسل إليه فقال: أكرهت بيعتي؟ فقال: رأيت كتاب الله يزاد فيه، فحدثت نفسي ألا ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه. قال له أبو بكر: فإنك نعم ما رأيت،(١) فقد كان له مصحف، ولكنه كما يروى عن ابن سيرين كان فيه الناسخ والمنسوخ، فلم يكن مثل مصحف أبي بكر.

لماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد:

ونتساءل هنا:

لماذا لم يجمع القرآن الكريم في مصحف واحد في زمن النبي ﷺ؟

والجواب عن ذلك:

أولا: إن القرآن لم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل مفرقا، ولا يمكن جمعه قبل أن يتكامل النزول.

ثانيا: إن بعض الآيات كانت تُنسخ، وإذا كان القرآن عُرضة للنسخ، فكيف يمكن أن تجمع في مصحف واحد؟

ثالثا: إن ترتيب الآيات والسور لم يكن على حسب النزول، فقد تنزل بعض الآيات في أواخر الوحي، بينما يكون ترتيبها في أوائل السور الكريمة، وهذا يقتضي تغيير المكتوب.

رابعا: كانت المدة بين نزول آخر ما نزل، وبين وفاته ﷺ قصيرة جدا، وقد تقدم في الفصل الأول أن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة:٢٨١) وقد انتقل رسول الله إلى جوار ربه بعد نزولها بتسع ليال، فالمدة إذا قصيرة، ولا يمكن جمعه قبل تكامل النزول.

خامسا: لم يوجد من دواعي الجمع في مصحف واحد، مثل ما وجد في عهد أبي بكر رضي الله عنه، فقد كان المسلمون بخير، والقراء كثيرون، والفتنة مأمونة، بخلاف ما حصل في عهد أبي بكر رضي الله عنه

---

(١) انظر كتاب "الإتقان" للسيوطي.

من مقتل الحفاظ، حتى خاف على ضياع القرآن.

والخلاصة: إن القرآن لو جمع في مصحف واحد، والحال على ما ذكرنا لكان القرآن عرضة للتغيير والتبديل كلما وقع نسخ، أو حدث سبب مع أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة، والظروف لا تساعد على ترك المصحف القديم، والاعتماد على المصحف الجديد؛ لأنه لا يمكن أن يكون في كل شهر أو يوم مصحف يجمع كل ما نزل من القرآن، ولكن لمّا استقر الأمر بختام التنزيل، ووفاة الرسول، وأُمِن النسخ، وعُرف الترتيب أمكن جمعه في مصحف واحد، وهذا ما فعله الخليفة الراشد أبوبكر الصديق ﵁، وجزاه عن القرآن والمسلمين خير الجزاء.

جمع القرآن في عهد عثمان ﵁:

أما جمع القرآن في عهد عثمان، فقد كان له سبب آخر غير السبب الذي حدث في عهد أبي بكر، فقد اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان، وتفرق المسلمون في الأقطار والأمصار، واشتهر في كل بلد من البلاد الإسلامية قراءة الصحابي الذي علّمهم القرآن، فأهل الشام كانوا يقرؤون بقراءة "أبي بن كعب"﵁، وأهل الكوفة كانوا يقرؤون بقراءة"عبد الله بن مسعود" ﵁، وغيرهم كان يقرأ بقراءة "أبي موسى الأشعري" ﵁.

فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء، ووجوه القراءات، حتى كان الأمر يصل إلى النزاع والشقاق بينهم، وكاد بعضهم يكفر بعضا بسبب اختلاف القراءة.

روي عن أبي قلابة أنه قال: "لما كانت خلافة عثمان، جعل المعلّم - المقرئ - يعلم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع إلى المعلّمين، حتى كفر بعضهم بعضا، فبلغ ذلك عثمان، فخطب فقال: "أنتم عندي تختلفون، فمن نأى - أي بعد - عني من الأمصار فهم أشد اختلافا".

لهذه الأسباب والأحداث رأى عثمان بثاقب رأيه، وصادق نظره، أن يتدارك الخرق قبل أن

يتسع على الراقع، وأن يستأصل الداء قبل أن يصعب الدواء، فجمع أعلام الصحابة، ورجال الرأي والبصر فيهم، واستشارهم في علاج تلك الفتنة، وعلاج ذلك الاختلاف، فأجمعوا أمرهم على أن يستنسخ أمير المؤمنين مصاحف عديدة، ويبعث إلى كل بلد أو مصر بمصحف منها، وأن يأمر الناس بإحراق كل ما عداها، حتى لا يبقى ثمة طريق للنزاع والاختلاف في وجوه القراءة، فشرع - ﷺ - بتنفيذ هذا القرار الحكيم، فعهد إلى أربعة من خيرة الصحابة، وثقات الحفاظ وهم: "زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن هشام"، وقد كانوا جميعا من قريش من المهاجرين إلا "زيد بن ثابت"، فقد كان من الأنصار، وكان هذا العمل الجليل سنة "٣٤" هجرية، وقال لهؤلاء: إذا اختلفتم في شيء من وجوه القراءة، فاكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم.

وطلب عثمان من حفصة بنت عمر أن تعطيه المصحف الذي كان عندها، والذي جمعه أبو بكر؛ لينسخ منه عدة نسخ ثم يعيده إليها، ففعلت.

سبب جمع عثمان للقرآن الكريم:

روى البخاري عن أنس بن مالك أنه قال:

"إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا المصحف

في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق" (١).

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما:

ونستطيع مما سبق أن نعرف الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، وهو أن الجمع في عهد أبي بكر إنما كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في مصحف واحد مرتب الآيات، جمعه في اللخاف والعسب والرقاع، وكان سبب الجمع موت الحفاظ، وأما جمع عثمان فقد كان عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر؛ لترسل إلى الآفاق الإسلامية، وكان سبب الجمع إنما هو اختلاف القراء في قراءة القرآن، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * * *

---

(١) انظر صحيح البخاري في جمع القرآن.

الفصل السابع:

التفسير والمفسرون

أنزل الله كتابه العظيم؛ ليكون دستورا للمسلمين، ومنهاجا يسيرون عليه في حياتهم، فيستضيئون بضيائه، ويهتدون بهديه، ويقتبسون من تعاليمه الرشيدة، ونظمه الحكيمة ما يجعلهم في أوج السعادة والعزة، ويرفع بهم إلى ذُرى المجد والكمال، ويؤهلهم إلى قيادة ركب الإنسانية، ويجعلهم السادة والقادة في هذه الحياة، يسيرون بالأمم إلى حياة العزة والكرامة، ويوصلونهم إلى شاطئ الأمن والاستقرار والسلام.

ولاريب أن البشرية تتخبط اليوم في ظلمات الشقاوة والجاهلية، وتغرق في بحار التحلّل وعبادة المال، وليس لها من منقذ إلا الإسلام عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة، التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري على ما أحاط به علم الخالق الحكيم.

ومن البدهي أن العمل بهذه التعاليم لايكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره، والوقوف على ما حوى من نصح وإرشاد، وهذا لايتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان؛ لما تدل عليه آيات القرآن، وهو ما نسبه بـــ"علم التفسير" خصوصا في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فيها ملكة البيان العربي، وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم.

فالتفسير هو المناخ لهذه الكنوز والذخائر التي احتواها هذا الكتاب المجيد، وبدونه لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر، واللآلىء والجواهر، مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن، وقرؤوا آياته في كل صباح ومساء.

وإنه لمن المؤسف أن يكتفي المسلمون من القـــرآن بألفاظ يرددونها، وأنغام يلحّنونها في المآتم والمقابر، وعند الاحتفالات الرسمية، ثم لا يكون للقرآن نصيب منهم إلا الطرب بالسماع أو التبرك بالتلاوة، وهذا ما عناه ا على لرسول ﷺ بقوله: "يتخذون القرآن مزامير".

وقد نسي المسلمون أو تناسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبره وتفهمه، وفي الاهتداء بهديه، والاستفادة من تعاليمه وتوجيهاته، ثم الوقوف عند أوامره ومراضيه، والبعد عن مساخطه ونواهيه، والله تعالى يقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩)، ويقول سبحانه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد:٢٤)، ويقول جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧).

فما أشبه المسلمين اليوم بالرجل العطشان يموت من الظمأ والماء بين يديه! أو بالحيوان يهلك من الجوع والعطش والزاد والماء على ظهره.

وما أجمل قول القائل:

كالعِيسِ في البيداء يقتلُها الظَّما والماءُ فوق ظُهُورها محمولُ

ولقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: "لقد تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدي أبدا، كتاب الله ، وسنتي. (١)

لماذا نفسر القرآن:

أسئلة تخطر ببال كل إنسان، وتجول في كل فكر: لماذا نفسر القرآن؟ ألِنُجيدَ قراءته ونتقنَ تلاوته؟ أم لنُزيلَ السِتار عن غامض معانيه؟ أم لنجلوَ أسراره، ونبرزَ محاسنه؟

لا... لا... ليس لهذا، ولا لذاك فقط! بل لنتحرر من عبادة العباد، وتبعية البشر إلى عبادة رب العباد جل وعلا، ونربط الفرد والجماعة بخالق العوالم، ومدبِّر الكون، ربِّ السموات العُلى، ورب العرش العظيم. فالقرآن الكريم دستور الأمة، وهداية الخالق، وشريعة الله لأهل الأرض، وهو النور الرباني، والهدي السماوي، والتشريع العام الخالد، الذي تكفل بكل ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم.

---

(١) الحديث: رواه أصحاب السنن.

ولا عجب! فهو كتاب كامل، ونظام شامل، يشمل جوانب الحياة بأجمعها، في العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وفي السياسة والحكم، وفي السلم والحرب، وفي الشؤون الاقتصادية والعلاقات الدولية.

فهو كتاب جامع أنزله الله تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وهو في ذلك كله حكيم كل الحكمة، لا يعتريه خلل ولا اختلاف، فلاعجب إن كانت السعادة لاتنال إلا بهديه، والتزام ما جاء به، فهو شفاء لما في الصدور، وعلاج لما حل أو يحل بالمجتمع من شرور: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ (الإسراء:٨٢).

الفرق بين التفسير والتأويل:

التفسير في اللغة: هو الإيضاح والتبيين، قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ (الفرقان:٣٣) .

فقولنا: فسَّر: بمعنى بيَّن ووضَّح، وكلام مفسَّر: أي واضح ظاهر.

وأما التفسير في الاصطلاح: فهو علم يعرف به فهم كتاب الله المنزّل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه،⁽¹⁾ وعرَّفه غيره بأنه "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية".⁽²⁾

معنى التأويل:

وأما التأويل، فهو لغةً من الأَوْل بمعنى الرجوع، فكأن المفسّر أرجع الآية إلى ما يحتمله من المعاني. ويرى بعض العلماء أن التأويل مرادف للتفسير حتى قال صاحب القاموس: أوَّل الكلام تأويلا وتأوَّله بمعنى دبّره وقدّره وفسّره، ومنه قوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ (آل عمران:٧).

---

[1] التعريف للزركشي من "كتاب البرهان" ص:١٣.

[2] مناهل العرفان للزرقاني.

أما في الاصطلاح: فهو عند المتقدمين بمعنى التفسير، فيقال: تفسير القرآن، ويقال: تأويل القرآن، بمعنى واحد.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره: "القول في تأويل قوله تعالى كذا...، واختلف أهلُ التأويل في هذه الآية"، يريد بذلك أهل التفسير.

وقال مجاهد: إن العلماء يعلمون تأويله — يعني القرآن – ويريد تفسير معناه.

وذهب فريق من العلماء إلى أن بين التفسير والتأويل فرقا جليا، وقد اشتهر هذا عند المتأخرين.

التفسير: هو المعنى الظاهر من الآية الكريمة.

وأما التأويل: فهو ترجيح بعض المعاني المحتملة من الآية الكريمة التي تحتمل عدة معان.

وقد أفاض العلامة السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" في هذا البحث، ونقل نقولا كثيرة عن العلماء، نكتفي بأجمعها، وأقربها إلى الصواب، وهو أن نقول "بأن التفسير هو كشف معاني القرآن الظاهرة، والتأويل ما استنبطه العلماء العارفون من المعاني الخفيَّة والأسرار الربانية اللطيفة التي تحتملها الآية الكريمة".

هذا الذي اخترناه هو الذي ذهب إليه الآلوسي ﵀ حيث قال: قد تعورف عن المؤلفين من غير نكير أن للتأويل معان قدسية، ومعارف ربانية، تنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتفسير غير ذلك.

والخلاصة: أن التفسير هو المعاني الظاهرة من القرآن الكريم التي هي واضحة الدلالة على المعنى المراد لله عزوجل.

والتأويل: هو المعاني الخفية التي تستنبط من الآيات الكريمة، والتي تحتاج إلى تأمل وتفكر واستنباط، والتي تحتمل عدة معان، فيرجِّح المفسرُ منها ماكان أقوى عن طريق النظر والاستدلال، وليس هذا الترجيح بقطعي، بل هو ترجيح للأظهر والأقوى؛ إذ الحكم بأنه المراد القطعي تحكّم في كتاب الله، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران:٧)، والله أعلم.

أقسام التفسير:

يقسم التفسير حسب الاصطلاح العلمي الدقيق إلى ثلاثة أقسام:

أولا: التفسير بالرواية، وهذا الذي يسمّى التفسير بالنقل، أو التفسير بالمأثور.

ثانيا: التفسير بالدراية، وهذا الذي يسمّى التفسير بالرأي.

ثالثا: التفسير بالإشارة، وهو الذي يسميه العلماء: التفسير الإشاري.

وسنتحدث عن كل قسمٍ من هذه الأقسام بالتفصيل — إن شاء الله تعالى - ونوضِّح السليم من السقيم.

* * * *

القسم الأول

التفسير بالرواية "المأثور":

هو ما جاء في القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة بيانا لمراد الله تعالى، فالتفسير المأثور إما أن يكون تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنة النبوية، أو تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة.

١- مثال ما جاء تفسيره في القرآن الكريم

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة:١)، فقد جاء تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ في آية كريمة أخرى، هي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (المائدة:٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (الطارق:١)، جاء تفسير الطارق في نفس السورة: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (الطارق:٣)، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة:٣٧)، جاء تفسير الكلمات التي تلقّاها آدم في موطن آخر من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣).

ومن الأمثلة أيضا على تفسير القرآن بالقرآن، قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ (الدخان:٣)، جاء تفسير الليلة المباركة بأنها "ليلة القدر" في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١) إلى آخر ما هنالك.

٢- ومثال ما جاء في السنة المطهرة تفسيرا وشرحا للقرآن:

إنه ﷺ فسر الظلم بالشرك في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:٨٢)، وأيّد تفسيره هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣).

وفسر ﷺ الحساب اليسير بـــ"العرض"، أي: عرض الأعمال على المؤمن وتذكيره بها فقط،

وذلك حين قال: "من نوقش الحساب عذّب"، فقالت السيدة عائشة له: يا رسول الله! أوليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ (الانشقاق:٧-٩).

فقال ﷺ: "ذلك العرض - بيانا للحساب اليسير - وأما من نوقش الحساب عذب"، وكتفسيره ﷺ الصلاة الوسطى في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ (البقرة:٢٣٨) بأنها صلاة العصر، وتفسير ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة:٧) في سورة الفاتحة باليهود، والنصارى.

ومن الأمثلة أيضا على تفسير النبي ﷺ للآيات الكريمة، تفسيره الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس:٢٦). وقد فسرها بأنها النظر إلى وجه الله الكريم، وكتفسيره ﷺ القوة، بالرمي في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:٦٠)، فقد قال ﷺ: "ألا! إن القوة الرمي، ألا! إن القوة الرمي".

وكتفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (الزلزلة:٤)، قال ﷺ: "أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أن تشهد على كل عبد أو أمةٍ بما عمل على ظهرها، تقول: عملت يوم كذا، كذا وكذا".

وأمثال هذه التفاسير كثيرة، وقد جمع السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" طائفة كبيرة من التفاسير النبوية، فليراجع إليه.

وكلا هذين القسمين "تفسير القرآن بالقرآن"، وتفسير "القرآن بالسنة" لا شك في أنه أعلى أنواع التفسير، ولاشك في قبوله، أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره، وكتاب الله تعالى أصدق الحديث؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأما الثاني فلأن الرسول ﷺ قد بيّن الله مهمّته في القرآن، وذكر أنها مهمة التوضيح والبيان: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤)، فما جاء عن رسول الله ﷺ من شرح أو بيان بسند

صحيح ثابت، فإنه مما لاشك في أنه حق يجب اعتماده.

٣- بقي القسم الثالث من أقسام التفسير المأثور، ألا وهو "تفسير الصحابة"، فإنه أيضا من التفسير المعتمد المقبول؛ لأن الصحابة ﷺ قد اجتمعوا بالرسول ﷺ، ونهلوا من معينه الصافي، وشاهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا أسباب النزول، ولهم من صفاء نفوسهم، وسلامة فطرهم، وعلوِّ منزلتهم في الفصاحة والبيان، ما يؤهلهم من الفهم الصحيح السليم لكلام الله، وما يجعلهم يدركون أسرار هذا القرآن أكثر من أي إنسان.

قال الحاكم: "إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع"، ومعنى هذا أن تفسير الصحابي له حكم الحديث النبوي الذي رفع إلى النبي ﷺ، فهو إذاً من المأثور.

وأما التابعي: فقد اختُلف في تفسيره، فذهب بعض العلماء إلى أنه من المأثور؛ لأنه تلقاه من الصحابة غالبا، ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأي، أي: له حكم بقية المفسرين، الذين فسروا حسب قواعد اللغة العربية دون التزام للمأثور.

ملاحظة: التفسير بالمأثور من أجود أنواع التفسير إذا صح سنده إلى الرسول ﷺ، أو إلى الصحابة ﷺ، وينبغي التثبت من الرواية عند ذكر التفسير بالمأثور، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: إن أكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس، ومسلمة أهل الكتاب، وجُلّ ذلك في قصص الرسل مع أقوامهم، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم، وفي تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف...إلخ، فينبغي إذاً التثبت من الرواية.

أسباب ضعف الرواية بالمأثور:

ذكرنا فيما تقدم أن تفسير بعض القرآن ببعض، وتفسير القرآن بالسنة الصحيحة المرفوعة إلى النبي ﷺ لا شك في قبوله، ولا خلاف في أنه من أعلى مراتب التفسير، وأما تفسير القرآن بالمأثور بالمأثور عن الصحابة والتابعين، فإنه يتطرق إليه الضعف من وجوه:

أولا: اختلاط الصحيح بغير الصحيح، ونقل كثير من الأقوال المنسوبة إلى الصحابة أو التابعين من غير إسناد ولاتثبت مما أدى إلى التباس الحق بالباطل.

ثانيا: أن تلك الروايات مليئة "بالإسرائيليات"، ومنها كثير من الخرافات التي تصادم العقيدة الإسلامية، والتي قام الدليل على بطلانها، وهي مما دخل على المسلمين من أهل الكتاب.

ثالثا: أن بعض أصحاب المذاهب المتطرقة لفّقوا أقوالا، وصنعوا أباطيل نسبوها إلى بعض الصحابة مثل الشيعة شيعة عليٍّ المتطرِّفين، نسبوا إليه ما هو منه بريء، ومثل أولئك المتزلّفين للعباسيين، نسبوا إلى ابن عباس ما لم يصحّ نسبته إليه، تملقا للحكام.

رابعا: أن بعض الزنادقة من أعداء الإسلام دسُّوا على الصحابة والتابعين كما دسّوا على رسول الله ﷺ في الأحاديث النبوية، وذلك بغرض هدم الدين عن طريق الدس والوضع، فمن هذه الناحية ينبغي الاحتياط والتثبت والحذر من الأقوال التي تنسب إلى الصحابة الكرام أو التابعين.(١)

رأي الزّرقاني في مناهل العرفان:

وقد ذكر الأستاذ الزّرقاني في كتابه "مناهل العرفان" كلاما حسنا حول التفسير بالمأثور، بعد أن ذكر نقولا عن الإمام أحمد رحمه الله، وعن ابن تيمية رحمه الله، فقال:

وكلمة الإنصاف في هذا الموضوع: أن التفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله، وهذا لا يليق بأحدٍ ردُّه، ولا يجوز إهماله وإغفاله، ولا يجمل أن نعتبره من الصوارف عن هدي القرآن، بل هو على العكس عامل من أقوى العوامل على الاهتداء بالقرآن.

ثانيهما: ما لم يصح لسبب من الأسباب الآنفة أو غيرها، وهذا يجب ردّه، ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به، ولا يزال كثير من أيقاظ المفسرين كابن كثير يتحرّون الصحة فيما ينقلون، ويزيّفون ما هو باطل أو ضعيف.

---

(١) انظر كتاب "مناهل العرفان" للزرقاني.

أشهر المفسرين من الصحابة:

قال السيوطي في "الإتقان" (٢) : اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير ﵃.

أما الخلفاء فأكثر من روي عنه، فهم "عليّ بن أبي طالب" كرم الله وجهه، والرواية عن الثلاثة قليلة جدا، وكأن السبب في ذلك تقدم وفاقم.

وأما السبب في قلة الرواية عن الثلاثة "أبي بكر، وعمر، وعثمان"، فإنما يرجع كما نبه إليه السيوطي إلى قصر مدة خلافتهم، وتقدم وفاقم، ومن ناحية أخرى فإهم قد عاشوا في وسط أغلب أهله كانوا علماء بكتاب الله؛ لأهم صاحبوا الرسول ﷺ، فكانوا واقفين على أسرار التنزيل، عارفين بمعانيه وأحكامه، أما علي ﵁، فقد عاش بعد الخلفاء الثلاثة في وقت اتسعت فيه رقعة الإسلام، ودخل كثير من العجم في الدين الجديد، ونشأ جيل من أبناء الصحابة كانوا بحاجة إلى دراسة القرآن، وتفهّم أسراره وحِكمه، ولذلك اشتهرت الرواية عنه أكثر من بقية الخلفاء الراشدين، وسنتكلم بشيء من التفصيل عن بعض هؤلاء الصحابة الذين اشتهروا بتفسير القرآن.

عبد الله بن عباس ﵄:

عبد الله بن عباس ﵄ حبر هذه الأمة، وهو ابن عم رسول الله ﷺ الذي دعا له الرسول الكريم بقوله: "اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل"، وهو المسمى بـ"ترجمان القرآن"، قال عبدالله بن مسعود ﵁: "نِعم ترجمان القرآن عبدالله بن عباس". كان أعلم الصحابة بتفسير القرآن الكريم، وقد شهد له بالفضل - وهو شاب في عنفوان الصبا - كبار الصحابة، حتى كان ينافسهم، وينتزع إعجابهم مع حداثة سنِّه، وكان عمر ﵁ يدخله إلى مجلس الشورى مع كبار الصحابة الأجلاء يستشيرهم، وربما عرض الأمر عليه، وكان تقدير عمر لابن عباس مثار جدل عند بعض الصحابة، حتى قال بعضهم: لِمَ يدخل هذا الشاب معنا، وعندنا من الأولاد

---

(١) انظر "الإتقان": ٣٧٢/٢.

من هو أكبر منه سنّا؟ وله قصة رواها البخاري في صحيحه تدل على غزارة علمه، وعلو شأنه في الغوص على دقائق أسرار القرآن:

رواية البخاري:

روى البخاري من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقالوا: لِمَ يدخل هذا معنا، وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من علمتم — يعني: إنه من عرفتم ذكاءه وعلمه - فدعاهم ذات يوم، فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١)؟

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجَل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (النصر:٣)، فقال عمر: والله! لا أعلم منها إلا ما تقول"(١). لايدركها إلا الراسخون في العلم، ولا عجب أن ينال ابن عباس تلك الرتبة الرفيعة في فهم أسرار القرآن، فقد دعا له الرسول ﷺ بالفهم والفقه في الدين، كما روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "ضمني رسول الله إلى صدره، وقال: "اللهم فقِّهه في الدين، وعلِّمه التأويل".

وفي رواية: "اللهم علِّمه الحكمة".

وكان ابن عباس يسمى البحر؛ لكثرة علمه.

روي أن رجلا أتى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء:٣٠)، فقال: اذهب إلى ابن عباس فاسأله، ثم تعال، فأخبرني، فذهب، فسأله، فقال: كانت

---

(١) أخرجه البخاري رحمه الله في باب فضائل الصحابة.

السموات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات.

فرجع إلى ابن عمر، فأخبره، فقال: قد كنتُ أقول: ما يعجبني جرءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أُوتي علما.

وروي أن عمر بن الخطاب قال يوما لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ...﴾ (البقرة:٢٦٦) قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم.

فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء، فقال: يا ابن أخي! قل، ولا تحقِرْ نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل، فقال عمر: أيّ عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله". (رواه البخاري) فوافقه عمر على هذا الفهم.

كل هذا وأمثاله كثير، يدل على مبلغ علم ابن عباس وفهمه الثاقب منذ حداثة سنِّه، ولهذا أصبح في مصافٍّ كبار شيوخ الصحابة، وأصبح يُدَّعى حِبر الأمة بشهادة الصحابة أنفسهم.

شيوخ ابن عباس:

ومن شيوخ ابن عباس الذين استقى منهم علومه بعد رسول الله ﷺ، وكان لهم أبرز الأثر في توجيهه وثقافته "عمر بن الخطاب، وأبيّ بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت" رضي الله عنهم، وهؤلاء الخمسة هم أهم شيوخه الذين أخذ عنهم أكثر علمه، وتلقى منهم معظم ثقافته، وكان لهم أثر في توجيهه تلك الوجهة العلمية الدقيقة.

تلامذة ابن عباس:

تلقى العلم عن ابن عباس عدد كبير من التابعين، كان من أشهرهم تلامذته المشهورون، الذين نقلوا تفسيره وعلمه الغزير، وهم "سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر الخزرمي، وطاوس ابن كيسان اليماني، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح"، وهؤلاء هم أظهر تلامذته

الذين نقلوا مدرسة ابن عباس في التفسير إلينا ﷺ.

عبد الله بن مسعود:

ومن أعلام الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، ونقلوا لنا آثار الرسول ﷺ وأقواله "عبد الله بن مسعود" ﷺ، فقد كان من السابقين إلى الإسلام، وكان سادس ستة، ما على وجه الأرض مسلم سواهم، وكان خادم رسول الله ﷺ، يلبسه نعليه، ويمشي معه وأمامه، فكان له من هذه الصلة النبوية خير مثقّف ومؤدب، لذلك عدّوه من أعلم الصحابة بكتاب الله، ومعرفة محكمه ومتشابهه، وحلاله وحرامه.

قال السيوطي: قد روي عن ابن مسعود في التفسير أكثر مما روي عن علي كرم الله وجهه. روى الشيخان عنه أنه قال: والذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله، إلا وأنا أعلم أين أنزلت؟ ولا أنزلت آية من كتاب الله تعالى، إلا وأنا أعلم فيم أنزلت؟ ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه"، روى عنه كثير من التابعين.

* * * *

القسم الثاني

التفسير بالدراية أو بالرأي:

بعد أن تحدثنا عن التفسير بالرواية، ننتقل الآن إلى الحديث عن التفسير بالدراية، وهذا النوع يسمى عند علماء التفسير: التفسير بالرأي، أو التفسير بالمعقول؛ لأن المفسر لكتاب الله تعالى يعتمد فيه على اجتهاده، لا على المأثور المنقول عن الصحابة أو التابعين، بل يكون فيه الاعتماد على اللغة العربية، وفهم أسلوبها على طريقة العرب، ومعرفة طريقة التخاطب عندهم، وإدراك العلوم الضرورية التي ينبغي أن يكون ملما بها كل من أراد تفسير القرآن، كالنحو، والصرف، وعلوم البلاغة، وأصول الفقه، ومعرفة أسباب النزول إلى غير ما هنالك من العلوم التي يحتاج إليها المفسر، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

معنى التفسير بالرأي؟

المراد بالرأي هنا "الاجتهاد" المبني على أصول صحيحة، وقواعد سليمة متّبعة، يجب أن يأخذ بها من أراد الخوض في تفسير الكتاب، أو التصدّي لبيان معانيه، وليس المراد به مجرد "الرأي"، أو مجرد "الهوى"، أو تفسير القرآن بحسب ما يخطر للإنسان من خواطر، أو بحسب ما يشاء.

فقد قال القرطبي: من قال في القرآن بما سنح في وهمه، أو خطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول، فهو مخطىء مذموم، وعليه يحمل الحديث الشريف: "من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار".(١) وقد قال ﷺ: "من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ".(٢)

---

(١) الحديث: رواه البخاري، ومسلم عن علي ﷺ، ومعنى يتبوأ: أي ينزل ويحل.

(٢) الحديث: من رواية أبي داود، عن جندب.

قال القرطبي رحمه الله في مقدمة تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" ما نصه:

فسر الحديث ابن عباس رضي الله عنهما "ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" تفسيرين:

أحدهما: من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الصحابة والتابعين، فهو متعرض لسخط الله.

ثانيهما: من قال في القرآن قولا يعلم أن الحق غيره، فليتبوأ مقعده من النار.

وقد رجح القرطبي القول الثاني فقال: وهو أثبت القولين، وأصحهما معنى، ثم قال: وأما حديث "جندب" فقد حمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأي معنيّ به "الهوى" والمراد: من قال في القرآن قولا يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب، فقد أخطأ لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه.

وقال ابن عطيّة: "ومعنى هذا أن يسأل الرجل على معنىً في كتاب الله عزوجل، فيتسوّر عليه أي يهجم عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته، والنحويون نحوه، والفقهاء معانيه وأحكامه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه. (١)

أنواع التفسير بالرأي:

وعلى هذا، يمكن تقسيم التفسير بالرأي إلى قسمين:

١- تفسير محمود.

٢- تفسير مذموم.

فالتفسير المحمود: ما كان موافقا لغرض الشارع، بعيدا عن الجهالة والضلالة، متمشيا مع

---

(١) تفسير القرطبي: ٣٢/١.

قواعد اللغة العربية، معتمدا على أساليبها في فهم النصوص القرآنية الكريمة، فمن فسر القرآن برأيه - أي باجتهاده - ملتزما الوقوف عند هذه الشروط، معتمدا عليها فيما يرى من معاني الكتاب العزيز، كان تفسيره جائزا سائغا، جديرا بأن يسمى التفسير المحمود، أو التفسير المشروع.

وأما التفسير المذموم: فهو أن يفسر القرآن بدون علم، أو يفسره حسب الهوى مع الجهالة بقوانين اللغة أو الشريعة، أو يحمل كلام الله على مذهبه الفاسد، وبدعته الضالة، أو يخوض فيما استأثر الله بعلمه، ويجزم بأن المراد من كلام الله هو كذا وكذا، فهذا النوع من التفسير هو التفسير المذموم، أو التفسير الباطل.

وباختصار: فإن التفسير المحمود ما كان صاحبه عارفا بقوانين اللغة، خبيرا بأساليبها، بصيرا بقانون الشريعة.

والتفسير الباطل المذموم ما كان منبعثا عن الهوى، قائما على الجهالة والضلالة، مثاله: ما ورد عن بعض الجهلة من أدعياء العلم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ (الإسراء:٧١): أن المراد بها أن الله تعالى ينادي الناس يوم القيامة بأسماء أمهاتهم سترا عليهم، فقد فسر هذا الجاهل "الإمام" بالأمهات، وظن أن الإمام جمع أم مع أن اللغة العربية تأبى هذا؛ لأن جمع الأم أمهات قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ (النساء:٢٣)، ولا يكون جمع الأمّ إماما، فإن ذلك فاسد لغة وشرعا، والمراد بالإمام هنا "النبي" الذي اتبعته أمّته، أو كتاب الأعمال بدليل تتمة الآية: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (الإسراء:٧١).

فإذا لم يفهم الإنسان قواعد اللغة، ولا أصول العربية، خبط خبط عشواء، وكان عليل الرأي سقيم الفهم، وكذلك من لم يفهم غرض الشرع وقع في الجهالة والضلالة، كمن يأخذ بظاهر الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء:٧٢)،

فيحكم على كل أعمى بالشقاوة والخسران ودخول جهنم مع أن المراد بالعمى ليس عمى البصر، وإنما هو "عمى القلب" بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦).

وربما كان عمى البصر سببا لسعادة الإنسان كما جاء في الحديث القدسي: "من ابتليتُه بحبيبتَيْه - يعني: عينيه - فصبر، عوَّضتُه الجنة".

وسنذكر بعض النماذج عن التفسير الباطل المذموم عند الكلام على غرائب التفسير، فارجع إليه هناك. (١)

أمهات التفسير:

والأمور التي ينبغي استناد الرأي إليها في التفسير، أمهاتها أربعة كما ذكرها الزركشي في كتابه "البرهان"، ونقلها السيوطي عنه في كتابه "الإتقان"، ونحن نلخصها بإيجاز:

الأول: النقل عن الرسول ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي في التفسير، فإنه في حكم المرفوع.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، مع ترك ما لا تحتمله لغة العرب.

الرابع: الأخذ بما يوافق الكلام العربي، ويدل عليه قانون الشرع، وهذا هو الذي دعا به النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضي الله عنهما في قوله: "اللهم فقهّه في الدين وعلّمه التأويل". (٢)

العلوم التي يحتاجها المفسِّر:

يحتاج المفسر لكتاب الله تعالى إلى أنواع من العلوم والمعارف، يجب أن تتوفر فيه حتى يكون أهلا للتفسير، وإلا كان داخلا في الوعيد السابق: "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار".

---

(١) في صفحة: ١٢٦.

(٢) انظر "الإتقان" ١٧٩/٢.

وقد ذكر العلماء أنواع العلوم التي يجب توفرها في المفسِّر، وأوصلها السيوطي في كتابه "الإتقان" إلى خمسة عشر علما،(١) ونحن نوجزها فيما يلي:

١- معرفة اللغة العربية وقواعدها "علم النحو، والصرف، وعلم الاشتقاق".

٢- معرفة علوم البلاغة "علم المعاني، والبيان، والبديع".

٣- معرفة أصول الفقه من "خاص، وعام، ومجمل، ومفصل...الخ".

٤- معرفة أسباب النزول.

٥- معرفة الناسخ والمنسوخ.

٦- معرفة علم القراءات.

٧- علم الموهبة.

أما الأول: وهو اللغة وما يتعلق بها من نحو وصرف واشتقاق، فإنه ضروري للمفسِّر؛ إذ كيف يمكن فهم الآية بدون معرفة المفردات والتراكيب؟ وهل باستطاعة أحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٦) بدون أن يعرف المعنى اللغوي للإيلاء والتربص والفيء؟

قال الإمام مالك: لا أُوتي برجل غير عالم بلغة العرب يفسِّر كتاب الله، إلا جعلتُه نكالا. وقال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب.

فإذا لم يتفق اللفظ مع المعنى اللغوي كان باطلا، كتفسير بعض الروافض قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (الرحمن:١٩) أنهما علي وفاطمة رضي الله عنهما، وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن:٢٢)

---

(١) عد السيوطي العلوم خمسة عشر، وسردها على النحو التالي: أحدها: اللغة، الثاني: النحو، الثالث: التصريف، الرابع: الاشتقاق، الخامس: البيان، السادس: المعاني، السابع: البديع، الثامن: علم القراءات، التاسع: أصول الدين، العاشر: أصول الفقه، الحادي عشر: أسباب النزول، الثاني عشر: علم الناسخ والمنسوخ، الثالث عشر: علم الفقه، الرابع عشر: الأحاديث المبنية للمجمل والمبهم، الخامس عشر: علم الموهبة. (الإتقان بإيجاز).

يعني الحسن والحسين رضي الله عنهما.

وكتفسير "فرعون" بالقلب في قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (النازعات:١٧)، ويريد به قلب الإنسان القاسي.

قال القرطبي: وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعّاظ في المقاصد الصحيحة؛ تحسينا للكلام، وترغيبا للمستمع، وهو ممنوع؛ لأنه قياس في اللغة، وذلك غير جائز، وهو أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي. (١)

وعلم النحو ضروري للمفسر؛ لأن المعنى يتغير بتغير الحركات تغيرا كبيرا، فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨) بنصب هاء الجلالة، ورفع همزة العلماء، والمعنى صحيح؛ لأن معنى الآية: الذين يخشون اللهَ من عباده العلماءُ دون غيرهم، فمن ازداد علما بالله ازداد منه خوفا، ولو عكس فضمّ هاء الجلالة، ونصب همزة العلماء لفسد المعنى.

قصة لطيفة:

ذكر القرطبي في "تفسيره" هذه القصة في عدم اللّحن في القرآن، قال:

قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى المدينة المنورة فقال: من يقرئني مما أنزل على محمد ﷺ؟ قال: فأقرأه رجل سورة "براءة"، فقرأ عليه الآية الكريمة: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة:٣) بالجرِّ أي بجر اللام في "رسوله" بدل الضم، فقال الأعرابي: أوَقد برئ الله من رسوله؟ فإن يكن الله برئَ من رسوله فأنا أيضا أبرأ من رسوله، فاستعظم الناس الأمر، وبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه، فقال: يا أعرابي! أتبرأ من رسول الله ﷺ؟

فقال: يا أمير المؤمنين! إني قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني؟ فأقرأني هذا الرجل سورة "براءة"، فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾، فقلت: أوقد برئ الله من

---

(١) تفسير القرطبي: ٣٣/١

رسوله؟ إن يكن الله بريئ من رسوله فأنا أبرأ منه. فقال عمر: ما هكذا الآية، يا أعرابي! قال: فكيف هي؟ يا أمير المؤمنين! قال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما برئَ الله ورسولُه منه، أبرأ من المشركين... فأمر عمر بن الخطاب ﷺ ألّا يقرئ الناس إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود، فوضع النحو.[1]

ومعرفة علم الصرف والاشتقاق ضرورية أيضا للمفسِّر، حتى لا يخبط الإنسان خبط عشواء، قال الزمخشري: مِن بدع التفاسير قول من قال: إن "الإمام" في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ (الاسراء:٧١) جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، قال: وهذا غلط فاحش أوجبه جهل القائل بالتصريف، فإن "أما" لا تجمع على إمام.

وأما علوم المعاني، والبيان، والبديع: فضرورية لمن أراد تفسير الكتاب العزيز؛ لأنه لابد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم، فمثلا قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ (البقرة:٩٣) أي أشربوا حب العجل، فهو على حذف مضاف، ومثله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (يوسف:٨٢) المراد أهل القرية. وقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة:١٨٧) ليس على الحقيقة، وإنما هو استعارة، فكما يستر اللباس العورة، ويزيِّن الإنسان ويجمِّله، كذلك الرجل والمرأة كل منهما كاللباس لصاحبه يزيّنه ويكمّله ويجمّله، وهو من روائع النظم، وبدائع الكلام. وإذا حمل الإنسان المعنى على ظاهره فسد المعنى، كما يذكر أن "الفرنسيين" أرادوا ترجمة القرآن إلى لغتهم، فلما وصلوا إلى هذه الآية الكريمة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ ترجموها بالظاهر، ولم يدركوا السِّر الدقيق فيها، فكانت الترجمة كالتالي"هن بنطلونات لكم، وأنتم بنطلونات لهن"؛ لأن اللباس عندهم يسمى: "البنطلون"، وهكذا ساء فهمهم، ولم يدركوا روعة تعبير القرآن.

---

[1] تفسير القرطبي: ١/٢٤.

وقريب من هذا ما وقع لبعض الأعراب حين سمع قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ (البقرة:١٨٧): أخذ عقالين: أبيض وأسود، وجعل يأكل وينظر إليهما حتى كادت الشمس أن تطلع، فجاء إلى النبي ﷺ، فأخبره بذلك، فقال له: إنك لعريض القفا[1]، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل.

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة على الاستعارة والكناية والمجاز، ولابد في فهمهما من معرفة علم البيان والبديع، مثل قوله تعالى عن سفينة نوح ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر:١٤) أي بحفظنا ورعايتنا، وقوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ (يونس:٢)، و﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ (الشعراء:٨٤)، و﴿جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ (الإسراء:٢٤). كل ذلك وأشباهه يحتاج إلى فهم علوم البلاغة وأسرار البيان.

وهكذا بقية العلوم من "أصول الفقه، وأسباب النزول، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وعلم القراءات"، كل ذلك مما يحتاج إليه المفسر لكتاب الله تعالى حتى لا يخطىء في الفهم، ولا تزلَّ قدمه بسبب الجهل بهذه الأمور الضرورية.

وأما علم الموهبة: فيقصد منه العلم اللدني الرباني: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف:٦٥) الذي يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، ويفتح قلبه لفهم أسراره، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٢) فهو ثمرة التقوى والإخلاص، ولا ينالُ هذا العلمَ من كان في قلبه بدعة، أو كبر، أو حب للدنيا، أو ميلٌ إلى المعاصي، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ (الأعراف:١٤٦) وما أجمل قول الشافعي رحمه الله:

شكوتُ إلى وكيع سوءَ حِفظي ... فأرشَدني إلى تركِ المعاصي
وأخبرَني بأن العلم نورٌ ... ونورُ الله لا يُهْدى لعَاصي

قال السيوطي: ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: "هذا شيء وليس في قدرة الإنسان"، وليس كما ظننت من الإشكال.

---

[1] عريض القفا: كناية عن البلاهة، وسوء الفهم.

والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد، ثم قال: علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له. فهذه العلوم التي ذكرناها هي كالآلة للمفسر، ولا يكون مفسرا إلا بتحصيلها، فمن فسَّر بدونها كان مفسرا بالرأي المنهي عنه".(١)

وهذه الشروط التي ذكرها العلماء، إنما هي لتحصيل أعلى مراتب التفسير، وهناك معانٍ عامة يفهمها الإنسان عند سماع اللفظ الكريم، فقد سهَّل الله القرآن ويسَّره، وأمر بالتدبر والتذكر لكتابه المجيد: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (محمد:٢٤)، وذلك أدنى مراتب التفسير، والله الموفق.

مراتب التفسير:

وقد قسم المرحوم الشيخ محمد عبده التفسير إلى مرتبتين:

١- مرتبة عليا.

٢- مرتبة دنيا.

أما المرتبة الأولى "العليا" فهي لاتتم إلا بأمور:

أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعت في القرآن عن طريق استعمالات أهل اللغة.

ثانيها: معرفة الأساليب الرفيعة، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه.

ثالثها: علم أحوال البشر، ومعرفة السنن الإلهية الكونية في تطور الأمم واختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعزّ وذلّ، وإيمان وكفر.

رابعها: العلم بوجه هداية القرآن للبشرية، وما كان عليه العرب في الجاهلية من شفاء وضلال، فقد روي عن عمر ﷺ أنه قال: "لا يعرِف فضل الإسلام من لم يقرأ حياة الجاهليَّة".

خامسها: العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل في الشؤون الدينية والدنيوية.

---

(١) الإتقان: ١٨١/٢.

المرتبة الدنيا:

وأما أدنى مراتب التفسير: فهو أن يتبين بالإجمال ما يشرب قلبَه عظمةَ الله وتنزيهه، ويصرف النفس عن الشر، ويجذبها إلى الخير، وهذه ميسّرة لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧).

أوجه التفسير:

روى السيوطي نقلا عن ابن جرير من طرق متعددة عن ابن عباس ﵄ أنه قال: التفسير أربعة أوجه:

١- وجه تعرفه العرب من كلامها.

٢- وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته.

٣- وتفسير يعرفه العلماء.

٤- وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى.

أقوال العلماء في جواز التفسير بالرأي:

بعد أن عرفنا معنى "التفسير بالرأي" وشروطه، نذكر الآن أقوال العلماء فيه، وأدلة كل من المجيزين والمانعين له، حتى يظهر الحق أبلج ساطعا، مثل الشمس في رابعة النهار، فنقول - ومن الله نستمد العون -:

المراد بالرأي هنا الاجتهاد، وعليه فالتفسير بالرأي معناه: تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب وأسلوبهم في الخطاب، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، وقد اختلف العلماء في جواز التفسير بالرأي على مذهبين:

المذهب الأول: عدم جواز التفسير بالرأي؛ لأن التفسير موقوف على السماع، وهو قول طائفة من العلماء.

المذهب الثاني: جواز التفسير بالرأي بالشروط المتقدمة، وهو مذهب جمهور العلماء.

أدلة المانعين:

استدل المانعون للتفسير بالرأي بعدة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولا: إن التفسير بالرأي قولٌ على الله بغير علم، وهو منهيٌّ عنه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٦٩).

ثانيا: ما ورد في الحديث الشريف من الوعيد الشديد لمن فسَّر القرآن الكريم برأيه، وهو قوله ﷺ: "اتقوا الحديث عليَّ إلا ما علمتم، فمن كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار". (١)

ثالثا: قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)، فقد أضاف البيان إلى الرسول ﷺ، فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن.

رابعا: تحرّج الصحابة والتابعين من القول في القرآن بآرائهم، حتى روي عن الصديق أنه قال: أيّ سماء تظلّني؟ وأيّ أرض تقلّني؟ إذا قلتُ في القرآن برأيي، أو قلتُ فيه بما لا أعلم.

أدلة المجيزين للتفسير بالرأي:

وقد استدل المجيزون للتفسير بالرأي، وهم "الجمهور" بعدة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولا: لقد حثنا الله على التدبر، وتعبّدنا في القرآن، فقال عز من قائل: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩).

وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد:٢٤).

والتدبّر والتذكّر لا يكون إلا بالغوص عن أسرار القرآن، والاجتهاد في فهم معانيه، فهل يعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر الله بعلمه محظورا على العلماء مع أنه طريق العلم، وسبيل المعرفة؟

---

(١) رواه الترمذي:.

ثانيا: إن الله تعالى قسم الناس قسمين: عامة وعلماء، وأمر بالرجوع إلى أهل العلم الذين يستنبطون الأحكام، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء:٨٣).

والاستنباط هو استخراج المعاني الدقيقة بثاقب الذهن، وهو إنما يكون بالاجتهاد والغوص في أسرار القرآن، كما يغوص السبَّاح في أعماق البحر لاستخراج الجواهر واللآلي.

ثالثا: قالوا: لو كان التفسير بالاجتهاد غير جائز، لما كان الاجتهاد جائزا، ولتعطّل كثير من الأحكام، وهذا باطل؛ فإن المجتهد في حكم الشرع مأجور، سواء أصاب أو أخطأ مادام أنه قد استفرغ جهده، وبذل ما في وسعه بغية الوصول إلى الحق والصواب.

رابعا: إن الصحابة قرؤوا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ؛ إذ أنه لم يبيّن لهم كل شيء، بل بيّن لهم الضروري منه، وترك البعض الآخر الذي توصلوا إلى معرفته بعقولهم واجتهادهم، ولو بيّن لهم كل معانيه لما وقع بينهم اختلاف في التفسير.

خامسا: إن النبي ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما، فقال: "اللهم فقِّهه في الدين، وعلمه التأويل"، فلو كان "التأويل" مقصورا على السماع والنقل كالتنزيل، لما كان هناك فائدة في تخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فدل على أن التأويل هو التفسير بالرأي والاجتهاد.

الرد على أدلة المانعين:

وقد ردّوا على أدلة المانعين بحجج دامغة، وبراهين قاطعة تثبت خطأهم، فقالوا في الرد على الدليل **الأول**: إن التفسير بالاجتهاد ليس قولا على الله بغير علم، بل هو قول بعلمٍ مأذون به من الشارع، فقد بيَّن عليه الصلاة والسلام أن المجتهد إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر واحد، فكيف يكون مأجورا إذا لم يكن مسموحا له بالاجتهاد؟

ثانيا: أما الدليل الثاني وهو حديث: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"، فقد رد السيوطي بخمسة أدلة عليه، فقال: جملة ما تحصل في معنى التفسير بالرأي خمسة أقوال:

أحدها: التفسير من غير حصول على العلوم التي يجوز معها التفسير.

الثاني: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

الثالث: التفسير المقرر للمذهب الفاسد، فيجعل المذهب أصلا، والتفسير تابعا.

الرابع: الحكم بأن مراد الله كذا على وجه القطع من غير دليل.

الخامس: التفسير بالاستحسان والهوى.⁽¹⁾

ثالثا: وفي الرد على الدليل الثالث قالوا: نعم! إن النبي ﷺ مأمور بالبيان، ولكنه انتقل إلى جوار الله، ولم يبين لهم كل شيء، فما ورد بيانه عنه ﷺ، ففيه الكفاية، وما لم يرد عنه بيانه فلابد فيه من الاجتهاد وإعمال الفكر، وختام الآية يشهد ذلك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٦)، فلا بد إذا من الفكر والاجتهاد.

رابعا: وفي الرد على الدليل الرابع قالوا: إن إحجام الصحابة إنما كان منهم ورعا واحتياطا خشية ألا يصيبوا عين اليقين، وكانوا يرون أن التفسير شهادة على الله بأنه أراد باللفظ كذا، فأمسكوا عنه خشية ألا يكون الصواب جانبهم، وأما إذا ترجّح لهم وجه الصواب، فإنهم لايمتنعون، وهذا أبو بكر الصديق يفتي في الكلالة برأيه في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ (النساء:١٧٦)، فيقول رضي الله عنه: أقول فيها برأي، فإن كان صوابا فمن الله، وإن كان غير ذلك فمنِّي ومن الشيطان. "الْكَلالَةِ": ما خلا الوالد والولد.

من هذه النظرة العابرة يتبيّن لنا خطأ وِجهة الذين منعوا تفسير القرآن بالاجتهاد، وقصروه على المنقول والمأثور، وقد علمت أدلة الجمهور القوية، وتفنيدهم لأدلة المانعين. ونزيد هنا كلمة للإمام الغزالي، وأخرى للراغب الأصفهاني، وثالثة للقرطبي حول جواز تفسير القرآن بالاجتهاد.

---

(1) الإتقان: ١٨٣/٢.

كلمة الإمام الغزالي:

قال الغزالي في الإحياء: إن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا، ومتسعا بالغا، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه، فبطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحدّ عقله.⁽¹⁾

كلمة الراغب الأصفهاني:

وقال الراغب الأصفهاني في مقدمة التفسير، بعد أن ذكر المذهبين وأدلتهما، قال: وذكر بعض المحققين أن المذهبين هما الغلوّ والتقصير، فمن اقتصر على المنقول، فقد ترك كثيرا مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحدٍ الخوض فيه، فقد عرّضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩).⁽²⁾

كلمة الإمام القرطبي:

وقال العلامة القرطبي في تفسيره " الجامع لأحكام القرآن" ما نصه:

وقال بعض العلماء: إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ....﴾ (النساء:٥٩)، وهذا فاسد؛ لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلو إما يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط، أو المراد به أمر آخر، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه، فإن الصحابة ﷺ قد قرؤوا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ دعا لابن عباس، فقال: "اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل"، فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل، فما فائدة تخصيصه بذلك؟.⁽³⁾

⁽¹⁾ الإحياء: ٣/٣٦-٣٧. ⁽²⁾ مقدمة التفسير للراغب، ص: ٤٢٣.

⁽³⁾ الجامع لأحكام القرآن: ١/٣٣.

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من الطبع والهوى، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه.

الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الحذف والإضمار، والتقديم والتأخير. تأمل قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ (الإسراء:٥٩)، فإن معناه: آتينا ثمود الناقة معجزة واضحة وآية ظاهرة، فظلموا أنفسهم بقتلها.

والناظر إلى ظاهر العربية يظن أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدري بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار، وأمثال هذا في القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلايشمله النهي. (١)

* * * *

---

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/٣٤.

القسم الثالث

التفسير الإشاري وغرائب التفسير:

النوع الثالث من التفسير هو "التفسير الإشاري"، وسنتعرض في هذا البحث إلى معنى التفسير الإشاري، إلى شروطه، وإلى آراء العلماء فيه، ثم نعقب ذلك ببيان نماذج عن التفسير الإشاري، وأهم الكتب التي تحت هذا المنحى، وما فيها من حسنات وسيئات.

معنى التفسير الإشاري:

التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره؛ لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدة للنفس ممن نوَّر الله بصائرهم، فأدركوا أسرار القرآن العظيم، أو انقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة بواسطة الإلهام الإلهي، أو الفتح الرباني مع إمكان الجمع بينها وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة.

فالتفسير الإشاري هو أن يرى المفسر معنى آخر غير معنى الظاهر تحتمله الآية الكريمة، ولكنه لا يظهر لكل إنسان، وإنما يظهر لمن فتح الله قلبه، وأنار بصيرته، وسلكه في ضمن عباده الصالحين الذين منحهم الله الفهم والإدراك، كما قال تعالى في قصة الخضر مع موسى عليه السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف:٦٥).

وهذا النوع من العلم ليس من العلم الكسبي الذي ينال بالبحث والمذاكرة، وإنما هو من العلم اللدُنّي أي الوهبيّ الذي هو أثر التقى والاستقامة والصلاح، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٢).

آراء العلماء في التفسير الإشاري:

اختلف العلماء في التفسير الإشاري، وتباينت فيه آراؤهم، فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، ومنهم من عدّه من كمال الإيمان ومحض العرفان، ومنهم من اعتبره زيغا وضلالا، وانحرافا عن دين الله تبارك وتعالى.

والواقع أن الموضوع دقيق، يحتاج إلى بصيرة وروِيَّة، وغوص إلى أعماق الحقيقة؛ ليظهر ما إذا كان الغرض من هذا النوع من التفسير هو اتباع الهوى، والتلاعب في آيات الله كما فعل "الباطنية"، فيكون ذلك زندقة وإلحادا، أو الغرض منه الإشارة إلى أن كلام الله تعالى لايحيط به بشر؛ لأنه كلام خالق القوى والقدر، وأن لكلامه تعالى مفاهيم وأسرارا، ونكتا ودقائق، وعجائب لا تنقضي، فيكون ذلك من محض العرفان وكمال الإيمان، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أوغل فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء"(١).

أدلة المجيزين:

وقد استدل القائلون بجواز التفسير الإشاري بما رواه البخاري رحمه الله في صحيحه في باب التفسير عند تفسير سورة "النصر"، ونص الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

"كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه من علمتم؟ فدعاني ذات يوم، فأدخلني معهم، قال: فما رأيت أنه دعاني إلا ليريهم، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر:١) فقال بعضهم: أمرنا بأن نحمد الله ونستغفره، إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئاً،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك، انظر "الإتقان": ١٨٥/٢.

فقال لي: أكذا تقول يا ابن عباس؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (النصر:٣) فقال عمر ؓ: ما أعلم منها إلا ما تقول".(١)

فهذا الفهم من ابن عباس لم يفهمه بقية الصحابة، وإنما فهمه عمر ؓ، وفهمه ابن عباس ؓ، وهو من "التفسير الإشاري" الذي يلهمه الله من شاء من خَلقه، ويطلع عليه بعض عباده.

فالسورة الكريمة فيها "نعي" للنبي عليه الصلاة والسلام، وإشارة إلى دنو أجله. ومثل هذا ما ورد في الحديث الشريف: أن النبي ﷺ خطب الناس يوما، فقال في جملة خطبته: "إن الله خيَّر عبدا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده"، فبكى أبوبكر، وفي رواية فقال: فديناك يا رسول الله بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له يبكي، فلما قُبض رسول الله ﷺ علمنا أنه كان هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا.(٢)

فأبو بكر الصديق ؓ فهم "بطريق الإشارة" ما لم يفهمه عامة الصحابة ؓ، وكان الأمر كما قال.

طائفة من أقوال العلماء:

وأنا أنقل هنا طائفة من أقوال العلماء في التفسير الإشاري بإيجاز، سائلا المولى أن يلهمنا السداد والرشاد، وأن يجنبنا الخطأ والضلال، ثم أعقبها بكلمة لحجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله، فهي مسك الختام، فأقول - ومن الله أستمد العون -:

كلمة الزّركشي في البرهان:

قال الزركشي في البرهان: كلام الصوفية في تفسير القرآن، قيل: إنه ليس بتفسير، وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة، كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ

---

(١) نقلا عن "جمع الفوائد، وأعذب الموارد" ٢/٢٥٨.

(٢) الحديث رواه البخاري، والترمذي.

الْكُفَّارِ﴾ (التوبة:١٢٣) إن المراد "النفس"، يريدون أن علَّة الأمر بقتال من يلينا هي القرب، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه.

كلمة النسفي والتفتازاني:

وقال النسفي في العقائد: النصوص على ظواهرها، والعدول عنها إلى معانٍ يدَّعيها أهل الباطل إلحاد.

وقال التفتازاني في شرحه على العقائد: سميت الملاحدة باطنية؛ لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها، بل لها معان لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية، قال: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك، يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان.(١)

فأنت ترى أن النسفي أشار إلى "الباطنية"، وبين أن طريقهم إلحاد في دين الله، والتفتازاني فصّل البحث، ووضَّح الموضوع، فردّ على "الباطنية" ضلالهم، وأقرّ لبعض أرباب السلوك طريقهم في استنباط الدقائق، والإشارات الخفية، وجعلها من كمال المعرفة والإيمان.

ومن هنا يظهر لنا الفرق جليا بين "التفسير الإشاري" الذي هو تفسير بعض العارفين بالله، وبين "التفسير الباطني" الذي هو تفسير الباطنية الملاحدة الذين يحرفون معاني الكتاب العزيز.

فالأولون لا يمنعون إرادة الظاهر، بل يقولون: إنه هو الأصل والأساس، ويحضُّون عليه ويقولون: لابد من معرفة الظاهر أولا؛ إذ من ادّعى فهم أسرار القرآن، ولم يُحكم الظاهر، يكون كمن ادعى بلوغ سطح البيت قبل أن يلج الباب.

وأما الباطنية، فإنهم يقولون: إن الظاهر غير مراد أصلا، وإنما المراد الباطن، وقصدهم من وراء هذا

---

(١) شرح العقائد النسفية للتفتازاني.

الكلام نفي الشريعة وإبطال الأحكام، وهذا بلاشك إلحاد في الدين، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت: ٤٠).

كلام السيوطي في الإتقان:

والعلامة السيوطي ذكر في كتابه "الإتقان" عن ابن عطاء النص الآتي: اعلم أن التفسير من هذه الطائفة – يعني التفسير الإشاري – لكلام الله وكلام رسوله ﷺ بالمعاني العربية، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له، ودلت عليه في عرف اللسان، ولهم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه.

فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذوجدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهو لم يقولوا ذلك، بل يقررون الظواهر على ظواهرها؛ مرادا بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما ألهمهم(١).

أقول: هذا كلام الإنصاف، فقد وضع الشيخ الحق في نصابه، وجمع بين النصوص الظاهرة، والمعاني الخفية الواردة التي تشرق على قلب المؤمن العارف بالله، كما كان الحال مع الصديق وعمر رضي الله عنهما، ولا عجب فالله تعالى يعطي الحكمة من يشاء، ويضع الفهم فيمن أراد، وهذا هو القرآن الكريم يخبرنا عن "داود وسليمان عليهما السلام" في أمر عُرض عليهما، فحكم كل واحد منهما بحكم يخالف الآخر فيقول: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ (الأنبياء: ٧٩).

معنى الحديث الوارد في التفسير الإشاري:

ويجدر بنا هنا أن نبين معنى الحديث الوارد في التفسير الإشاري في بيان معنى ظهر الآية وبطنها، وحدِّ الحرف، ومطلع الحد ....إلخ؛ لئلا يتخذه الملاحدة الباطنية حجة لهم في دعواهم الباطلة

---

(١) الإتقان: ١٨٥/٢.

في تفسير كلام الله تعالى على طريقتهم الباطنية، وتلاعبهم في النصوص الكريمة حسب الأهواء.

روى الفريابي بسنده عن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: "لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع".

وروى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا: "إن هذا القرآن ليس منه حرف إلا له حد، ولكل حد مطلع".

وقد ذكر العلامة السيوطي رحمه الله بعض الوجوه في تأويل الحديث الشريف في معنى "الظهر والبطن"، ونحن نذكر أقرب هذه الأوجه إلى الصواب:

الوجه الأول: أن المراد بالظاهر لفظها، وبالباطن تأويلها.

الوجه الثاني: أن المراد بالظاهر، ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي اطلع الله عليها أرباب الحقائق.

الوجه الثالث: أن القصص التي قصَّها الله تعالى عن الأمم الماضية، وما عاقبهم به، ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وباطنها وعظ الآخرين، وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحلّ بهم مثل ما حلَّ بهم.

وأما المراد "بالحدّ": فهو أحكام الحلال والحرام، والمراد "بالمطلع": الوعد والوعيد، ويؤيده حديث ابن عباس السابق: "إن القرآن ذو شجون وفنون"... الحديث، وقد مر معك ذكره.

شروط قبول التفسير الإشاري:

والتفسير الإشاري لا يكون مقبولا إلا إذا توفرت فيه الشروط الآتية، قال السيوطي: وهذا الوجه أشبهها بالصواب.(١)

أولا: عدم التنافي مع المعنى الظاهر في النظم الكريم.

ثانيا: عدم ادعاء أنه المراد وحده دون الظاهر.

---

(١) عن الإتقان: ١٨٤/٢ بتصرف.

ثالثا: ألا يكون التأويل بعيدا سخيفا لا يحتمله اللفظ، كتفسير الباطنية قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ (النمل:١٦) أي أن الإمام عليا ورث النبي في علمه.

رابعا: ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

خامسا: ألا يكون فيه تشويش على أفهام الناس.

وبدون هذه الشرائط لايقبل التفسير الإشاري، ويكون عند ذلك من قبيل التفسير بالهوى والرأي المنهي عنه، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كلمة قيمة للشيخ الزّرقاني:

ونسوق هنا كلمة قيمة للشيخ محمد عبد العظيم الزّرقاني حول التفسير الإشاري، فيها حكمة بالغة، ونصيحة صادقة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قال ﵀:

"ولعلك تلاحظ معي أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر، فدخل في روعهم أن الكتاب والسنة؛ بل والإسلام كله ما هي إلا سوانح وواردات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات، وزعموا أن الأمر ما هو إلا تخيلات، وأن المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح، فلم يتقيدوا بتكاليف الشريعة، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية في فهم أبلغ النصوص العربية، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والأدهى من ذلك أنهم يتخيَّلون ويخيِّلون للناس أنهم هم أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية، واتصلوا بالله اتصالا أسقط عنهم التكليف، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب، ماداموا في زعمهم مع رب الأرباب، وهذا - لعمر الله - هو المصاب العظيم الذي عمل له الباطنية كي ما يهدموا التشريع من أصوله، ويأتوا بنيانه من قواعده.

فواجب النصح لإخواننا المسلمين: يقتضينا أن نحذرهم الوقوع في هذه الشباك، ونشير عليهم أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية؛ لأنها كلها أذواق ومواجيد خارجة

عن حدود الضبط والتقييد، وكثيرا ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة، والحق بالباطل، فالأحرى بالفَطِن العاقل أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق، وأن يفر بدينه من هذه الشبهات، وأمامه في الكتاب والسنة، وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياض وجنات: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة: ٦١)؟ (١)

كلمة حجة الإسلام الغزالي:

ويقول حجة الإسلام الغزالي ﵀ في كتابه "إحياء علوم الدين" في فصل الذكر والتذكير، ما نصه: "وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثهما بعض الصوفية:

أحدهما: الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنا كذا، ويتشبّهون فيه بالحسين "الحلّاج" الذي صلب لأجل إطلاقه كلماتٍ من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: "أنا الحق"، وهذا فنٌّ من الكلام عظيم ضرره على العوام، حتى من نطق بشيء منه فقتْلُه أفضل في دين الله من إحياء عشرة.

الثاني: كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوِّش القلوب ويدهش العقول، ويحير الأذهان، وقد قال ابن مسعود ﵁: ما حدث أحد قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنةً عليهم. (٢)

وقال علي كرم الله وجهه: كلّموا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ﷺ. (٣)

أمثلة على التأويل الإشاري الفاسد:

ثم قال – طيّب الله ثراه –: وأما الطاعات فيدخلها ما ذكرناه من الشطح، وأمر آخر يخصها وهو

---

(١) مناهل العرفان: ١/٥٥٨.

(٢) روي في مقدمة صحيح مسلم موقوفا على ابن مسعود ﵁.

(٣) رواه البخاري ﵀ موقوفا على علي ﵁. (٣) متفق عليه.

صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لايسبق منها إلى الأفهام فائدة، فهذا أيضا حرام، وضرره عظيم. ومن أمثلة تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (النازعات:١٧) إنه إشارة إلى قلبه، وقال: هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل إنسان، وفي قوله تعالى: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ (الأعراف:١١٧) أي كل ما يتوكأ عليه، ويعتمده مما سوى الله عزّ وجلّ، فينبغي أن يلقيه.

وفي قوله ﷺ: "تسحّروا فإن في السّحور بركة" فسَّروا السحور بأنه الاستغفار في الأسحار، وأمثال ذلك حتى ليحرفوا القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وسائر العلماء، وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعا، كتنزيل فرعون على القلب، فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده، وبعضها يعلم بطلانه بغالب الظن، وكل ذلك حرام وضلالة، وإفساد للدين على الخلق.

ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ، يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع "الكذب" على رسول الله ﷺ كمن يضع في كل مسألة يراها حديثا عن النبي ﷺ، فذلك ظلم وضلال، ودخول في الوعيد: "من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"، بل الشرّ في تأويل هذه الألفاظ أطمّ وأعظم؛ لأنه مبطل للثقة بالألفاظ، وقاطع طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية".⁽¹⁾ انتهى كلام الغزالي رحمه الله.

خلاصة البحث:

ومما تقدم يتبين لنا أن التفسير الإشاري له ما يؤيده من الشرع، ولكنه قد دخلت عليه بعض التأويلات الفاسدة، وسلك فيه بعض الناس مسلك الباطنية، و لم يراعوا الشروط التي وضعها العلماء، وأخذوا يخبطون فيه خبط عشواء، بل أصبح كل من هبَّ ودبَّ: يتطاول على كتاب الله تعالى،

---

(1) الإحياء للغزالي رحمه الله باختصار.

فيتأوله حسب ما يميله عليه الهوى، أو يوسوس له به الشيطان، ويزعم أنه من التفسير الإشاري مع أنه سفاهة وضلالة وجهالة؛ لأنه تعريف لكتاب الله، وسلوك لمسلك الباطنية الملاحدة، وهو وإن لم يكن تحريفا لألفاظ، فإنه تحريف لمعانيه، ولقد سمعت من يستشهد بالآية الكريمة: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام:٩١) على ضرورة ملازمة المريد لذكر الله تعالى بلفظ "الله"، فجعل هذه اللفظة مقول القول أي "قل: الله"، وما درى هذا الجاهل الغبيّ أن هذه جملة حذف منها الخبر، والتقدير: "الله أنزله" بدليل سياق الآية الكريمة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى...﴾ إلى قوله ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام:٩١). وأمثال هذا التخليط كثير، فلا ينبغي لعلماء المسلمين أن يسمحوا لأمثال هؤلاء الجهلة بالتطاول على كتاب الله، وبتفسيره بما يخالف الظاهر، ويجافي الحق والصواب زعما منهم أنه من نوع "التفسير الإشاري"، فالتفسير له حدود وشروط، وليس لكل إنسان أن يقول فيه برأيه، أو يعبث في نصوصه بفهمه العليل، ولقد صدق شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال: "نصف طبيب يفسد الأبدان، ونصف عالم يفسد الأديان"، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

غرائب التفسير:

ذكر العلامة السيوطي في كتابه "الإتقان" نقلا عن الكرماني أنه ألّف كتابا في مجلدين سماه "العجائب والغرائب"، ضمّنه أقوالا منكرة في التفسير، لا يجوز قولها ولا الاعتماد عليها؛ لأنها من أقوال أهل الضلال، وإنما ذكرها للتحذير منها، وقال: إنما أردت بذكرها أن يعلم الناس أن فيمن يدّعي العلم حمقى، ونحن ننقل طرفا منها، وننقل بعض أقوال أخرى عن الباطنية حتى يحذر المسلمون من أمثال هذه الأباطيل التي دخلت على الأمة الإسلامية بسبب التعصب الأعمى واتباع الأهواء.

أمثلة على هذه الغرائب:

أولا: في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ (الشورى:١،٢) قالوا: الحاء حرب عليٍّ ومعاوية، والميم ولاية بني مروان، والعين ولاية العباسيين، والسين ولاية السفيانيين، والقاف القدوة بالمهدي... إلى غير ما هنالك من الضلال.

ثانيا: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:١٧٩) قالوا: القصاص المراد به قصص القرآن، وهو باطل لغة وشرعا، وقول لايقول به إلا الجهلاء.

ثالثا: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة:٢٦٠) قالوا: إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه، وفسروه بمعنى "ولكن ليسكن صديقي"، وهذا بعيد جدا.

رابعا: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (البقرة:٢٨٦) قالوا: إنه الحبُّ والعشق، ففسّروا ما لا طاقة للإنسان به بهذا التفسير الباطل، وهذا حكاه الكواشي في تفسيره.

خامسا: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق:٣) قالوا: إنه الذَّكر إذا انتصب، وهذا – بلاشك – جرأة غريبة، ووقاحة شنيعة لا تصدر إلا من سفيه أحمق.

سادسا: قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس:٨٠) قالوا: المراد بالشجر الأخضر "إبراهيم"، ونارا أي نور محمد ﷺ، فإذا أنتم منه توقدون أي تقتبسون الدين.(١)

وهذا التفسير من الغرائب لا تدل عليه اللغة، وهو تأويل باطل لنصوص القرآن، وإن كان سبكه جميلا وعبارته لطيفة.

نماذج عن تفسير الشيعة:

الشيعة هم فرق عديدة، أسرفوا في حبِّ الإمام عليّ كرّم الله وجهه، فمنهم من أغرق في نفس

---

(١) الإتقان: ١٨٦/٢ بتصرف.

التشيّع حتى كفر، وعلى رأس هؤلاء ابن سبأ اليهودي الخبيث الذي ما اعتنق الإسلام إلا بقصد الكيد له، والدسِّ فيه، ومنهم من يعتقد بأن الأمين جبريل قد أتاه وأخطأ في النزول، وأنه كان سينزل بالرسالة على عليّ رضي الله عنه، فأخطأ ونزل على محمد ﷺ، وهؤلاء كانوا دائما في حرب وخصومة مع المسلمين، حتى ورد أن عليا نفسه شنَّ الغارة عليهم، وحاربهم، وطاردهم على كفرهم وضلالهم.

ومنهم أناس معتدلون، لم يسقطوا في هاوية الكفر، وإنما خالفوا أهل السنة والجماعة، واعتقدوا بأفضلية عليٍّ رضي الله عنه على جميع الصحابة رضي الله عنهم، وأنه أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وبأحقيّته بالخلافة؛ لأنه من أهل البيت، واعتقدوا بأن الخلفاء الثلاثة قد سلبوا عليا رضي الله عنه حقَّه في توليهم الخلافة، ومنهم من يفضِّل عليا رضي الله عنه فقط، ومنهم من لا يكتفي بذلك، بل يشتم الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويعتقد فيهم الضلال - والعياذ بالله - مع أن الله تعالى أثنى عليهما في آيات عديدة، وجعلهم من خاصة أصحاب نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وسنعرض إلى نماذج من تأويلات "الاثنا عشرية"، والشيعة "السبيئة" في كتاب الله الكريم.

من تفسيرات الشيعة "الاثنا عشرية":

١ - ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ (الحج:٢٩) فسّروه بلقاء الإمام علي رضي الله عنه.

٢ - ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (النازعات:٦،٧) الراجفة: الحسين، والرادفة: أبوه علي كرم الله وجهه رضي الله عنهما.

٣ - ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة:٥٥) يعني بالذين آمنوا: الأئمة الإثنى عشرية.

٤ - ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (النحل:٥١) أي لا تتخذوا إمامين، إنما هو إمام واحد.

٥ - ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر:٦٩) أي أشرقت بنور الإمام رضي الله عنه.

٦ - ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ (إبراهيم:١٨) الآية، فسّروها

بأن من لم يقر بولاية علي عليه السلام بطل عمله، وأصبح كالرماد الذي تحمله الريح فتذروه.

٧- ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ (النبأ:٤٠) أي من شيعة أبي تراب وهي كنية عليّ رضي الله عنه.

من تفسيرات السبيئة:

١- السبيئة من الشيعة، وهو يزعمون أن عليا كرم الله وجهه في السحاب، ويفسرون الرعد بأنه صوت علي رضي الله عنه، والبرق لمعان سوطه، أو تبسّمه، وإذا سمع أحدهم صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين!

٢- ومن مزاعمهم أنهم يعتقدون بأن محمدا ﷺ سيرجع إلى الحياة الدنيا، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص:٨٥) أي سيرجعك إلى الدنيا.

٣- وفي آية الأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ....وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب:٧٢) يزعمون أن الظلوم الجهول هو أبو بكر رضي الله عنه.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ (الحشر:١٦) يفسرون الشيطان بأنه عمر رضي الله عنه.[1]

ومن تفاسير الشيعة كتاب يسمى "مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار" وهو مطبوع، مؤلفه يدعى المولى "الكازلاني" من النجف، وهذا التفسير مشتمل على تأويلات تشبه تأويلات الباطنية، فالأرض يفسِّرها بالدين، وبالأئمة عليهم السلام، وبالشيعة، وبالقلوب التي هي محل العلم وقراره، وبأخبار الأمم الماضية...إلخ.

فيقول في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ (النساء:٩٧) المراد دين الله وكتاب الله. ويقول في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (غافر:٨٢) المراد أو لم ينظروا في القرآن...إلخ.

---

[1] انظر كتاب "الوشيعة في نقد عقائد الشيعة" ص:٦٥. و"الفرق بين الفرق" للبغدادي، ص:٢٣٠.

فأنت ترى أنه قد حمل اللفظ الذي لا يجهله أحد على معان غريبة من غير دليل، وما حمله على ذلك إلا مركب الهوى، والتعصب الأعمى لمذهبه، وذلك لا شك ضلال لا يقل عن ضلال الباطنية ولا البهائية: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (غافر:٣٣).[١]

تفسيرات الباطنية:

الباطنية قوم لا يقبلون الأخذ بظاهر القرآن، وإنما يقولون: إن القرآن له "ظاهر وباطن"، ويعتقدون بأن المراد منه "الباطن" دون الظاهر، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد:١٣).

وهم فِرَق متعددة نذكر أهمها:

١- الإسماعيلية: نسبة إلى "إسماعيل" أكبر أولاد جعفر الصادق، وكانوا يعتقدون فيه الإمامة.

٢- القرامطة: نسبة إلى "قرمط" إحدى قرى واسط، وقد تزعمهم رجل منها اسمه: "حمدان".

٣- السبعية: نسبة إلى "السبعة"؛ لأنهم يعتقدون أن في كل سبعة منهم إماما يقتدى به.

٤- الحُرَمية: نسبة إلى "الحرمة"، وذلك؛ لأن هؤلاء يستجيبون المحرمات والفواحش.[٢]

نماذج عن تفسير الباطنية:

١- قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾ (الانشقاق:١٩) قالوا: إنه إشارة إلى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء عليهم السلام، أي لتسلكن سبيل من قبلكم بالغدر في الأئمة بعد الأنبياء.

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ (يونس:١٥) يفسرونه: ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي بدِّل عليا، ومعلوم أن عليا لم يسبق له ذكر.

---

[١] انظر كتاب "الوشيعة في نقد عقائد الشيعة" ص:٦٥. و"الفرق بين الفرق" للبغدادي، ص:٢٣٠.

[٢] انظر كتاب "الفرق بين الفرق" للبغدادي.

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ (النساء:١٣٧) قالوا: إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، آمنوا بالنبي أولا، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية علي رضي الله عنه، ثم آمنوا بالبيعة لعلي رضي الله عنه، ثم كفروا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ازدادوا كفرا بأخذ البيعة من كل الأمة.[1]

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (البقرة:٦٧) قالوا: المراد بالبقرة "عائشة" رضي الله عنها. والمراد ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ (البقرة:٧٣) : طلحة والزبير رضي الله عنهما.

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ (المائدة:٩٠) قالوا: المراد بهما: أبوبكر وعمر رضي الله عنهما.

- قاتلهم الله أنى يؤفكون -.

وباختصار، فمذهب الباطنية وباءٌ وضلال، وانتقل إليهم من المجوس، وهو يؤوِّلون "الجنابة" بإفشاء السر، ويؤولون "الغسل" بتجديد العهد، و"التيمم" بالأخذ عن المأذون، و"الصوم" بالإمساك عن كشف السر إلى آخر ما لديهم من ضلالات ونجاسات.

وهذه التأويلات الفاسدة من أشد وأنكى ما يصاب به الإسلام والمسلمون؛ لأنها تؤدي إلى نقض بنيان الشريعة حجرا حجرا، وتجعل القرآن ألعوبة بين أيدي هؤلاء الأنعام، ومن فضل الله أن كتبهم لم تظهر إلى الوجود، وأنهم يخفون هذا في نفوسهم، وينفثون به بين كل حين وآخر، وهم إلى الزوال والفناء إن شاء الله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف:٢١).

* * * *

---

[1] الوشيعة في نقد عقائد الشيعة، ص:٦٥.

أشهر كتب التفسير بالرواية والدراية والإشارة

مع تعريف موجز عن أصحابها

أشهر كتب التفسير بالمأثور:

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهرة
١	جامع البيان في تفسير القرآن	محمد بن جرير الطبري	٣١٠هـ	تفسير الطبري
٢	بحر العلوم	نصر بن محمد السمرقندي	٣٧٣هـ	تفسير السمرقندي
٣	الكشف والبيان	أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري	٤٢٧هـ	تفسير الثعلبي
٤	معالم التنزيل	الحسين بن مسعود البغوي	٥١٠هـ	تفسير البغوي
٥	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	عبد الحق بن غالب الأندلسي	٥٤٦هـ	تفسير ابن عطية
٦	تفسير القرآن العظيم	إسماعيل بن عمر الدمشقي	٧٧٤هـ	تفسير ابن كثير
٧	الجواهر الحسان في تفسير القرآن	عبد الرحمن بن محمد الثعالبي	٨٧٦هـ	تفسير الجواهر
٨	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	جلال الدين السيوطي	٩١١هـ	تفسير السيوطي

التعريف بكتب التفسير بالمأثور

١- تفسير ابن جرير:

مؤلفه: هو ابن جرير الطبري، وكنيته "أبو جعفر" ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ، وكتابه من أجل التفاسير بالمأثور، وأصحها وأجمعها لأقوال الصحابة والتابعين ﷺ، ويعتبر المرجع الأول للمفسرين، قال النووي ﷺ:

"كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله".

مزايا هذا التفسير:

١- اعتماده على المأثور من أقوال النبي ﷺ والصحابة والتابعين ﷺ.

٢- عرضه للأسانيد وللأقوال المروية، وترجيحه للروايات.

٣- إحاطته بالناسخ والمنسوخ من الآيات، ومعرفته لطرق الرواية: صحيحها وسقيمها.

٤- ذكره لوجوه الإعراب، واستنباط الأحكام الشرعية من الآيات الكريمة.

وأخيرا فهو كتاب عظيم جليل، حافل بالروائع إلا أنه يذكر أحيانا أخبارا بأسانيد غير صحيحة، ثم لا ينبِّه على عدم صحتها، كما أنه يسوق بعض أخبار هي من "الروايات الإسرائيلية"، وتفسيره مطبوع منتشر في الأقطار، وهو عمدة لأكثر المفسرين.

٢- تفسير السمرقندي:

مؤلفه: نصر بن محمد السمرقندي، وكنيته "أبو الليث" توفي سنة ٣٧٣هـ، وكتابه يسمى: "بحر العلوم"، وهو تفسير بالمأثور، يذكر فيه كثيرا من أقوال الصحابة والتابعين ﷺ، غير أنه لا يذكر الأسانيد، وهو مخطوط في مجلدين، وتوجد نسخة منه في مكتبة الأزهر.

٣- تفسير الثعلبي:

مؤلف هذا التفسير: هو أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المقرئ المفسِّر، كنيته "أبو إسحاق"، وقد توفي سنة ٤٢٧هـ، أما ولادته فليست معروفة على وجه الضبط، وكتابه يسمى "الكشف والبيان عن تفسير القرآن".

يفسِّر القرآن بما ورد عن السلف مع اختصاره للأسانيد اكتفاء بذكرها في مقدمة الكتاب، ويتوسع في الأبحاث النحوية والفقهية، وهو مولع بالقصص والأخبار، ولهذا فإننا نجد في تفسيره "قصصا إسرائيلية" نهاية في الغرابة، بل منها ما هو باطل قطعا.

يقول ابن تيمية عنه: "الثعلبي في نفسه فيه خير ودين، ولكنه حاطب ليل".(١)

وتفسيره مخطوط غير كامل ينتهي إلى آخر سورة الفرقان، وهو موجود بمكتبة الأزهر، وباقي الكتاب مفقود.

٤- تفسير البغوي:

مؤلف هذا التفسير: هو الحسين بن مسعود الفراء البغوي، الفقيه، المفسِّر المحدِّث الملقب بـ"محيي السنة، كنيته "أبو محمد" توفي سنة ٥١٠هـ بعد أن جاوز الثمانين من العمر، وكان إماما جليلا، ورعا زاهدا، جامعا بين العلم والعمل، وقد عدَّه السبكي من أعلام علماء الشافعية.

وقال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: "والبغوي في تفسيره مختصر من الثعلبي، ولكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدعة".(٢)

وقد طبع هذا التفسير مع تفسير ابن كثير. كما طبع مع تفسير الخازن، وتفسيره هذا فيه بعض "القصص الإسرائيلية"، ولكنه في جملته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور.

---

(١) أصول التفسير لابن تيمية ص:١٩.

(٢) المرجع السابق ص:١٩.

٥- تفسير ابن عطية:

مؤلف هذا التفسير: هو عبد الحق بن غالب بن عطية، الأندلسي، المغربي، الغرناطي، وكنيته "أبومحمد"، ولد سنة ٤٨١هـ، وتوفي سنة ٥٤٦هـ.

كان نحويا لغويا، أديبا شاعرا على غاية من الذكاء والدهاء، وقد تولى القضاء بالأندلس في العصور الذهبية للإسلام، وتفسيره يسمى "المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، وقد جمع فيه مؤلفه الأقوال التي ذكرها علماء التفسير بالمأثور، وتحرّى ما هو أقرب إلى الصحة منها.

وابن تيمية في فتاواه يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية، وتفسير الزمخشري، فيقول: "وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلا وبحثا وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير".⁽¹⁾

وهذا الكتاب على شهرته الواسعة، ومزاياه الفريدة، لايزال مخطوطا إلى اليوم، وهو يقع في عشر مجلدات كبار، ولعل الله يوفق من يخرج لنا هذا الكنز الثمين، ويطبعه ليعم به نفعه.

٦- تفسير ابن كثير:

مؤلف هذا التفسير هو الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمرو بن كثير، القرشي الدمشقي، كنيته "أبو الفداء"، ولد سنة ٧٠٠هـ، وتوفي سنة ٧٧٤هـ.

كان ابن كثير رحمه الله جبلا شامخا، وبحرا ذاخرا في جميع العلوم، وخاصة في التاريخ والحديث والتفسير، وكان إماما جليلا، متفنّنا في أسلوب الكتابة والتأليف، قال الذهبي عنه:

"الإمام المفتي، المحدِّث البارع، فقيه متفنِّن، محدث متقن، مفسِّر نقَّال، وله تصانيف مفيدة".

وتفسيره هذا يسمى "تفسير القرآن العظيم" وهو من أشهر ما دوّن في التفسير بالمأثور، ويعتبر الكتاب الثاني بعد كتاب الطبري، اعتنى فيه مؤلفه بالرواية عن مفسِّري السلف، فروى

⁽¹⁾ فتاوى ابن تيمية: ١٤٢/٢.

الأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها، وتكلم عن بعضها بالجرح والتعديل، ورد ما كان منها منكرا، أو غير صحيح، وهكذا يعتبر تفسيره من أحسن ما كتب في التفسير بالمأثور.

وطريقته في التفسير أنه يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، ويأتي لها بشواهد من آيات أخرى، ويقارن بين هذه الآيات حتى يتبين المعنى ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير، الذي يسمونه "تفسير القرآن بالقرآن".

وأنا أنقل طرفا مما جاء في مقدمة تفسيره، يقول – طيَّب الله ثراه – :

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك، فعليك بالسُّنّة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ، فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء:١٠٥).

وقال ﷺ: "ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه".[١]

ومما يمتاز به "ابن كثير" أنه ينبّه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات ويحذّر منها، وعلى الجملة: فعلم ابن كثير يتجلى بوضوح لمن يقرأ تفسيره وتاريخه، وهما من خير ما ألّف، ومن أفضل ما كتب، وتفسيره هذا من أصح التفاسير بالمأثور، وإن لم يكن أصحها جميعا.

٧ – تفسير الجواهر:

مؤلف هذا التفسير: هو الإمام الجليل عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجزائري المغربي، المتوفى سنة ٨٧٦هـ، وتفسيره هذا من التفسير بالمأثور، نقل فيه أقوال السلف الصالح، وميّز بين الصحيح والضعيف، وتفسيره هذا مطبوع.

---

[١] تفسير ابن كثير" ١/٣.

٨- تفسير السيوطي:

مؤلف هذا التفسير: الإمام الحجة الثقة جلال الدين السيوطي، صاحب المؤلفات الشهيرة، المولود سنة ٨٤٩هـ، المتوفى سنة ٩١١هـ، وتفسيره هو المسمى "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" قال في مقدمته: إنه لخَّصه من كتاب ترجمان القرآن، وهو التفسير المسند إلى رسول الله ﷺ، وهو مطبوع بمصر، وقد ذكر في كتابه الإتقان: أنه شرع في تفسير جامع لما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة، والأقوال المعقولة، والاستنباط، والإشارات، والأعاريب، واللغات، ونكت البلاغة، ومحاسن البديع، وسماه "مجمع البحرين، ومطلع البدرين"، وهو غير هذا التفسير المسمى بالدر، وقد أحصيت مؤلفاته، فبلغت قريبا من خمس مائة، رحمه الله تعالى على ما قدم في سبيل خدمة العلم والدين.

* * * *

مشاهير كتب التفسير بالدراية

أشهر كتب التفسير بالدراية "بالرأي"

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهرة
١	مفاتيح الغيب	محمد بن عمر بن الحسين الرازي	٦٠٦هـ	تفسير الرازي
٢	أنوار التنزيل وأسرار التأويل	عبد الله بن عمر البيضاوي	٦٨٥هـ	تفسير البيضاوي
٣	لباب التأويل في معاني التنزيل	عبد الله بن محمد المعروف بالخازن	٧٤١هـ	تفسير الخازن
٤	مدارك التنزيل وحقائق التأويل	عبد الله بن أحمد النسفي	٧٠١هـ	تفسير النسفي
٥	غرائب القرآن ورغائب الفرقان	نظام الدين الحسن محمد النيسابوري	٧٢٨هـ	تفسير النيسابوري
٦	إرشاد العقل السليم	محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوي	٩٥٢هـ	تفسير أبي السعود
٧	البحر المحيط	محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي	٧٤٥هـ	تفسير أبي حيان
٨	روح المعاني	شهاب الدين محمد الآلوسي البغدادي	١٢٧٠هـ	تفسير الآلوسي
٩	السراج المنير	محمد الشربيني الخطيب	٩٧٧هـ	تفسير الخطيب
١٠	تفسير الجلالين	أ- جلال الدين المحلي	٨٦٤هـ	تفسير الجلالين
		ب- جلال الدين السيوطي	٩١١هـ	

التعريف بكتب التفسير بالرأي

١- تفسير الفخر الرازي:

مؤلف هذا التفسير: هو العلامة الشيخ محمد بن عمر الرازي، المتوفى سنة ٦٠٦هـ، وتفسيره يسمى "مفاتيح الغيب"، وقد سلك في تفسيره مسلك الحكماء الإلهيين، فصاغ أدلته في مباحث الإلهيات، ورد على المعتزلة والفرق الضالة بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، وتعرض لشبهات المنكرين والجاحدين بالنقض والتفنيد، وتفسيره من أوسع التفاسير في موضوع علم الكلام، كما أنه في العلوم الطبيعية والكونية إمام جليل، فقد تكلم عن الأفلاك والأبراج، وعن السماء والأرض، والحيوان والنبات، وفي أجزاء الإنسان بشكل واسع، وغرضه نصرة الحق، وإقامة البراهين على وجود الله عزّ وعلا، والرد على أهل الزيغ والضلال.

٢- تفسير البيضاوي:

مؤلف هذا التفسير: هو العالم الجليل الشيخ عبد الله البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥هـ، وتفسيره يسمى "أنوار التنزيل"، وهو كتاب جليل دقيق، جامع بين الرواية والدراية، وهو يقرر الأدلة على مذهب أهل السنة، وهو حجة ثبت، وقد التزم أن يختم كل سورة بما روي في فضلها من الأحاديث غير أنه لم يتحر الصحيح، وله حواش عديدة أشهرها حاشية الشهاب الخفاجي، وحاشية سعدي آفندي.

٣- تفسير الخازن:

مؤلف هذا التفسير: الإمام عبد الله بن محمد، المشهور بالخازن، المتوفى سنة ٧٤١هـ، وتفسيره يسمى "لباب التأويل في معاني التنزيل"، وهو تفسير مشهور - يعني بالمأثور - بيد أنه لا يذكر السند، وعبارته سهلة لا تعقيد فيها ولا غموض، وله ولوع بالتوسع في الروايات والقصص،

وقد يذكر في تفسيره بعض الروايات الإسرائيلية؛ لينبّه على ما فيها من باطل، فيسوق القصة الطويلة، ثم يحكم عليها بالضعف أو الكذب، ولكنه في بعض الأحيان يسكت عنها، حتى يظن القارئ أن هذه الرواية صحيحة، وبالجملة فتفسيره حسن رائع، لولا كثرة ما فيه من قصص وروايات لا يحسن ذكرها؛ لكونها ضعيفة أو مكذوبة.

٤- تفسير النسفي:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ العالم الزاهد عبد الله بن أحمد النسفي، المتوفى سنة ٧٠١هـ، وتفسيره يسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، وهو تفسير جليل، متداول مشهور، سهل ودقيق، يعتبر بالنسبة لبقية التفاسير بالرأي أوجز تفسير وأوسطه، قال فيه صاحب كشف الظنون: "هو كتاب وسط في التأويلات، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات، مرشح لأقاويل أهل السنة والجماعة، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل".

٥- تفسير النيسابوري:

مؤلف هذا التفسير: هو الشيخ نظام الدين الحسن محمد النيسابوري، المتوفى ٧٢٨هـ، وتفسيره يسمى "غرائب القرآن ورغائب الفرقان"، ويمتاز هذا التفسير بسهولة عبارته وبتحقيق ألفاظه مع خلوه من الحشو والتعقيد، وقد عُني بأمرين يلتزمهما: الكلام على القراءات، والكلام على التفسير الإشاري، وهو مطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير، وهو مختصر لتفسير الفخر الرازي مع تهذيب كبير.

٦- تفسير أبي السعود:

مؤلف هذا التفسير العالم اللغوي، الحجة الضليع، القاضي محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوي، المشهور بأبي السعود، المتوفى سنة ٩٥٢هـ، وتفسيره هذا يعتبر من أحسن التفاسير وأجمعها؛

لأنه غاية في حسن الصوغ، وجمال التعبير، كشف فيه عن أسرار البلاغة القرآنية، والحكم الربانية، يستهويك حسن تعبيره، ويروقك سلامة تفكيره، ويروعك ما أخذ نفسه به من تجلية بلاغة القرآن، والعناية في بيان إعجازه مع سلامة في الذوق، ومحافظة على عقائد أهل السنّة، وبعد عن الحشو والتطويل، وتفسيره دقيق يحتاج لفهمه الخاصة من أهل العلم.

٧- تفسير أبي حيان:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، المتوفى سنة ٧٤٥هـ، وتفسيره يسمى "البحر المحيط"، وهو في ثماني مجلدات ضخمة، وقد جمع المؤلف فيه فنون العلوم من نحو، وصرف، وبلاغة، وأحكام فقهية إلى غير ما هنالك، ويعتبر هذا التفسير مرجعا هاما من مراجع التفسير، وعبارته سهلة، ليس فيها تعقيد أو غموض، وسماه "البحر المحيط"؛ لكثرة ما فيه من علوم متنوعة تتعلق بمادة التفسير.

٨- تفسير الآلوسي:

مؤلف هذا التفسير هو الإمام العالم الجهبذ شهاب الدين السيد محمود الآلوسي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ مفتي بغداد، حجة الأدباء، وقدوة العلماء، ومرجع أهل الفضل والعرفان، كان رحمه الله على جانب عظيم من الفهم والعلم وسعة الاطلاع، وكتابه المسمى "روح المعاني" جامع لآراء السلف رواية ودراية، مشتمل على أقوال أهل العلم، جامع لخلاصة ما سبقه من التفاسير، وهو شديد النقد للروايات الإسرائيلية، يعتني بالتفسير الإشاري، وبوجوه البلاغة والبيان، ويعتبر تفسيره من خير المراجع في علم التفسير بالرواية والدراية والإشارة.

أشهر تفاسير آيات الأحكام

الرقم	اسم الكتاب والمذهب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهرة
١	أحكام القرآن (حنفي)	أحمد بن علي الرازي الجصاص	٣٧٠هـ	تفسير الجصاص
٢	أحكام القرآن (شافعي)	علي بن محمد الطبري الكيا الهراسي	٥٠٤هـ	تفسير الكيا الهراسي
٣	الإكليل في استنباط التنزيل (شافعي)	جلال الدين السيوطي	٩١١هـ	تفسير السيوطي
٤	أحكام القرآن (مالكي)	محمد بن عبد الله الأندلسي	٥٤٣هـ	تفسير ابن العربي
٥	الجامع لأحكام القرآن (مالكي)	محمد بن أحمد بن فرح القرطبي	٦٧١هـ	تفسير القرطبي
٦	كنز العرفان (شيعي)	مقداد بن عبد الله السيوري	التاسع الهجري	تفسير السيوري
٧	الثمرات اليانعة (زيدي)	يوسف بن أحمد الثلائي	٨٣٢هـ	تفسير الزيدي

أشهر كتب التفسير الإشاري

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الشهرة
١	تفسير القرآن الكريم	سهل بن عبد الله التستري	تفسير التستري
٢	حقائق التفسير	أبو عبد الرحمن السلمي	تفسير السلمي
٣	الكشف والبيان	أحمد بن إبراهيم النيسابوري	تفسير النيسابوري
٤	تفسير ابن عربي	محيي الدين بن عربي	تفسير ابن عربي
٥	روح المعاني	شهاب الدين محمد الآلوسي	تفسير الآلوسي

أشهر تفاسير المعتزلة والشيعة

الرقم	اسم الكتاب والمذهب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهرة
١	تنزيه القرآن عن المطاعن (معتزلي)	عبد الجبار بن أحمد الهمداني	٤١٥هـ	تفسير الهمداني
٢	أمالي الشريف المرتضى (معتزلي)	علي بن أحمد الحسين	٤٣٦هـ	تفسير المرتضى
٣	الكشاف (معتزلي)	محمود بن عمر الزمخشري	٥٣٨هـ	تفسير الزمخشري
٤	مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار (شيعي)	عبد اللطيف الكازراني	غير معروف	تفسير المشكاة
٥	تفسير العسكري (شيعي)	الحسن بن علي الهادي	٢٦٠هـ	تفسير العسكري
٦	مجمع البيان (شيعي)	الفضل بن الحسن الطبرسي	٥٣٨هـ	تفسير الطبرسي
٧	الصافي في تفسير القرآن (شيعي)	محمد بن الشاه مرتضى الكاشي	١٠٩٠هـ	تفسير الكاشي
٨	تفسير القرآن (شيعي)	عبد الله بن محمد العلوي	١٢٤٢هـ	تفسير العلوي
٩	بيان السعادة (شيعي)	سلطان محمد بن حيدر الخراساني	١٣١٥هـ	تفسير الخراساني

أشهر كتب التفسير في العصر الحديث

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الشهرة
١	تفسير القرآن الكريم	محمد رشيد رضا	تفسير المنار
٢	تفسير المراغي	أحمد مصطفى المراغي	تفسير المراغي
٣	محاسن التأويل	جمال الدين القاسمي	تفسير القاسمي
٤	في ظلال القرآن	الشهيد سيد قطب	تفسير الظلال
٥	التفسير الواضح	محمد محمود الحجازي	التفسير الواضح
٦	تفسير الجواهر	طنطاوي جوهري	تفسير الجوهري
٧	تيسير التفسير	الشيخ عبد الجليل عيسى	تفسير عيسى
٨	المصحف المفسر	محمد فريد وجدي	تفسير وجدي
٩	الهداية والعرفان	أبو زيد الدمنهوري	تفسير الدمنهوري
١٠	صفوة البيان	حسنين مخلوف	تفسير مخلوف
١١	فتح البيان	صديق حسن خان	تفسير حسن خان

وهناك تفاسير أخرى غير هذه التفاسير السابقة، لم نذكرها خشية التطويل، والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الثامن:

المفسرون من التابعين

إذا ذكر المفسرون من التابعين، فإنهم يعتبرون كثرة كثيرة، ويعدون في العدد أكثر من الصحابة، ذلك؛ لأن الذين اشتهروا بالتفسير من الصحابة لايزيدون على عشرة – كما ذكر ذلك السيوطي في كتابه الإتقان –، وقد تقدم معنا أسماؤهم، وذكرنا نبذة عن ترجمة مشاهيرهم.

أما التابعون فقد كثر فيهم المفسرون، واشتهروا شهرة واسعة، ونبغ فيهم رجال أفذاذ، اعتنوا عناية كبيرة بتفسير كتاب الله تعالى، وعنهم نقل المفسرون معظم الآراء، وقد انقسموا إلى طبقات ثلاث:

١- طبقة أهل مكة.

٢- طبقة أهل المدينة.

٣- طبقة أهل العراق.

١- أما الطبقة الأولى:

وهي طبقة أهل مكة، فقد أخذوا علومهم من شيخ المفسرين وترجمان القرآن سيدنا عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما، وقد نقل السيوطي عن ابن تيمية رحمه الله أنه قال: "أعلم الناس بالتفسير أهل مكة؛ لأنهم أصحاب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما".

وقد اشتهر فيهم عدد كبير، وظهر فيهم رجال أفذاذ، على رأسهم: "مجاهد، وعطاء، وعكرمة، وطاوس، وسعيد بن جبير"، وسنعرض بترجمة موجزة لحياة هؤلاء العلماء الأعلام:

مجاهد بن جبر:

أما مجاهد: فقد ولد سنة ٢١، وتوفي سنة ١٠٣ هجرية، وهو: مجاهد بن جبر، وكنيته أبو الحجاج

المكي، كان من أشهر العلماء في التفسير، قال عنه الذهبي: "شيخ القراء والمفسرين بلا مِراء، أخذ التفسير عن ابن عباس".(١)

وكان من أخص تلامذته، ومن أوثق من روى عنه، ولهذا يعتمد البخاري كثيرا على تفسيره، كما يعتمد كثير من المفسرين على روايته، تنقَّلَ في الأسفار، واستقر في الكوفة، وكان لايسمع بأعجوبة إلا ذهب، فنظر إليها.

تلقى مجاهد تفسير كتاب الله عن شيخه الجليل ابن عباس، وقرأه عليه قراءة تفهم وتدبر ووقوف عند كل آية من آيات القرآن، يسأله عن معناها، ويستفسره عن أسرارها، روى الفضيل بن ميمون عن مجاهد أنه قال:

"عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية منه أسأله عنها: فيم أنزلت؟ وكيف أنزلت؟".

وهذا العرض من مجاهد رحمه الله على شيخه الجليل، إنما كان طلبا لتفسيره، ومعرفة أسراره ودقائقه، وتفهم حِكمه وأحكامه، ولهذا قال الإمام النووي رحمه الله:

"إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به" أي يكفي هذا التفسير، ويغني عن غيره من التفاسير إذا كان راويه الإمام مجاهد.

عطاء بن أبي رباح:

وأما عطاء بن أبي رباح: فقد ولد سنة ٢٧ هجرية، وتوفي سنة ١١٤ هجرية، نشأ بمكة، وكان مفتي أهلها ومحدثهم، وهو تابعي من أجِلّاء الفقهاء، وكان ثبتا ثقة في الرواية عن ابن عباس.(٢) قال عنه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان:"ما لقيت أحدا أفضل من عطاء بن أبي رباح". وقال قتادة: أعلم التابعين أربعة عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وسعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير...إلخ.

---

(١) انظر الأعلام: ١٦١/٦.

(٢) الأعلام للزركلي: ٢٩/٥.

توفي رحمه الله بمكة، ودفن فيها عن سبع وثمانين (٨٧) سنة.

عكرمة مولى ابن عباس:

وأما عكرمة: فقد ولد سنة ٢٥ هجرية، وتوفي سنة ١٠٥ هجرية.

قال عنه الإمام الشافعي رحمه الله: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة، وهو مولى ابن عباس رضي الله عنهما، تلقى علمه على ابن عباس، وأخذ عنه القرآن والسنة، وكان رحمه الله يقول: لقد فسرت ما بين اللوحين،[1] وكل شيء أحدثكم في القرآن، فهو عن ابن عباس.

جاء في تعريفه في كتاب "الأعلام" ما يلي:

"عكرمة بن عبد الله البربري المدني أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، طاف البلدان، وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعيا، وخرج إلى بلاد المغرب، فأخذ عن أهلها، ثم عاد إلى المدينة المنورة، فطلبه أميرها، فتغيب عنه حتى مات، وكانت وفاته بالمدينة هو، والشاعر المشهور "كثير عزّة" في يوم واحد فقيل: مات أعلم الناس، وأشعر الناس".[2]

طاوس بن كيسان اليماني:

وأما طاوس: فقد ولد سنة ٣٣ هجرية، وتوفي سنة ١٠٦ هجرية، وهو "طاوس بن كيسان اليماني" اشتهر بتفسير كتاب الله تعالى، وكان آية في الحفظ والنبوغ والذكاء، وآية في الورع والتقشف والصلاح، أدرك من الصحابة نحو خمسين صحابيا، وتلقى العلم عنه خلق كثير، وقد كان عابدا زاهدا، ورد أنه حج بيت الله الحرام أربعين مرة، وكان مستجاب الدعوة، قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما: إني لأظن طاوسا من أهل الجنة.

---

[1] يريد باللوحين: ما بين دفتي المصحف.

[2] الأعلام للزركلي: ٥/٤٣.

جاء في تعريفه في كتاب "الأعلام" ما يلي:

"طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني أبو عبد الرحمن، من أكابر التابعين تفقها في الدين، ورواية للحديث، وتقشفا في العيش، وجرأةً على وعظ الخلفاء والملوك، أصله من الفرس، ومولده ومنشؤه باليمن، توفي حاجا بالمزدلفة، وكان "هشام بن عبدالملك" حاجا تلك السنة، فصلى عليه، وكان يأبى القرب من الملوك والأمراء، قال ابن عيينة: متجنبو السلطان ثلاثة: أبوذر، وطاوس، والثوري".⁽¹⁾

سعيد بن جبير:

وأما سعيد بن جبير: فقد ولد سنة ٤٥ هجرية، وتوفي سنة ٩٤ هجرية، وهو من أكابر التابعين علما وورعا، وقد اشتهر بتفسير كتاب الله عز وجل، وكان طودا شامخا، وعَلَما لامعا، تناقل علمه الرجال، وسرت بذكره الركبان.

وقد قال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك. وقال قتادة: كان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير.⁽²⁾

كان آية في الحفظ، يحفظ ما يسمع، وقد شهد له ابن عباس بالحفظ حتى قال له: "انظر كيف تحدث عني، فإنك قد حفظت عني حديثا كثيرا". وكان ابن عباس بعد أن فقد بصره إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه قال: تسألوني، وفيكم ابن أمّ دهماء، يعني – سعيد بن جبير – رحمه الله.

وقد كان عابدا زاهدا، يختم القرآن في كل ليلتين، وقد قرأ ذات مرة القرآن كله في ركعة واحدة في الكعبة.

وجاء في ترجمته في "الأعلام" ما يلي: "سعيد بن جبير، الأسدي الكوفي، أبو عبدالله، تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم،

---

(1) الأعلام: ٣٢٢/٣.

(2) الإتقان ص:١٨٩. (3) أي: أبى الحجاج أن يتركه يصلي متجهاً إلى قبلة المسلمين.

ولما خرج عبدالرحمن بن الأشعث على عبدالملك بن مروان، كان سعيد بن جبير معه، فلما قتل عبدالرحمن ذهب سعيد إلى مكة، فقبض عليه واليها "خالد القسري"، وأرسله إلى الحجاج فقتله، وكان الحجاج يخاطبه "بشقيّ بن كسير" بدل سعيد بن جبير. قال أحمد بن حنبل: "قتل الحجاج سعيدا، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه".

وروي أن الحجاج لما أراد قتله أمر الجلاد أن ينطلق به، فيضرب عنقه، فقال له سعيد: دعني أصلي ركعتين، قال الحجاج ماذا يقول؟ قال: يريد الصلاة، فأبى إلا أن يصلي إلى المشرق(٢) – قبلة النصارى – ثم أمر أن تضرب عنقه، ووجهه موجّه إلى غير القبلة، فأداروا وجهه، فقال سعيد عندئذ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة:١١٥)، ثم ضربت عنقه وهو يردد: لآ إله إلا الله، محمد رسول الله، وذهبت نفسه البريئة الطاهرة إلى ربها تشكو إليه ظلم الحجاج، وجاد بأنفاسه في سبيل عقيدته ودينه، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته(١).

٢- طبقة أهل المدينة:

وقد اشتهر منهم عدد، على رأسهم: "محمد بن كعب القرظي، وأبو العالية الرياحي، وزيد بن أسلم" رحمهم الله.

ونحن نتحدث عن هؤلاء الثلاثة الذين اشتهروا بالتفسير من أهل المدينة المنورة، والذين كان لهم أثر عظيم في نقل علوم الصحابة، سواءً كان ذلك في الفقه، أو الحديث، أو التفسير، وإن كان هناك غيرهم ممن اشتهروا من التابعين، ولكن شهرة هؤلاء كانت أوسع، وأثرهم كان أظهر.

محمد بن كعب القرظي:

جاء في "تهذيب التهذيب" للعسقلاني في ترجمته ما يلي:

"هو محمد بن كعب القرظي، أبو حمزة المدني من حلفاء الأوس، سكن الكوفة، ثم المدينة،

---

(١) انظر طبقات الكبرى لابن سعد: ٦/٢٥٧.

روى عن جمع غفير من الصحابة وخاصة عن عليّ بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم.

قال ابن سعد: كان ثقة عالما كثير الحديث، ورعا صالحا.

قال عون بن عبدالله: ما رأيت أحدا أعلم بتأويل القرآن منه.

ويذكر البخاري في سبب تسميته بـ"القُرظي" أن أباه كان ممن لم ينبت يوم قريظة فترك، وذلك أن النبي ﷺ قتل الرجال من بني قريظة حينما خانوا العهود، وغدروا بالرسول، فأمر بقتل مقاتلتهم، وترك الأطفال والصبيان والنساء.

وقد كان من أفاضل أهل المدينة علما وفقها، وكان يحدث في المسجد، فسقط عليه السقف وعلى أصحابه، فمات تحت الهدم، وكان ذلك سنة (١١٧) هجرية رحمه الله.(١)

أبو العالية الرياحي:

اسمه رفيع بن مهران، وكنيته أبو العالية وهو مولى امرأة من بني رياح، وهو تابعي ثقة من أهل البصرة، اشتهر بالفقه والتفسير، رأى أبا بكر، وقرأ القرآن على أبيّ بن كعب وغيره، وسمع من عمر، وابن مسعود، وعليّ، وعائشة، وغيرهم رضي الله عنهم.

روي عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين. وكان منذ حداثة سنِّه راغبا في العلم، مكبّا على طلبه، حتى نبغ فيه وفاق الأقران، وخاصة في التفسير، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه على سريره وقريش أسفل منه، ويقول: هكذا العلم يزيد الشريف شرفا، ويجلس المملوك على الأسرَّة، مات سنة ٩٣ هجرية عن عمر يناهز الثمانين، رحمه الله.

زيد بن أسلم:

هو زيد بن أسلم العدوي العمري، يكنى: أبا أسامة، وهو فقيه محدث من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبدالعزيز أيام خلافته، واستقدمه الوليد بن يزيد في جماعة من فقهاء المدينة إلى دمشق

---

(١) انظر "تهذيب التهذيب" : ٥/٤٢١.

مستفتيا في أمر، وكان ثقة كثير الحديث، له حلقة في المسجد النبويّ، وله كتاب في "التفسير" رواه عنه ولده "عبد الرحمن"، وقد كان رجلا مهيبا.

قال ابن عجلان: "ما هبتُ أحدا قط هيبتي لزيد بن أسلم".

وحدّث ذات يوم بحديث و لم يسنده، فسأله رجل يا أبا أسامة! عمن هذا؟ فقال: يا ابن أخي! ما كنا نجالس السفهاء.

وكان له حلقة كبيرة في المسجد النبوي الشريف، وكان علي بن الحسين يجلس إليه، فيستمع له ويترك مجالس قومه، فقيل له في ذلك: تترك مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب - حيث كان مولى لعمر -، فقال عليّ: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه، توفي رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ١٣٦ هجرية.(١)

٣- طبقة أهل العراق:

وقد اشتهر منهم عدد، وعلى رأسهم: الحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وقتادة بن دعامة، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، ومرّة الهمداني.

ونحن نتحدث عن ترجمة هؤلاء الأعلام بشيء من الإيجاز، فنقول: ومن الله نستمد العون.

الحسن البصري:

هو الحسن بن يسار البصري، إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمانه، يكنى: أبا سعيد، وهو أحد العلماء، والفصحاء، والشجعان، والنُسَّاك، ولد بالمدينة المنورة، وشبّ في كنف(٢) علي ابن أبي طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، فسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب، فكان يدخل على الولاة، فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة لائم، رأى مائة وعشرين صحابيا، وكان من أفصح أهل البصرة، وأعبدهم، وأفقههم.

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي: ١/٦٢.

(٢) الكنف: جانب الشيء، الظل، جمع: أكناف، يقال: جعله في كنفه: أي أحاط به.

قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء، وأقربهم هديا من الصحابة، وكان في غاية من الفصاحة، تتصبّب الحكمة من فيه.

قال أيوب: ما رأت عيناي رجلا قط كان أفقه من الحسن البصري، كان يعي(١) الحكمة، وينطق بها، وكان إذا وعظ، أبكى الحاضرين كأنما كان في الآخرة، ثم جاء منها، فهو يخبر عما رأى وعاين، ولهذا فقد اشتهر بالوعظ، وكان رقيق القلب، فصيح اللسان.

وكان يحدث بالأحاديث النبوية، فإذا حدث عن علي بن أبي طالب لم يذكره خشية من بطش الحجّاج، قال يونس بن عبيد: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد! إنك تقول قال رسول الله وإنك لم تدركه؟ قال يا ابن أخي! لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، ولولا منزلتك مني ما أخبرتك، إني في زمان كما ترى – وكان في عمل الحجاج - كل شيء سمعتني أقول: قال رسول الله فهو عن علي بن أبي طالب غير أني في زمان لا أستطيع أن أذكر عليا. (٢)

ولما ولّي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إني قد ابتليت بهذا الأمر، فانظر لي أعوانا يعينوني عليه، فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا، فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة، فلا يريدونك، فاستعن بالله على أمرك. (٣)

توفي بالبصرة سنة ١١٠ هجرية، ودفن فيها رحمه الله رحمة واسعة.

مسروق بن الأجدع:

مسروق بن الأجدع الهمداني، كوفي، تابعي ثقة، من أصحاب ابن مسعود الذين نقلوا لنا هدي الرسول ﷺ. وهو عابد فقيه يكنى: أبا عائشة، وقد اشتهر بالتفسير، ورواية الحديث، كان أبوه أفرس فارس باليمن، وكان خاله عمر بن معديكرب.

---

(١) يعي: وعياً، وعى الشيء: جمعه في الوعاء، ووعى الحديث: حفظه وفهمه، ووعى الأمر: أدركه على حقيقته.

(٢) تهذيب التهذيب: ٢/٢٦٣.

(٣) الأعلام: ٢/٢٤٢.

وقد تولي القضاء، فلم يكن يأخذ على القضاء رزقا، وكان قانعا زاهدا، راضيا بما قسم الله مع أنه كان صاحب عيال، جاءته امرأته يوما فقالت: يا أبا عائشة! إنه ما أصبح اليوم لعيالك رزق، فتبسم، ثم قال: والله ليأتينهم الله برزق، فرزقه الله رزقا واسعا. روي عنه أنه لقي عمر ابن الخطاب ﷺ، فسأله ما اسمك؟ قال: مسروق بن الأجدع، فقال له عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن، فكان بعد ذلك يقول: أنا مسروق بن عبد الرحمن.

قال علي بن المديني - شيخ البخاري -: ما أُقدِّم على مسروق من أصحاب عبدالله بن مسعود أحدا، صلى خلف أبي بكر، ولقي عمر وعثمان ﷺ.

شهد القادسية مع إخوته الثلاثة، فقتلوا يومئذ بالقادسية، وجرح مسروق، فشلّت يده، وله طريقة لطيفة في النصح والوعظ، خرج يوما ومعه بعض تلامذته، فارتقى بهم على كناسة في الكوفة، فقال: ألا أريكم الدنيا؟ هذه هي الدنيا: أكلوها فأفنوها، لبسوها فأبلوها، ركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم، واستحلوا فيها محارمهم، وقطعوا فيها أرحامهم.(١)

سئل يوما عن بيت شعر، فقال: أكره أن أرى في صحيفتي شعرا.

قتادة بن دعامة:

وأما قتادة: فهو أبو الخطاب السدوسي البصري، ولد في البصرة سنة ٦١، وتوفي سنة ١١٧ هجرية، وعمره ٥٥ سنة. روى عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيب، وجمع من الصحابة ﷺ، وكان قوي الحفظ، شديد الذكاء، يروى عنه أنه قال: "ما قلت لمحدث قط: أعِدْ عليّ، وما سمعت أذناي شيئا إلا وعاه قلبي". ويروى أنه دخل على سعيد بن المسيب، فجعل يسأله أياما، وأكثر عليه من السؤال، فقال له سعيد: أكل ما سألتني عنه تحفظه؟ قال: نعم، فتعجب منه، فقال له قتادة: سألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، حتى أورد

---

(١) تهذيب التهذيب: ٨٢/٦.

عليه جميع ما سمعه منه. فقال له سعيد: ما كنت أظن أن الله خلق مثلك، وقال عنه مرة: ما أتاني عراقي أحسن من قتادة.

وقرئت عليه مرة صحيفة جابر، فحفظها.(١)

وقد كان ضريرا فاقد البصر، حيث ولد وهو أعمى، ولكنه كان آية في الحفظ والنبوغ والذكاء.

وكان أحمد بن حنبل يطنب في ذكره والثناء عليه، وينشر من علمه وفقهه.

وكان إماما في التفسير والفقه، ولكنه أخذ عليه أنه كان يأخذ عن كل أحد، حتى قال فيه الشعبي: قتادة حاطب ليل.(٢)

توفي رحمه الله بالبصرة، ودفن بها، ولما مات بكى عليه أهل البصرة.

عطاء الخراساني:

قال الحافظ الأصبهاني: كان مولده سنة ٥٠، ووفاته سنة ١٣٥ هجرية. وهو عطاء بن أبي مسلم الخراساني، يكنى: أبا عثمان، وكان ثقة صدوقا، عابدا زاهدا، كثير العبادة والتبتل، كان يحيي الليل تهجدا وصلاةً. روى عبدالرحمن بن يزيد أنه كان يحيي الليل صلاة، فإذا ذهب من الليل ثلثه، أو نصفه، نادانا يا فلان، ويا فلان! قوموا، فتوضئوا وصلوا، فإن قيام الليل وصيام النهار أيسر من شراب الصديد.(٣)

وكان يحب نشر العلم، فإذا لم يجد أحدا من تلامذته يحدثه ذهب إلى المساكين، فحدثهم خوفا من الوعيد لكاتم العلم.

وقد اشتهر بالفقه والحديث والتفسير، وكان على غاية من الزهد والورع رحمه الله.(٤)

---

(١) تهذيب التهذيب: ٣٥١/٨.

(٢) نفس المرجع، والجزء، والصفحة.

(٣) انظر "تهذيب الكمال" للمزي: ٤٦٩/٤.

(٤) انظر "تهذيب التهذيب: ٨٨/١٠.

مُرَّة الهمذاني:

هو مرة بن شراحيل الهمذاني، أدرك عددا من الصحابة غير قليل، ويكنى: أبا إسماعيل، وهو المعروف مرَّة الطيب، ومرَّة الخير، لقب بذلك لعبادته، كان عابدا ورعا، وزاهدا صالحا.

قال العجلي: كان يصلي في اليوم والليلة خمسمائة ركعة، وهو تابعي ثقة، توفي سنة (٧٦) هجرية، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين، استمدوا علومهم، وقبسوا معارفهم من الصحابة الكرام ﷺ. وعنهم أخذ تابعوا التابعين، ومن بعدهم من العلماء العاملين، وهكذا حفظ دين الله، وكتابه، وشريعته، وعلومه ومعارفه، سليمة كاملة عن طريق التلقي والتلقين، جيلا عن جيل، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

ولقد صدق الرسول الكريم فيما نبّأ عنه، وأخبر حيث قال: "يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين".

وهكذا حفظ الله كتابه بحفظ هؤلاء الرجال الأعلام، والثقات الأفاضل، الذين كرّسوا جهودهم في خدمة العلم والدين، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأسكنهم فسيح جناته... آمين.

تنبيه:

يلاحظ على تفسير التابعين ﷺ أنه قد دخلت إلى أقوالهم بعض الروايات الإسرائيلية، واختلط الصحيح بالعليل، ونقل على لسانهم بعض الروايات التي لم تثبت، فينبغي التنبه عند نقل أقوالهم إلى الصحيح منها، وأن يرجع الإنسان إلى المراجع الموثوقة من كتب التفسير، كتفسير ابن جرير وغيره من التفاسير الموثوقة.

قال السيوطي في كتابه "الإتقان" بعد أن ذكر أشهر المفسرين من التابعين ما نصه:

"فهؤلاء قدماء المفسرين، وغالب أقوالهم تلقوها من الصحابة، ثم بعد هذه الطبقة ألّفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين، كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون وآخرين، ثم جاء بعدهم ابن جرير الطبري، وكتابه أجل التفاسير وأعظمها".(١)

* * * *

---

(١) الإتقان للسيوطي: ٢/١٩٠.

الفصل التاسع:

إعجاز القرآن

العناية بدراسة القرآن العظيم:

لم يحدث في تاريخ البشرية أن أمة من الأمم اعتنت بكتابها السماوي كما اعتنت هذه الأمة المحمدية، ولم نسمع عن كتاب مقدس نال من الحفظ والرعاية، والإجلال والإكبار، كما ناله هذا الكتاب المجيد، معجزة "محمد" الخالدة، وحجته البالغة، ودعوته إلى الناس أجمعين.

ولا عجب أن ينال القرآن العظيم هذه المنزلة الرفيعة، ويحتل من نفوس المسلمين تلك المكانة الجليلة، ذلك؛ لأن الأحداث التي رافقت نزول هذا الكتاب المقدس، تجعله يتبوأ مكان الصدارة بين جميع الكتب السماوية، ويفوق كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من هداية وإصلاح، وتربية وتعليم، وسمو وتشريع، ولقد أحسن وأبدع من قال:

اللهُ أَكبر إن دين محمد وكتابه أهدى وأقومُ قِيلا
لا تَذكُروا الكتبَ السَّوالف عنده طلعَ الصَّباحُ فأَطفِىءِ الْقِنْديلا

القرآن معجزة "محمد" الخالدة:

وقد جرت حكمة الله الأزلية أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، والدلائل الواضحات، والحجج والبراهين الدامغة، التي تدل على صدقهم، وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير، وقد خص الله تبارك وتعالى نبينا ﷺ بالمعجزة العظمى "القرآن الكريم." ذلك النور الرباني، والوحي السماوي، الذي ألقاه على قلب نبيه قرآنا عربيا غير ذي عوج، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، والذي أحيا به أجيالا من العدم، كانت في عداد الموتى، فأحياها الله بنور هذا القرآن،

وهداها أقومَ طريق وانتشلها(١) من الحضيض،(٢) فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وصدق الله حيث يقول: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:١٢٢).

لقد أحيا القرآن أمما، وأوجد مجتمعا، وألَّف جيلا لم يعرف له التاريخ مثيلا، فأخرج من العرب الذين كانوا رعاة الإبل والغنم، سادة الشعوب والأمم، فملَّكهم الدنيا، حتى حكموا أقاصي المعمورة، وكل ذلك بفضل هذا القرآن، معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك يقول أمير الشعراء:

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنتَ أحييتَ أجْيالا منَ العدم

ولئن كانت معجزة الأنبياء السابقين معجزات "حسِّية" تتناسب مع العصر والزمان الذي بعثوا فيه، كمعجزة موسى عليه السلام حيث كانت "اليد، والعصا"؛ لأنه بُعث في زمنٍ كثُر فيه السحرةُ، واشتهر فيه السحر، وكذلك معجزة عيسى عليه السلام حيث كانت بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه(٣) والأبرص، والإخبار عن بعض المغيبات؛ لأنه بُعث في عصر كثر فيه الطب والحكمة، وظهر فيه الأطباء البارعون، فأتاهم عيسى بن مريم بما أدهشهم وأعجزهم من شفاء المرضى، وإحياء الموتى، وإبراء العمى، البكم، الصم.

أقول: إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات مادية حسية، فإن معجزة "محمد بن عبد الله" معجزة روحية عقلية، وقد خصّه الله بالقرآن، معجزة العقل الباقي على الزمان؛ ليراها ذوو القلوب والبصائر، فيستنيروا بضيائها، وينتفعوا بهديها في المستقبل والحاضر، فقد ورد عن سيد المرسلين ﷺ أنه قال:

---

(١) انتشل الشيء: نشله ونشل الشيء نشلا: أسرع نزعه، يقال نشل اللحم من القدر ونشل الغريق من الماء.

(٢) الحضيض: ما سفل من الأرض.

(٣) الأكمه: الأعمى، قال تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:٤٩)

"ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُه وحيا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعا" (رواه البخاري).

أجل... هذا الوحي السماوي الذي ألقاه الله على قلب نبيه الأمين؛ ليكون ضياءً ورحمة للعالمين، هو معجزة الإسلام الخالدة، وحجته الباقية، تقوم على فم الدنيا شاهدة بصدق الرسول، ناطقة بعظمة الإسلام، وخلود هذا الدين، بينما ذهبت المعجزات الحسية، ومضت مع أحداثها الكونية، وتلاشت من الوجود بعد وفاة الأنبياء الكرام، الذين أتوا بها، فلم يعد لها وجود وبيان إلا في هذا القرآن الذي أخبر عنها، فكان له الفضل الأعظم عليها، سابقا ولاحقا، ولله در القائل حيث يقول:

جاء النبيون بالآيات فانصرمتْ وجئتنا بكتابٍ غير منصرمِ
آياتُه كُلَّما طال المدى جُددٌ يُزيِّنهن جمالُ العِتق والقِدَمِ

الآيات: المراد بها المعجزات، جمع آية بمعنى المعجزة. انصرمت: أي ذهبت بذهابهم.

قال العلامة الزّرقاني: (١)

"وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود، فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول ﷺ، بل هو قائم على فم الدنيا يحاجُّ كل مكذب، ويتحدّى كل منكر، ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام، وسعادة بني الإنسان، ومن هذا يظهر الفرق جليا بين معجزات نبي الإسلام ﷺ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتم التسليم، فمعجزات محمد ﷺ في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي متمتعة بالبقاء إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أما معجزات سائر الرسل: فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم وماتت بموتهم، ومن يطلبها الآن لا يجدها إلا في خبر كان، ولا يسلم شاهد له بها إلا هذا القرآن.

---

(١) انظر "مناهل العرفان": ٢/٢٣٢.

وتلك نعمة يمنُّها القرآن على سائر الكتب والرسل، وما صح من الأديان كافة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنا عَلَيْهِ...﴾ (المائدة:٤٨).

وقال عز اسمه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...﴾ (البقرة:٢٨٥).

لهذا لم تكن معجزة سيد الأنبياء معجزة حسية، تقرع الحس وتستولي على النفوس، فلم تكن عصا تنقلب حية كعصا موسى عليه السلام، أو نارا تصير بردا، وسلاما كالنار التي ألقي فيها الخليل عليه السلام، أو ناقة تخرج من صخر أصم ولها رغاء كناقة صالح عليه السلام، أو مريضا يشفى، أو أعمى يبرأ كما فعل عيسى عليه السلام، وإنما كانت معجزة "عقلية خالدة"؛ لأنها خاتمة الرسالات، فهي خالدة خلود الدهر، باقية بقاء الإنسان.

ويقول الشيخ محمد البنَّا ما نصه:

"وإذا كان قد جرت خوارق للعادات على يد النبي ﷺ غير القرآن، كما ورد في صحاح السُّنَّة، فإن النبي ﷺ لم يتحدَّ بها بل كان التحدي بالقرآن وحده، ولهذا كان القرآن معجزة الرسول التي تؤيد رسالته، وتشرق في قلوب الذين اتبعوه من المؤمنين.

ورسالة النبي ﷺ شاملة خالدة؛ لأنها خاتمة الرسالات، فكانت الحكمة أن تتفق معجزته مع نوع رسالته، إذ كل نبي سبق، كان يأتي برسالة لقوم بأعيانهم، وتنتهي بما يأتي بعدها من الرسالات، ولم يكن من الممكن أن تكون معجزة خاتم الأنبياء أمرا حسيا يراه جماعة حين يقع، فإذا لحق الرسول بالرفيق الأعلى، انقضى ذلك الأمر المحسوس، ولا يراه أحد من بعده؛ لأن الأمور المحسوسة لا تتفق مع نوع هذه الرسالة، ولا مع خلودها، لقد كان القرآن معجزة للناس جميعا، ولذلك جاء من نوع آخر غير نوع المعجزات السابقة، وقد جاء للدنيا بعد أن اكتملت المدارك البشرية، وارتقى الفكر الإنساني؛ لأن رسالة سيدنا محمد ﷺ وافقت البشرية بعد أن أدركت رشدها، وتكامل النمو العقلي في مجموعها، فكانت معجزته تدرك "بالعقل"، ولا تحتاج

إلى أي نوع من الحس، فهي معان خالدة، يدرك سموها الإنسان في كل الأجيال، وهي معجزة يخاطب بها الناس جميعا".(١)

معنى إعجاز القرآن:

الإعجاز في اللغة العربية هو: نسبة العجز إلى الغير، قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي...﴾ (المائدة:٣١)، وتسمى المعجزة "معجزة"؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها؛ لأنها أمر خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة.

وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر - متفرقين ومجتمعين - عن الإتيان بمثله، وليس المقصود من "إعجاز القرآن" هو تعجيز البشر لذات التعجيز، أي تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن، فإن ذلك معلوم لدى كل عاقل، وإنما الغرض: إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق، وهكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام التي يعجز البشر عنها.

ليس الغرض منها إلا إظهار صدقهم، وإثبات أن ما جاءوا به إنما هو بوحي من الحكيم العليم، وتنزيل من الإله القادر، وأنهم إنما يبلغون رسالات الله، وليس لهم إلا الإخبار والتبليغ.

فالمعجزات إذا براهين من الله سبحانه إلى عباده، بصدق رسله وأنبيائه، فكأنَّ الله تعالى - بواسطة هذه المعجزة - يقول: صدق عبدي فيما بلَّغ عني، وأنا أرسلته؛ ليبلغكم ذلك، والدليل على صدقه أن أجري على يديه خوارق العادات، مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتي بمثله، ومما ليس بمقدور أحد من الناس أن يجاريه في مثل هذا الأمر العجيب ذلك هو معنى الإعجاز، وذلك هو مفهوم المعجزة.

متى يتحقق الإعجاز؟

والإعجاز لا يتحقق إلا إذا توافرت أمور نجملها فيما يلي:

---

(١) الكتاب والسنة ص:٢٢.

أ- الأول: التحدي، أي: طلب المباراة والمعارضة.
ب- الثاني: أن يكون الدافع إلى ردِّ التحدِّي قائما.
ج- أن يكون المانع منتفيا.

ولنوضح هذه الأمور الثلاثة ببعض الأمثلة، فنقول:

هذا القرآن العظيم "معجزة محمد الكبرى" الذي تحدَّى الله به العربَ خاصة، والناس أجمعين، يأتي به نبيٌّ أمي، لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يدرس في مدرسة، أو يتلقَّ علومه في جامعة من الجامعات الكبيرة، ولم يثبت عنه أنه كان قد تلقى شيئا من العلوم والمعارف عن بعض النابغين من العلماء، أو المبرزين في صنوف الثقافة والعرفان، ولم يتصل بأحد من علماء أهل الكتاب "اليهود والنصارى" حتى يطلع على أنباء الأمم السابقين، وأخبار الأنبياء المتقدمين.

جاءهم بهذا الكتاب المجيد متحديا لهم - وهم أئمة الفصاحة، وفرسان البلاغة - وطلب منهم معارضة القرآن بعبارات قوية، ولهجات واخزة، تستفزّ العزيمة، وتدفع إلى المباراة، وتنزَّل معهم من التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وهم في كل هذا واجمون،[1] لا ينبسون ببنت شفة، وهم رغم هذا التحدي ينتقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة.

أفليس في هذا أكبر شاهد وبرهان على إعجاز القرآن؟

أسلوب القرآن في التحدّي:

جاء التحدي في القرآن الكريم بصور متعددة، وأساليب متنوعة، تهز كيان العرب هزا، وتجرُّهم إلى الميدان جرا، وفي أسلوب ممتع أخّاذ، يملك عليهم شعورهم، ويستحوذ على أفئدتهم بسحره وجماله ورونقه.

---

[1] واجمون: من وجم يجم وجما ووجوما: سكت على غيظ وسكت عن الكلام لشدة الحزن، وسكت فزعا.

لقد تحداهم على أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا وولوا الأدبار مع أنهم فرسان الفصاحة، وملوك البيان، فتنزّل معهم إلى "عشر سور" من مثله مفتريات، فانقطعوا واندحروا، وعجزوا عن الإتيان بتلك السور العشر.

فتنزّل معهم إلى ما هو أسهل وأيسر إلى الإتيان بمثل "سورة واحدة" فقط من سور القرآن، فلم يتقدم واحد منهم إلى حَلْبة الميدان...، وبذلك سجل عليهم القرآن العجز والهزيمة، وثبتت معجزة محمد النبي الأمي على أن هذا القرآن تنزيل من رب العالمين: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيل رَبِّ الْعَالَمِينَ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٥) وصدق الله حيث يقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:١٠٢).

أنواع التحدي:

والتحدي الذي جاء في القرآن الكريم كان على نوعين:

١- التحدي العام.

٢- التحدي الخاص.

أما الأول: فقد ورد لجميع الخلائق بما فيهم الفلاسفة، والعباقرة، والعلماء، والحكماء، وجاء لجميع البشر بدون استثناء عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، مؤمنهم وكافرهم.

استمع إلى هذا التحدي الصارخ في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء:٨٨).

وأما الثاني: "التحدي الخاص": فقد جاء للعرب خاصة، وعلى الأخص منهم لكفار قريش، وقد ورد هذا التحدي على نوعين أيضا:

١- التحدي الكلي: وهو التحدي بجميع القرآن في أحكامه وروعته وبلاغته وبيانه.

٢- التحدي الجزئي: وهو التحدي بمثل سورة من سور القرآن الكريم ولو من أقصر سوره كسورة الكوثر.

فالأول مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور:٣٤) والمراد بالحديث في هذه الآيات الكريمة "قرآن مثله" أي: يأتوا بقرآن يشبه هذا الذي جاءهم به محمد رسول الله، والذي زعموا أنه افتراه، وتقوّله على الله، كما ورد التحدي بالقرآن كله في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (القصص:٤٩).

فقد طلب منهم أن يأتوا بكتاب كامل غير هذا الكتاب الكريم، فإذا لم يستجيبوا لدعوته، فإنما هم أناس متعنتون، يعبدون الهوى، ويسيرون على غير هدى الله.

أما التحدي الجزئي: فقد ورد في سورة "هود" في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (هود:١٣،١٤).

كما ورد التحدي بأقل من ذلك، تحداهم بسورة واحدة من أقصر سور القرآن، وجاء هذا التحدي مقرونا بالتعجيز الفاضح، في الحاضر والمستقبل، مسجلا عليهم ذلك العجز بما يثير حميتهم، ويغريهم بتكلف المعارضة، لا سيما بعد قولتهم القبيحة ودعواهم الكاذبة حين قالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال:٣١).

جاءهم التحدي في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٣،٢٤).

قال العلامة القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن": قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني فيما مضى، ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي: تطيقوا ذلك فيما يأتي، وفيه إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون

عجزهم بعد ذلك أبدع، وهو من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها. (١)

أما الأمر الثاني وهو: "قيام المقتضي للمباراة والمعارضة" عند العرب، فقد كان حاصلا وقائما، فإن النبي ﷺ جاءهم بدين جديد، أبطل فيه دينهم، وسفَّه أحلامهم، وسَخِر من آلهتهم وأصنامهم، وجعلهم أضحوكة بين الناس، دعاهم إلى اتباعه، وإلى اعتقاد أنه رسول من عند الله، وقال لهم: إن الحجة على صدقي هذا الكتاب الذي أوحاه الله إليّ، فإذا لم تصدّقوني في ذلك، فأنا أتحداكم أن تأتوا بمثله، أو بمثل سورة منه، وإذا عجزتم، فذلك آية صدق وبرهان رسالتي إليكم.

فما كان أحوجهم إلى أن يأتوا بمثله خاصة بعد هذا التحدي السافر، والتهكم الشديد اللاذع بعقولهم، وآلهتهم، وأصنامهم.

أقول: ما كان أحوجهم إلى دحض ما ادَّعاه، وإبطال أنه من عند الله، وذلك بسلوك أيسر الطرق،وولوج أقرب الأبواب لـــرد دعواه، وذلك عن طريق ما برعوا فيه، واشتهروا بجودته وإتقانه، ألا وهو "البيان" في النطق و"الفصاحة" في اللسان، وكان ذلك أنفع لهم من الحرب التي ذاقوا ويلاتها، وخاضوا غمارها حتى شربوا كؤوس الأسى، وتجرعوا الموت الذؤام، ولكنهم اختاروا طعن الرماح ووقع النبال، و لم يدخلوا في المباراة.

يقول القاضي الباقلاني رحمه الله:

كيف يجوز أن يقدروا على معارضة القرآن السهلة عليهم، وذلك يُدحض حجته، ويفسد دلالته، ويبطل أمره، فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التي ليس عليها مزيد في المنابذة والمعاداة، ويتركون الأمر الخفيف؟ هذا ما يمتنع وقوعه في العادات، ولا يجوز اتفاقه من العقلاء.

وأما الأمر الثالث: وهو "انتفاء ما يمنعهم من معارضة القرآن"؛ فلأنه نزل بلسان عربي – هو لسانهم –، وألفاظه من أحرف العرب، وعباراته على أسلوب العرب، وهم أهل البيان واللسن، وأمراء الفصاحة والبلاغة، وقد دلت أشعارهم، ونطقت خطبُهم وحِكمُهم على براعتهم في ذلك،

---

(١) تفسير القرطبي" ٣٢/١.

وعلى أنهم حازوا قصب السبق في مضمار الفصاحة والبيان، كما أثبتت الأيام أنهم من ذوي القدرة والاستطاعة على أن يبرزوا في الشعر والنثر، وأن يحلّقوا في سماء الفصحى، ألا وهي لغتهم الأساسية "لغة القرآن" التي بها يتفاخرون ويتبارون، ويعقدون المنتديات، ويجتمعون في المحافل؛ ليستمعوا أروع القصائد والخطب، ويصوغوا أجمل الألفاظ والعبارات، ولم يكونوا في عجز من قدرتهم، أو نقصٍ في عقولهم، بل كانت قدرتهم موفورة، واستطاعتهم مشهورة، وهم أولوا النهى والألباب، ومع ذلك فالقرآن دعاهم أن يستعينوا بمن شاؤوا، ويكمّلوا ما ينقصهم بأهل الأديان، ويستحضروا عُدَّتهم بالاتصال بالسحرة والكهّان، وبمن شاؤوا من طوائف الإنس والجان، فليس أمامهم ثَمَّة مانع، والنبي ﷺ لم يضرب لهم أجلا للمعارضة، ولم يحدد زمنا للمناقضة، حتى يقول قائل منهم: إن الزمن لا يكفي، وليس فيه سعة، كما أن القرآن لم ينزل جملة واحدة حتى يحتجوا بذلك، بل نزل مفرقا في ثلاث وعشرين سنة، بين كل مجموعة وأخرى زمنٌ متسع للمعارضة وللإتيان بمثله، لو كان في مقدورهم ذلك، فلما عجزوا دل على أنه تنزيل رب العباد، وكفى بذلك دليلا وبرهانا.

مثل على إعجاز القرآن:

وقد ذكر المرحوم "الشيخ الزّرقاني" كلاما نفيسا في كتابه "مناهل العرفان" ننقله بنصه، قال رحمه الله في بحث تعريف "المعجزة" ما يلي:

"المعجزة: هي أمر خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقه الله تعالى على يد مدعي النبوة عند دعواه إياها، شاهدا على صدقه، فإذا قام إنسان ما، وادّعى أنه مبعوث من الله تعالى إلى خلقه، ورسولُه إلى عباده، وقال: إن آية صدقي فيما أدّعيه أن يغير الله الذي أرسلني عادة من عاداته على يدي، وأن يخرج الآن عن سنة من سننه العامة في وجوده، ثم قال: وسيأتيكم الله بهذا الأمر العجاب من باب ترون أنكم فيه نابغون وعليه قادرون، وإني أتحداكم

- زرافات ووحدانا - أن تأتوا بمثل هذه الآية، وأمامكم الباب مفتوحا كما تعتقدون، وفيكم النبوغ موفورا كما تدَّعون، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدي.

قال ذلك بلغة الواثق، وتحدانا هذا التحدي الظاهر في وقت يثور فيه على عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا، ويسفّه فيه أحلامنا وأحلام أمثالنا من آبائنا، ونحن أحرص ما نكون على تعجيزه وتبهيته والغلبة عليه والظفر به دفاعا عن كرامتنا، وانتصارا لأعزِّ شيء لدينا، ثم لم يلبث أن قام وقمنا، وأجمع أمره وأجمعنا، وإذا نحن جميعا بعد محاولات ومصاولات: لم نستطع أن نأتي بمثل ما أتى به فضلا عن أعظم منه، مع أننا أمة وهو فرد، ومع أنه قد دخل إلينا من أيسر الطرق في نظرنا، ومن أشهر فن في زماننا، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظرته، وأنصفنا كل إنصاف من نفسه.

هل يشك كل ذي مسكة من عقل في أن هذا الإنسان المتفوق الممتاز صادق في رسالته، ومحقٌّ في دعوته، خصوصا إذا عرفنا فوق ذلك كله: أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة، ومكارم الأخلاق من لدن صباه وطفولته إلى يوم مبعثه ورسالته.

لو أنه جاء بالمعجزة من باب لانعرفه، لقلنا: رجل حَذَق فنا من الفنون التي لا علم لنا بها، أو تعلَّم صناعة من الصناعات التي لم نحط بخبرها.

أمّا وقد جاءنا من الناحية التي نشهد لأنفسنا فيها بالتفوق والسبق، فلا يسعنا إلا الإذعان له، والإيمان بما جاء به ما دمنا منصفين...

ولنضرب لك مثلا: جاء موسى ﵇ بمعجزته عصا من الخشب، لا روح فيها ولا حركة، ولا لين ولا رطوبة، ثم ألقاها باسم الذي أرسله، فإذا هي حية تسعى، بينما الأمة التي تحداها بذلك كانت قد تفوقت في السحر وحَذَقتِه، وضربت فيه بأوفر سهم، وأوفى نصيب، خصوصا أنهم أمة وهو فرد وهم نابغون في السحر، وهو مع نشأته فيهم لم يعرف يوما من الأيام بمعالجة السّحر، فهل يبقى للشك ظل بعد أن ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون؟

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ، وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ،

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الأعراف:١١٨-١٢٢).

الحق أبلج، ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم؛ لأنهم أعرف بالسحر ومقدماته ونتائجه، وقد رأوا رأي العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع السحر الذي عرفوه.

قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله، قُلهُ في عيسى بن مريم عليه السلام، وإبرائه الأكمه والأبرص، وإحيائه الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير بإذن الله أمام قوم نبغوا في الطب أيما نبوغ، ومهروا فيه أيما مهارة.

وقل مثل ذلك وأكثر من ذلك في خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، وما جاء به من آيات بينات، ومعجزات واضحات، وحسبك القرآن وحده برهانا ساطعا، بل براهين ساطعات، كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة، تقوم في فم الدنيا إلى يوم الساعة، تتحدى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان، والعلوم والمعارف، وأنباء الغيب وشواهد الحق"(١)

شروط المعجزة الإلهية:

وللمعجزة شرائط خمسة نبه عليها العلماء، فإن اختل منها شرط لاتكون معجزة:

١- الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين.

٢- الشرط الثاني: أن تخرق العادة، وتكون مخالفة للسنن الكونيّة.

٣- الشرط الثالث: أن يستشهد بها مدَّعي الرسالة على صدق دعواه.

٤- الشرط الرابع: أن تقع على وفق دعوى النبي المتحدي بتلك المعجزة.

٥- الشرط الخامس: ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة على وجه المعارضة.

فهذه الشروط الخمسة إن تحققت كان ذلك الأمر الخارق للعادة معجزة دالة على نبوة صاحب الدعوى، التي ظهرت المعجزة على يده، وإن لم تتحقق خرجت عن كونها معجزة، ولم تدل

---

(١) مناهل العرفان: ١/٦٨.

على صدق صاحب الدعوى.

أما الشرط الأول: فإنه لو أتى آت - في زمن يصح فيه مجيء الرسل - وادعى الرسالة، وجعل معجزته أن يقوم ويقعد، ويأكل ويشرب، ويتحرك من مكان إلى مكان، لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات مما لا يقدر عليها البشر: كفلق البحر، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى...إلخ.

وأما الثاني: وهو خرق العادة، فلو قال المدعي للنبوة: معجزتي أن تطلع الشمس من المشرق وتغرب من المغرب، وأن يأتي النهار بعد الليل، لم يكن فيما ادعاه معجزة؛ لأن هذه الأمور، وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، لكنها لم تُفْعل من أجله، وقد كانت من قَبله، فليس فيها دلالة على صدقه.

وأما الثالث: وهو أن يستشهد بها مدعي النبوة، وتحصل عند طلبها تصديقا لدعواه، فلو ادعى إنسان أن معجزته أن ينقلب الجماد إلى حيوان أو إنسان و لم ينقلب لا يدل على صدق دعواه.

وأما الرابع: وهو أن تقع المعجزة على وفق الدعوى لا على خلافه؛ لأنها حينئذاك تكون تكذيبا له. روي أن مسيلمة الكذاب — لعنه الله — طلب منه أصحابه أن يتفل في بئر؛ ليكثر فيها الماء، فغارت البئر، فدل على كذبه.(١)

خامسا: ألّا تُعارَض المعجزة، فإن عورضت بطل كونها معجزة، و لم تدل على صدق صاحبها، فلو استطاع أحد فلق البحر أو شق القمر لم تعد معجزة، ولهذا قال تعالى في خطاب المشركين: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور:٣٤).

بم كان إعجاز القرآن؟

القرآن العظيم كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي روعته وبيانه، وفي علومه وحكمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحُجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة، ولقد جاء العلماء في كشف أسرار البيان عن وجوه إعجاز القرآن بعد أن ثبتت عندهم بالوجدان والبرهان، وقد أجمع أهل

---

(١) انظر "تفسير القرطبي" ١/ ٧٠.

العربية قاطبة، وأهل اللسن منهم والبيان على أن القرآن "معجز بذاته" أي: أن إعجازه إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد، الذي لا يشابهه فيه أسلوب، لا من نثر، ولا من شعر، ومسحته اللفظية الخلّابة، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، وبراعته الفنية.

مذهب أهل الصرفة:

وقد ذهب بعض المعتزلة منهم "أبو إسحاق النظام" إلى أن إعجاز القرآن إنما كان بـــ "الصرفة" بمعنى: أن الله عزوجل صرف البشر عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، وخلق فيهم العجز عن محاكاته في أنفسهم وألسنتهم، ولولا أن الله صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا بمثله، ولعمري هذا قول من لم يتذوق طعم العربية، ولا عرف أسرارها، بل قول من لم يدرك من العلوم إلا قشورا لا تُسمن، ولاتغني من جوع، هو قول ساقط مرذول، مخالف لما أجمع عليه العلماء والفصحاء والبلغاء في القديم والحديث.

يقول حجة الأدب العربي مصطفى الرافعي ﵀: "وقد اختلفت آراء المعتزلة في وجه إعجاز القرآن، فذهب شيطان المتكلمين "أبو إسحاق النظام" إلى أن الإعجاز كان بالصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقا للعادة.

وقال "المرتضى" من الشيعة: بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة؛ ليجيئوا بمثل القرآن...

فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب، ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في زمنهم... وهذا رأيٌ بيِّن الخلط كما ترى. ثم قال: وعلى الجملة: فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (المدثر:٢٤)، وهذا زعم رده الله على أهله، وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضربا من العَمَى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ (الطور:١٥)".(١)

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص:١٦٤.

وعلى ذلك المذهب الفاسد يمكن أن يقال: إن المعجز ليس هو القرآن الكريم على حد زعمهم، إنما هو "الصرفة" التي بسببها عجزوا عن الإتيان بمثله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾(١) وقد أسّف "ابن حزم" الظاهري حين سلك ذلك المسلك الملتوي، وذهب إلى ما ذهب إليه سلفه "النظام" من سُخْف الكلام، ولكن بأسلوب رشيق رقيق حيث يقول في كتابه: "الفصل" في سبب الإعجاز ما نصه:

"لم يقل أحد: إن كلام الله تعالى غير معجز، ولكن لمّا قاله الله تعالى وجعله كلاما له، أصاره معجزا، ومنع من مماثلته، وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره".

فأنت ترى صاحب هذا الرأي يجعل القرآن الكريم معجزا بمنع الله عزوجل من مماثلته، وهذا عين رأي النظام الذي يقول بالصرفة، وهو رأي باطل - كما أسلفنا -، والقوم محجوبون عن ضياء الحق الساطع، وما أجمل قول القائل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رَمدٍ ويُنكر الفمُ طَعْمَ الماء من سَقم

آراء العلماء في الإعجاز:

بعد أن أجمع العلماء على إعجاز القرآن بذاته، وعلى عدم استطاعة أحد من البشر الإتيان بمثله، اختلفت آراؤهم في وجه إعجاز القرآن على آراء:

أ- يرى بعضهم: أن وجه الإعجاز في القرآن، وهو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم في مطالعه، ومقاطعه، وفواصله.

ب- ويرى البعض الآخر: أن وجه الإعجار إنما يكمن في فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وجودة سبكه؛ إذ هو في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها.

---

(١) (التوبة:١٢٧).

ج- ويرى آخرون: أن الإعجاز في خلوّه من التناقض، واشتماله على المعاني الدقيقة، والأمور الغيبيّة التي ليست بمقدور البشر، ولا في استطاعتهم معرفتها، كما أنه سليم من التناقض والتعارض.

د- وهناك من يقول: إن وجه الإعجاز هو ما تضمَّنه القرآن من المزايا الظاهرة، والبدائع الرائقة في الفواتح، والمقاصد، والخواتيم في كل سورة، والمعوَّل عليه عندهم ما يلي:

١- الفصاحة في الألفاظ.

٢- البلاغة في المعاني.

٣- صورة النظم البديع.

وهذه الأقوال كلها لا تخرج عن دائرة واحدة هي "الدائرة البيانية" التي امتاز بها القرآن، وهي وإن كانت حقا إلا أن إعجاز القرآن ليس في "الفصاحة والبلاغة" فحسب: بل هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن، وقد أجاد العلامة "القرطبي" ﵀ في تفسيره القيم المسمى: "الجامع لأحكام القرآن"، فعدَّ عشرة وجوه لإعجاز القرآن، كما ذكر فضيلة الشيخ "الزّرقاني" في كتابه "مناهل العرفان" أربعة عشر وجها من وجوه الإعجاز، منها ما ذكره القرطبي، ومنها ما لم يذكره، ونحن نذكر هذه الوجوه بالإيجاز، ثم نعقبها بشيء من التفصيل، فنقول - ومن الله نستمد العون -

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

أولا: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.

ثانيا: الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.

ثالثا: الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها.

رابعا: التشريع الدقيق الكامل، الذي يبزّ كل تشريع وضعي.

خامسا: الإخبار عن المغيبات التي لا تُعرف إلا بالوحي.

سادسا: عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها.

سابعا: الوفاء بكل ما أخبر عنه القرآن الكريم من وعد ووعيد.

ثامنا: العلوم والمعارف التي اشتمل عليها: العلوم الشرعية والعلوم الكونية.

تاسعا: وفاؤه بحاجات البشر.

عاشرا: تأثيره في قلوب الأتباع والأعداء.

١ - النظم البديع:

أما الوجه الأول من وجوه إعجازه فهو "النظم البديع" المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، فالقرآن الكريم لا يشبهه شيء في نظمه، لا من شعر ولا من نثر، وذلك بشهادة أساطين البلاغة، وأئمة الفصاحة والبيان: "الوليد بن المغيرة"، و"عتبة بن ربيعة" وغيرهما من فصحاء العرب ومشاهيرهم.

أمثلة من التاريخ:

١- يروى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: ياعم! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا؛ ليعطوه لك، فإنك أتيت محمدا لتَعرضَ لما قبله - أي: لتنال من فضله -.

فقال الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالا.

فقال له أبوجهل: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه، ولا بقصيده، ولابأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو، وما يعلى عليه.

فقال أبو جهل اللعين: والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال:

﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، فنزل فيه قول الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودا﴾ (المدثر:١١،١٢) إلى قوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ۝ ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ۝ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ۝ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(المدثر:١٨-٢٥).(١)

٢- ويروى أن الوليد لما سمع القرآن من النبي ﷺ تأثَّر تأثرا بالغا، فجاء لقومه "بني مخزوم"، وقال لهم: والله لقد سمعت من محمد آنفا - أي: سابقا - كلاما ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة...الخ.

فقالت قريش: صبأ والله الوليد؛ لتصبأنَّ قريش كلها.

فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد إليه حزينا وكلمه بما أغاظه، فقام الوليد، وقام معه أبو جهل، فلما أتى قومه قال: تزعمون أن محمدا مجنون، فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهّن؟ وتزعمون أنه شاعر؟ فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط؟ وتزعمون أنه كذاب، فهل جرَّبتم عليه شيئا من الكذب؟

فقالوا في كل ذلك: اللهم لا... ثم قالوا: فما هو؟ ففكر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله، وبين الوالد وولده، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره - أي: ينقله - عن أهل بابل، فارتجَّ النادي فرحا، وتفرقوا مُعْجبين بقوله، ومتعجبين منه، فنزلت الآيات الكريمة. (٢)

٣- وفي صحيح مسلم أن "أنيسا الغفاري" أخا أبي ذر، قال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، ساحر، كاهن. وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر- يريد أنواعه وبحوره -، فلم يلتئم على لسان أحد منهم أنه شعر، والله إنهم لكاذبون، وإنه لصادق. (٣)

---

(١) رواه البيهقي في "دلائل النبوة".

(٢) الكشاف: ٤/٦٤٩.

(٣) تفسير القرطبي: ١/٧٣.

٤- وأخرج ابن إسحاق في السيرة: "أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد،فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر، فكلمه، ثم أتانا ببيانٍ عن أمره؟ فقال "عتبة بن ربيعة" - وكان من أشراف القوم وسادهم -: أنا أقوم إليه وأكلمه، فأتاه، فقال: يا محمد! أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا وتضلّلنا؟ فإن كنت تريد الرياسة: عقدنا لك اللواء؛ فكنت رئيسنا، وإن كنت تريد النساء؛ زوجناك ما تشاء منهن، تختار من أي بنات قريش ما شئت، وإن كنت تريد المال؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنانا، وأكثر مالا.

والنبي ﷺ ساكتٌ لا يجيبه، فلما فرغ من عرضه، قال له النبي ﷺ: "أفرغت؟ قال: نعم. قال: فاسمع إذا، فتلا عليه سورة فصلت ﴿حمٓ، تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنا عَرَبِيّا لِّقَوْمٍ يَّعْلَمُونَ، بَشِيرا وَنَذِيرا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ (فصلت:١-٤) حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ (فصلت:١٣) فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم أن يكف!

ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ، فانطلقوا إليه، وقالوا: يا عتبة! ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب، ثم قال لهم: والله لقد كلمته، فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بكهانة، وقد ناشدته بالرحم أن يكف خشية أن ينزل بكم العذاب، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب"(١).

قال العلامة القرطبي رحمه الله:

"وإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع ما سمع مثل القرآن قط، كان في هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه".

---

(١) انظر الكشاف: ١٩٢/٤.

٢ - الأسلوب العجيب:

أما الوجه الثاني لإعجاز القرآن فهو "الأسلوب العجيب" المخالف لجميع الأساليب العربية، فقد جاء القرآن بذلك الأسلوب الرائع الخلاب، الذي بهر العرب برونقه وجماله، وعذوبته وحلاوته، وقد كانت فيه من الخصائص العليا ما لم توجد في كلام بشر على نحو ما وجدت في القرآن خصوصا، وأن النبي ﷺ تحدى به، فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان، وذلك في عصر كانت القُوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية.

يقول الزّرقاني رحمه الله:

وها قد مرت على اللغة العربية - من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا - أدوار مختلفة بين علو ونزول، واتساع وانقباض، وحركة وجمود، وحضارة وبداوة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه، يطلُّ على الجميع من سمائه، وهو يشعّ نورا وهدايةً، ويفيض عذوبة وجلالة، ويسيل رقة وجزالة، ويرف جدَّة وطلاوة، ولايزال كما كان غضّا طريا، يحمل راية الإعجاز، ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة، قائلا في صراحة الحق وقوته، وسلطان الإعجاز وصولته: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا﴾ (الإسراء:٨٨).[1]

خصائص أسلوب القرآن:

وللقرآن الكريم في أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية: خصائص عديدة نجملها فيما يلي:

الخاصة الأولى: مسحة القرآن اللفظية، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.

الخاصة الثانية: إرضاؤه العامة والخاصة بمعنى أن الجميع يحسّون بجلاله، ويشعرون بروعته.

---

[1] مناهل العرفان: ٢/٢٢٩.

الخاصة الثالثة: إرضاؤه العقل والعاطفة معا، فالقرآن يخاطب العقل والقلب، ويجمع الحق والجمال معا.

الخاصة الرابعة: جودة سبك القرآن وإحكام سرده، فكأنه سبيكة واحدة، تلعب بالعقول وتأخذ بالأبصار.

الخاصة الخامسة: براعته في تصريف القول، وتفنُّنه في ضروب الكلام بمعنى: أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ شتى، وطرق مختلفة، وكلها رائعة فائقة.

الخاصة السادسة: جمع القرآن بين الإجمال والبيان.

الخاصة السابعة: الوفاء بالمعنى مع القصد في اللفظ. (١)

أمثلة توضيحية على خصائص أسلوب القرآن:

يقول حجة الأدب العربي الفقيد "مصطفى الرافعي" رحمه الله:

١- "لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية، تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مُسَاوقةً لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة، فلا تُعذَّب ولا تُساغ، فإذا هي استعملت في القرآن رأيتَ لها شأنا عجيبا.... من ذلك لفظة "النُّذُر" جمع نذير، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا، فضلا عن جسأة(٢) هذا الحرف، ونبوِّه(٣) في اللسان، ولكنه جاء في القرآن على العكس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (القمر:٣٦)، فتأمل هذا التركيب، وأنعم، ثم أنعم على تأمله، وتذوَّق مواقع الحروف، وأجرِ حركاتها في حس السمع، وتأمل مواضع القلقلة في دال "لقد"، وفي الطاء من "بطشتنا"،

---

(١) انظر "مناهل العرفان" للزرقاني.

(٢) خشونة.

(٣) نبا الشيء نبوا ونبوة: لم يستوف مكانه المناسب له. ويقال: كلمة نابية: قلقة غير منسجمة.

وفي الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى الواو من قوله: ﴿بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا﴾ مع الفصل بالمد؛ ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها، كما تكون الأحماض في الأطعمة".

٢- "وفي القرآن لفظة غريبة، هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها فيه، وهي كلمة ﴿ضِيزَى﴾ من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إذا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم:٢٢)، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن ومن أعجبه، ولو أردت اللغة العربية ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها، وهي سورة "النجم" مفصّلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب؛ إذ وردت في ذكر الأصنام، وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع وأدهم للبنات، فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى، تِلْكَ إذا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم:٢١،٢٢)، فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى، والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل".

٣- ومما لا يسعه طوق إنسان في نظم الكلام البليغ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر، وكأنها صبت على الجملة صبا، أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعا، ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها، كلفظة "اللُّب"، فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:٢١)، وقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩) نحوهما، ولم ترد فيه مفردة، بل جاء مكانها "القلب" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق:٣٧)، وذلك؛ لأن لفظ "الباء" شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم تحسن اللفظة أسقطها من نظمه بتّة.

وكذلك لفظ "الكوب" استعملت فيه مجموعة، ولم يأت بها مفردة؛ لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق - من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب - كلفظ "أكواب" الذي هو الجمع، و"الأرجاء" لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعا، وترك المفرد وهو الرجا، أي: الجانب لعلة لفظه، وأنه لا يسوغ في نظمه كما ترى.

وعكس ذلك لفظة "الأرض"، فإنها لم ترد فيه إلا مفردة، ولم يرد في القرآن صيغة الجمع "أرضين"، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة، وذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ (الطلاق:١٢)، ولم يقل: "وسبع أرضين" لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ، ويختل بها النظم اختلالا..

٤- وتأمل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ (الأعراف:١٣٣)، فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللفظ: "الطوفان، والجراد، والدم" وأثقلها "القُمَّل، والضفادع"، فقدّم "الطوفان" لمكان المدَّين فيها، حتى يأنس اللسان بخفتها، ثم "الجراد"، وفيها كذلك مد، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئا بأخفهما في اللسان، وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغُنة فيه، ثم جيء بلفظة "الدم" آخرا، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفا؛ ليسرع اللسان فيها، ويستقيم لها ذوق النظم، ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب.

وأنت فمهما قلَّبتَ هذه الأسماء الخمسة، فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع، فلو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر، ولأَعنتَك أن تجيء منها بلفظ، أو نظم فصيح.

من ذلك يخلص لنا: أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه؛ لأنه ليس وضعا إنسانيا ألبتة، ولو كان من وضع إنسان، لجاء على طريقة تشبه أسلوبا من أساليب العرب، أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

ولقد أحس العرب بهذا المعنى، واستيقنه بلغاؤهم، ولولاه ما أفحموا، ولا انقطعوا من دونه؛ لأنهم

رأوا جنسا من الكلام غير ما توديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة؟ (١)

ويقول المرحوم فضيلة الشيخ "الزّرقاني" في موضوع خصائص أسلوب القرآن:

"وللقرآن مسحة خلابة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.... ونريد بنظام القرآن الصوتي، اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغناته، واتصالاته وسكتاته، اتساقا عجيبا، وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور.

ونريد بجمال القرآن اللغوي تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في وصف حروفه وترتيب كلماته ترتيبا دونه كل ترتيب تعاطاه الناس في كلامهم، ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس، لاعتلّ مذاقه في أفواه قارئيه، واختل نظامه في آذان سامعيه.

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي، وذلك النظام الصوتي: أنهما - كما كانا - دليل إعجاز من ناحية، كانا سُورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى، وذلك أن من شأن الجمال اللغوي، والنظام الصوتي أن يسترعي الأسماع، ويثير الانتباه، ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخلق، وفي آذانهم، ويُعرف بذاته ومزاياه بينهم، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله؛ مصداقا لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)". (٢)

ومن خصائص أسلوب القرآن العظيم: أنه يخاطب العقل والقلب معا، ويجمع الحق والجمال معا، انظر إليه وهو في معمعان(٣) إقامة الدليل العقلي على البعث والنشور، وفي مواجهة المنكرين المكذبين، كيف يسوق استدلاله سوقا يهز القلوب هزا، ويمتع العاطفة إمتاعا بما جاء في طيِّ هذه الأدلة

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص: ٢٦١.مناهل العرفان ٢/٢٠٨.

(٢) مناهل العرفان ٢/٢٠٨.

(٣) الْمَعْمَعَان: شدَّة الحرّ. ويقال: يوم مَعْمَعَانٌ وَيَوْمٌ مَعْمَعَانِيٌّ.

المسكتة المقنعة، إذ قال سبحانه في سورة "فصلت": ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت:٣٩).

واستمع إليه في سورة "ق" إذ يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (ق:٩-١١).

تأمل هذا الأسلوب البارع الذي أقنع العقل، وأمتع العاطفة في آن واحد حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل؛ إذ قال في الآية الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (فصلت:٣٩)، وفي الآيات الأخيرة قال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي: الخروج من القبور، والبعث والنشور.

يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا، بأنصع الأدلة، وأجمل البيان في هذه الكلمات المعدودات.

ثم انظر إلى القرآن، وهو يسوق قصة "يوسف" عليه السلام - مثلا - كيف يأتي في خلالها بالعظات البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة على وجوب الاعتصام: بالعفاف، والشرف، والأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك القصة الرائعة: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف:٢٣).

فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث، بدواعي العفاف الثلاث؟ مقابلة صوّرت من القصص الممتع جدالا عنيفا بين "جند الرحمن" و"جند الشيطان"، ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفتي ميزان!، وهكذا تجد القرآن كله مزيجا حلوا سائغا، يخفّف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية، ويرفّه عن العقول باللفتات العاطفية، فهل تسعد بمثل هذا في كلام البشر؟ لا، ثم لا، فكلام البشر إن وفّى بحق العقل: بخس العاطفة حقها، وإن وفّى بحق العاطفة: بخس العقل حقّه، حتى لقد بات العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى قسمين، لا ثالث لهما "أسلوب علمي"، و"أسلوب أدبي".

فطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب، وطلاب الأدب لا يرضيهم أسلوب العلم، وهكذا تجد كلام العلماء والمحققين فيه من الجفاء والعري، ما لا يهز القلوب ويحرك النفوس.

وتجد في كلام الأدباء والشعراء من الهزل والعقم العلمي ما لا يغذّي الأفكار ويقنع العقول.

أما القرآن فقد انفرد بهذه المزيَّة بين أنواع الكلام؛ لأنه تنزيل من القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر:٦٤).[1]

٣ - الإيجاز الرائع:

الوجه الثالث من وجوه الإعجاز ذلك الإيجاز الرائع، والجزالة[2] الخارقة التي ليس بإمكان مخلوق من البشر أن يحيط بها، أو يأتي بمثلها؛ لأنها فوق الطاقة البشرية، والقدرة الإنسانية، لقد كان البدوي - راعي الغنم - يسمع القرآن فيخر ساجدا لله رب العالمين، وذلك لروعة هذا الكتاب المجيد، ولما يفعل به في نفوس السامعين، وهو دليل رقة الإحساس، ولطف الشعور من أولئك الرعاة الحفاة.

قصة الجارية والأصمعي:

يروى أن الأصمعي خرج ذات يوم فلقي جارية، خماسيّة أو سداسيّة، وسمعها تنشد أبياتا من الشعر رائعة، فأُعجِب بتلك الأبيات وهزت منه النفس والقلب بجمال أسلوبها، وروعة بيانها، وفصاحة ألفاظها، فقال لها: قاتلكِ الله ما أفصحك؟ فقالت له: ويحك! أوَيُعَدُّ هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص:٧)، ثم قالت له: فقد جمعتْ هذه الآية على وجازتها بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين إلخ.[3]

---

[1] مناهل العرفان: ص: ٢١٠.

[2] المراد بالجزالة: الفخامة في الألفاظ، والإجادة في التعبير مع قوة السبك وعدم التعقيد.

[3] القصة ذكرها "القرطبي" في تفسيره: الجزء الثالث عشر ص: ٢٥٢، وذكرها صاحب المنار في الجزء الأول ص: ٢٨. والمراد بقوله: "خماسية، أو سداسية" أي: طولها خمسة أشبار، أو ستة أشبار، أي أنها معتدلة القامة.

قال الأصمعي، فأعجبت بفهمها وإدراكها أكثر ما أعجبت بشعرها، فهي جارية بدوية صغيرة السن، ولكنها واسعة العلم والفهم، أما الأبيات التي كانت تنشدها فهي قولها:

أستغفرُ اللهَ لذنبي كلِّه قبلتُ إنسانا بغير حِلِّه
مثلَ الغَزال ناعما في دلِّه وانتصف الليلُ ولم أُصلِّه

وقد أشارت هذه الجارية على الأصمعي بروعة ما في القرآن من بلاغة وفصاحة، وإيجاز وإعجاز، فالآية الكريمة جمعت بين أمرين وهما: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾، و﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، ونهيين وهما: ﴿لا تَخَافِي﴾ و﴿لا تَحْزَنِي﴾ وخبرين وهما: ﴿أَوْحَيْنَا﴾ و﴿خِفْتِ﴾ وبشارتين وهما: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ و﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فالبشارة الأولى: بردِّه إليها سليما كريما، والبشارة الثانية: وهي أن الله سبحانه وتعالى سيجعله رسولا هاديا.

فانظر - رعاك الله - كيف أدركت هذه الجارية البدوية بفطرتها العربية، سرا من أسرار هذا الإيجاز والإعجاز، وانتبهت إلى ما لم يدركه هو من أسرار هذا القرآن، فكأن الآية نظمت في عقد من اللؤلؤ والمرجان، فكانت لآلئها بميزان.

ويروى أن ابن المقفع - الكاتب البليغ المشهور - حاول أن يعارض القرآن ذات مرة، فسمع صبيا يقرأ قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود:٤٤)، فكسر الأقلام، ومزَّق الصحف التي كان قد بدأ بها في المعارضة، وقال: هذا والله مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، فمزق ما جمع، واستحيا على نفسه من إظهاره.وهكذا رجع الأديب الكبير البليغ عن عزمه بعد أن حدثته نفسه بمعارضة بعض سوره؛ لأنه شَعر بروعة القرآن.

ثم انظر إلى الجزالة والإيجاز في أسلوب القرآن، وقارِنها بأروع أسلوب نطق به عربي، وهو أسلوب أفصح من نطق بالضاد، سيد المرسلين محمد بن عبدالله، الذي شهد ببلاغته وفصاحته أعداؤه قبل أنصاره، قارِن بين "القرآن والسنة النبوية" تجد الفرق شاسعا، والبون بعيدا، كفرق ما بين السماء

والأرض، فبلاغة القرآن ونضارته وإشراقته في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان، تأمل قوله ﷺ في صفة الجنة وما فيها من نعيم وخلود: "فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر" الحديث، وقارن بين هذه الألفاظ على روعتها وبين قوله تعالى في وصف نعيم أهل الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف:٧١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة:١٧)، فهذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا، وأعذب لفظا، وأجزل عبارةً، وأقل حروفا.

ووازن بين قوله ﷺ: "كلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، الرجل راع في بيته، ومسؤول عن رعيته" الحديث.

وبين قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر:٩٢،٩٣)، وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف:٦).

وكذلك قارن بين سائر أقواله ﷺ وبين القرآن الكريم، تجد أن كلام الرسول على بلاغته لا يخرج عن كونه كلام بشر في الذروة العليا من الكلام، أما كلام الله تعالى فلا يشبهه كلام؛ لأنه كلام خالق البشر، انظر إليه وهو يتحدث في جزء آية من آياته المجيدة عن أحوال الأمم السابقين، ومآل الجاحدين المكذبين، وما حل بهم من كوارث ونكبات، نتيجة لطغيانهم وتمردهم،ثم كيف انتقم الله منهم جميعا بعد أن جاوزوا الحد في الطغيان، فلم ينج منهم إنسان، يقول جل ثناؤه: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٠).

يقول القرطبي رحمه الله نقلا عن "ابن الحصار": وهذه الثلاثة أوجه من "النظم، والأسلوب، والجزالة" لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدِّي والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سورة "الكوثر" ثلاث آيات قصار،

وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن مغيَّبين:

أحدهما: الإخبار عن الكوثر - نهر في الجنة -، وعظمه وسعته وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل.

والثاني: الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وكان عند نزول الآية ذا مال وولد، ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده،⁽¹⁾ وانقطع نسله".⁽²⁾

٤ - التشريع الإلهي الكامل:

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل الذي يسمو فوق كل تشريع وضعي عرفه البشر في القديم والحديث. فالقرآن الكريم هو الذي وضح أصول العقائد، وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع الاقتصادي والسياسي، والمدني والاجتماعي. وهو الذي نظم حياة الأسرة والمجتمع، ووضع أعدل المبادىء الإنسانية الكريمة التي ينادي بها دعاة الإصلاح في القرن العشرين، ألا وهي "المساواة، الحرية، العدالة - التي يسمونها: الديمقراطية - الشورى" إلى غير ما هنالك من أسس الحضارة والتشريع الذي تسعى إليه المدنية الحديثة.ففي العقائد دعا القرآن إلى عقيدة طاهرة سامية، واضحة جليّة، عمادها الإيمان بالله عز وجل والتصديق بجميع أنبيائه ورسله، والإيمان بجميع الكتب السماوية؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة:٢٨٥).

ودعا أهل الكتاب - اليهود والنصارى - إلى كلمة سواء، لا انحراف فيها ولا التواء، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضا أَرْبَابا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).

وفي العبادات جاء القرآن العظيم بأسس العبادات ودعائمها، فشرع الصلاة والصيام، والحج

⁽¹⁾ معنى الأبتر: الذي لا ولد له ولانسل، والشانيء معناه: المبغض. وقد قال الزمخشري أنها نزلت في العاص بن وائل.

⁽²⁾ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/٧٤.

والزكاة، وسائر أعمال البر والطاعة.

وليست "العبادة" في الإسلام قاصرة على هذه الدعائم والأركان، بل هي تشمل كل عمل خير وفعل بر، أو طاعة، ولهذا فإن العلماء قرروا أن كل عمل يقصد به الإنسان وجه الله يكون عبادة. وقالوا: "إن النية الصالحة تقلب العادة إلى عبادة". فإذا عمل الإنسان، واحترف له صنعة بقصد التعفف عن الحرام، والإنفاق على أهله وعياله، وإذا أكل أو شرب بقصد التقوِّي على طاعة الله، كان عمله عبادة يثاب عليها، والأصل في هذا قول النبي الكريم ﷺ: "وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرتَ عليها، حتى اللقمة تضعها في في امرأتك" الحديث.(١) وقوله ﷺ: "وفي بُضْعِ أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر".(٢)

وإذا أمعنا النظر في أصول العبادات المفروضة نجد أن الإسلام قد وسعها ونوعها، وجعلها ضروبا متفاوتة، فمنها ما هو "عبادة مالية" كالزكاة والصدقات، ومنها ما هو "عبادة بدنية" كالصلاة والصيام، ومنها ما هو يجمع بين الأمرين "عبادة مالية وبدنية" كالجهاد في سبيل الله يكون بالمال والنفس، وهذا التنويع له مغزاه وحكمته السامية، وذلك؛ لئلا تألف النفس شيئا فتصبح لها عادة، أو تملّ وتضجر من العبادة الواحدة.

وفي مجال "التشريع العام" نجد القرآن العظيم قد وضع قواعد عامة في التشريع المدني، والجنائي، والسياسي، والاقتصادي، ووضع أسسا للتعامل الدولي في حالة السلم والحرب على أكمل وجه وأعدل نظام.

---

(١) الحديث من رواية البخاري في قصة "سعد بن أبي وقاص" حين دخل الرسول ﷺ يزوره من وجع اشتد به.

(٢) الحديث من رواية مسلم، وهو في باب كثرة طرق الخير، وأوله: أن ناسا قالوا: يارسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور.

ففي أمر المعاملات، حرم القرآن أكل أموال الناس بالباطل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ (النساء:٢٩).

ودعا إلى الإشهاد عند إبرام البيع وبكتابة الدَّين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ (البقرة:٢٨٢). وفي الأمور الجنائية شرع القرآن الحدودَ، وأوجب على الأمة تنفيذها من أجل حماية المجتمع، وصيانته من الفوضى والاضطراب، وتأمين الأمة على حياتها ومستقبلها، وأموالها وأعراضها؛ لتعيش الحياة الكريمة السعيدة التي لن تكون إلا عن طريق الأمن والاستقرار.

وقد نص القرآن الكريم على أمهات الجرائم، وأعظمها خطرا على مستقبل الفرد والجماعة، ووضع لكل منها عقوبات مقدرة لا يجوز الزيادة عليها أو النقصان منها، أو التساهل في تطبيقها، وترك ما سوى ذلك من "الجرائم الخفيفة" للحاكم المسلم ينفذ فيها ما يراه من العقوبة على ضوء السنة النبوية المطهرة، وبالشكل الذي يحقق روح الإسلام من إرادة الخير للناس، وتطهير المجتمع من المفاسد والمظالم الاجتماعية.

أما الجرائم الكبيرة التي عيَّن لها القرآن عقوبات رادعة، فهي خمسة: "جريمة القتل، جريمة الزنا، جريمة السرقة، جريمة قطع الطريق، جريمة الاعتداء على كرامة الناس بالقذف".

ولعل أروع مثل للمقارنة بين "التشريع الإلهي القرآني"، وبين "التشريع الوضعي" الذي هو من صنيع البشر، ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها في معالجة المفاسد والأمراض الاجتماعية حيث قضى على كل فساد، واستأصل كل جريمة من نفوسهم، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، فملكوا الدنيا وسادوا العالم.

أمثلة من واقع الحياة:

ومن الأمثلة على تفوُّق ذلك التشريع القرآني الحكيم على بقية التشاريع البشرية والنظم الأرضية: ما نلمسه في واقع الحياة، ويمكن أن نشير إشارة خاطفة إلى سموِّ الشريعة الإسلامية على بقيّة

النظم فيما يلي:

١- منذ زمن قريب حرّمت "أمريكا" الخمر، ولكنها فشلت، ولم تنجح؛ لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمة التي اتَّبعها الإسلام في تحريم الخمر، فعادت إلى إباحته مع اعتقادها بضرره القادح.

٢- أباحت بعض الدول الغربية وخاصة "أمريكا" الطلاق بعد أن كان ممنوعا لديها بسبب تعاليم الكنيسة، ولكنها أسرفت فيه إلى درجة ضارّة، ولا تزال تأخذ بتشريع الطلاق.

٣- مصلحو أوربا يرفعون أصواتهم بضرورة السماح "بتعدد الزوجات" حتى بعض نسائهم طالبن بذلك نتيجة لكثرة العوانس من النساء، بحيث أصبحت المشكلة ذات أهمية خطيرة على المجتمع الأوروبي.

٤- الخيانات الزوجية انتشرت في المجتمع الأوروبي "المتمدن" بشكل فظيع، وبصورة مذهلة، حتى أصبحت الأسر مهددة بانفصام عراها، وكثر فيها اللقطاء، وذلك بسبب السفور والتبرج، والاختلاط بين الجنسين.

٥- إسبانيا: أصدرت حكومتها قرارا وسنَّت قانونا بمنع البغاء الرسمي في بلادها، وبمنع النساء من البروز على الشواطىء في ثياب الاستحمام.

٦- زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها أمام الألمان في الحرب الأخيرة يقول: إن سبب انهيار دولة فرنسا وسبب هزيمتها وانكسارها هو انغماسهم في الشهوات الجنسية، وإسرافهم في المفاسد والمفاتن.

٧- وأخيرا نجد أن الجرائم تزداد في كل يوم في المجتمع المتمدن "المجتمع الغربي" مع صرامة العقوبات المشروعة عندهم بالحبس والسجن السنوات الطوال، أو الإعدام بالشنق، ومع ذلك نجد الجرائم المروِّعة من خطف للفتيات والفتيان، وإزهاق للأرواح، وسرقة في وضح النهار للبيوت والبنوك والمحلات الكبيرة حتى لقد أصبحنا نسمع عن وجود عصابات خطيرة، تهدِّد أمن البلاد وسلامة العباد، وذلك من أعظم البراهين على فشل النظم الوضعية، والتشريعات البشرية. أما الإسلام فقد حقق الأمن والسلام، وقضى على الجريمة في مهدها،

ولقد أحسن من قال:

أين ما نظَّمتْ عقولٌ ضِعافٌ من نِظام المُهيمِن الدَّيَّان
إيه عصرَ العِشرين ظنُّوك عصرا نيِّر الوجهِ مُسعِد الإنسانِ
لستَ نورا، بل أنت نارٌ وظلمٌ مذْ جعلتَ الإنسانَ كالحيوانِ

ذلك هو الفرق بين تشريع الرحمن وتشريع الإنسان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. (١)

٥ - الإخبار عن المغيبات:

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن المغيبات، وذلك برهان ساطع، ودليل قاطع على أن هذا القرآن ليس من كلام بشر، وإنما هو كلام علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية، ولو كان من صنع محمد -كما زعموا - لظهرت علائم الوضع في تلك الأخبار الغيبية بوقوعها على خلاف ما أخبر، ولافتضح أمره بالكذب الصريح، وحاشاه - ﷺ - من الكذب على الله.

أ- فمن هذه الأخبار الغيبية إخباره عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس، وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم بعد أن انكسروا في الحرب السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ الرُّوْمُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِيْنَ لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَّفْرَحُ الْمُؤْمِنُوْنَ ۝ بِنَصْرِ اللّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَّشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ﴾ (الروم: ١-٥).

يذكر المفسرون في سبب نزول هذه الأية: أن حربا وقعت بين دولة الروم وهي "مسيحية"، ودولة الفرس وهي "وثنية"، فانتصر الفرس على الروم، ففرح المشركون وشمتوا، وقالوا للمسلمين: تزعمون أنكم أهل كتاب، وأن النصارى أهل كتاب، وها قد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فاغتمَّ المسلمون، وحزنوا لانهزام الروم، وهم دولة متدينة أمام دولة الفرس وهم وثنيون، فنزلت الآية الكريمة تبشِّر المسلمين بانتصار الروم على الفرس

---

(١) انظر كتاب "مناهل العرفان" للزرقاني.

في مدة وجيزة، تتراوح بين الثلاث والتسع من السنين ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، ولم يكن مظنونا وقت تلك البشارة أن الروم تنتصر على الفرس؛ لأن الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غزيت في عقر دارها، ولأن دولة الفرس كانت قوية منيعة، وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة، فلما نزلت الآية الكريمة راهن أبوبكر بعض المشركين وهو أبي بن خلف على مائة ناقة إلى تسع سنين، ولم تمض المدة حتى وقعت الحرب بين الروم والفرس، فانتصر فيها الروم وانهزمت الفرس، وتحققت نبوؤة القرآن، وذلك في سنة ٦٢٢ ميلادية، الموافقة للسنة الثانية من الهجرة النبوية، وكسب أبوبكر الرهان، فأمره ﷺ بالتصدق به.

وفي الآية نبوءة أخرى، وهي أن المسلمين سيفرحون بنصر قريب في الوقت الذي ينتصر فيه الروم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾، ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك، فكان ظفر المسلمين في بدر واقعا في الظرف الذي انتصر فيه الروم، وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد بفضل الله.

يقول الزمخشري: وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.⁽١⁾

ب- التنبوء بدخول الرسول وأصحابه مكة آمنين مطمئنين. روي أن النبي ﷺ رأى رؤيا في منامه، وذلك قبل خروجه إلى الحديبية، رأى كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسبوا إنهم داخلوها من عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما كان صلح الحديبية خرجوا من المدينة محرمين يسوقون الهَديَ إلى مكة لا يقصدون حربا، وإنما يقصدون العمرة والنسك، ولكن قريشا صدَّتهم، وكادت تقع الحرب بين المسلمين والمشركين، لولا أن الرسول ﷺ رضي معهم بالصلح إيثارا منه للسلم وحيا للسلام العام.

⁽١⁾ انظر الكشاف: ٣٤٥/٤. في سبب نزول الآية الكريمة.

وكان من شروط ذلك الصلح أن يرجع الرسول ومن معه من ذلك العام على أن يدخلوا مكة في العام القابل، واتخذ المنافقون ضعفاء الإيمان من ذلك سبيلا إلى الطعن والدس واللمز، حتى قال رئيس المنافقين عبدالله بن أبي: والله ما حلقنا، ولا قصَّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، ولكن نزلت الآية الكريمة تحمل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة وهي: دخول مكة، وأداء النسك، والأمن من قريش على رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود، وتقطيعهم الأرحام، وقد أنجز الله وعده فتم الأمر، ودخل المؤمنون مكة آمنين مطمئنين، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:٢٧).

ج- تنبوء القرآن بانهزام المشركين قبل وقوع الحرب، وذلك في قوله تعالى في سورة القمر: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (القمر:٤٤-٤٦)، وسورة القمر مكية، والجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية من الهجرة، فأين هي إذا فكرة الحرب؟ ومن الذي كان يجول بخاطره أن ينهزم جمع المشركين، وينتصر عليهم المسلمون وهم قلة في العَدَد والعُدَد ولكنه وعد الله لا يُخلف. روي عن عكرمة أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، قال عمر بن الخطاب: أي جمع هذا الذي سيهزم؟ فلما كانت غزوة بدر رأى رسول الله ﷺ وهو يثب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، فعرف عمر تأويلها.[1] وروي عن ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين.

د- تنبوء القرآن بذلك المستقبل الأسود الذي ينتظر كفار قريش، وذلك في قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ

---

[1] الكشاف: ٤/٤٤٠.

وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ (الدخان: ١٠-١٦).

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة: أن أهل مكة لما كذبوا رسول الله ﷺ، واستعصوا وتمردوا عليه، دعا عليهم فقال: "اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف" فأخذهم سنة محّصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع، وينظر أحدهم إلى السماء، فيرى كهيئة الدخان، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد! إنك جئت تأمر بطاعة الله، وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادعوا الله لهم، فأنزل الله هذه الآيات الكريمة. (١)

قال الزّرقاني رحمه الله: وفي هذه الآيات عند التأمل خمسة تنبوءات:

أولها: الإخبار بما يغشاهم من القحط والجوع، حتى يرى الرجل بينه وبين السماء كهيئة الدخان.

الثاني: الإخبار بأنهم سيضرعون إلى الله حين تحل بهم هذه الأزمة.

الثالث: الإخبار بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلا.

الرابع: الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعتوّهم.

الخامس: الإخبار بأن الله سينتقم منهم يوم البطشة، وهو يوم بدر.

ثم قال: ولقد حقق الله ذلك كله، ما انخرم منه ولا نبوءة واحدة، فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وجهده، ثم قالوا متضرعين: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، ثم كشف الله عنهم العذاب قليلا، ثم عادوا إلى كفرهم وعتوهم، فانتقم الله منهم يوم "بدر"، فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قُتل منهم سبعون وأُسر سبعون، وأديل للمسلمين منهم، أرأيت ذلك كله؟ هل يمكن أن يصدر مثله من مخلوق؟ كلا، بل هو الله العزيز الحكيم.

٥- التنبوء بإظهار الإسلام على جميع الأديان، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

---

(١) الحديث من رواية البخاري ومسلم.

بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف:٩).

وكذلك التنبوء بالمستقبل الباسم الذي سيكون للمؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور:٥٥). (١)

وقد تحقق هذا الوعد الإلهي، فأظهر الله الإسلام على جميع الأديان، ومكن للمسلمين في الأرض في حياة النبي ﷺ حتى استولوا على جميع البلاد العربية، و لم يبق جزء منها إلا دان للمسلمين بالطاعة، ومن لم يدخل في الإسلام دخل في ذمة المسلمين، وخضع لسلطانهم، ودفع الجزية لهم، ثم سار أصحابه من بعده إلى أرض كسرى، وأرض هرقل، فأزالوا دولة الفرس، ودولة الرومان، و لم يمض قرن من الزمان، حتى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات في المغرب إلى تخوم الصين في المشرق، فتحقق بذلك الوعد الكريم، وكان وعد الله مفعولا.

وكل هذه - وأمثالها في القرآن كثير - أخبار عن المستقبل، وقد تحققت جميعها، وهذا أمر خارق للعادة، فكان وجها من وجوه الإعجاز؛ لأن مثله لا يتفق إلا بإخبار من عند الله جل وعلا. ولا يغيب عن بالنا أن جميع القصص التي جاء في القرآن الكريم هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي، الذي أطلع الله رسوله الكريم عليه، وما كان له علم بها، ولهذا ذكر الله جل ثناؤه قصة نوح، ثم أعقبها بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:٤٩).

وما أروع قصص القرآن الذي نزل على خاتم المرسلين؛ ليكون تثبيتا لقلبه وذكرى للمؤمنين، وذلك أعظم برهان على أنه تنزيل رب العالمين، فيا لها من حكمة سامية، ومعجزة باهرة!

---

(١) قال الزمخشري: إن النبي ﷺ مكث مع أصحابه بمكة عشر سنين خائفين، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون ويمسون وهم في السلاح، حتى قال رجل منهم: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فنزلت الآية الكريمة، وهم في خوف شديد، فأنجز الله وعده، وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا بعد ذلك بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، واستولوا على الدنيا. الكشاف: ٢٥٢/٣.

٦ - عدم التعارض مع العلم بالحديث:

ومن وجوه إعجاز القرآن تلك الإشارات الدقيقة إلى بعض العلوم الكونية التي سبق إليها القرآن قبل أن يكتشفها العلم الحديث، ثم عدم تعارضه مع ما يكشفه العلم من نظريات علمية حديثة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية من نواحي الإعجاز بقوله جل شأنه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:٥٣). ومع اعتقادنا بأن القرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة أو فيزياء، وإنما هو كتاب "هداية وإرشاد"، وكتاب "تشريع وإصلاح"، ولكن مع ذلك لم تخل آياته من الإشارات الدقيقة، والحقائق الخفية إلى بعض المسائل الطبيعيّة، والطبيّة، والجغرافية مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحيا من عند الله، فمن المقطوع به: أن محمدا ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وأنه نشأ في بيئة بعيدة عن مظاهر الحضارة، حيث لم تكن علوم ولا معارف ولا مدارس تُقرأ فيها العلوم الكونية؛ لأن قومه وعشيرته كانوا أميين.

ومع ذلك، فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره، ولم يكشف العلم أسرارها إلا منذ زمن قريب، وذلك من أصدق البراهين على أن هذا القرآن ليس من تأليف محمد ﷺ - كما يزعم بعض المستشرقين - إنما هو وحي من الله، أنزله على قلب سيد المرسلين بلسان عربي متين.

ولقد أجاد الأستاذ "عفيف طبّارة" في كتابه "روح الدين الإسلامي"، فذكر بعض هذه الحقائق العلمية الدقيقة، ونحن ننقل بعضها بشيء من الإيجاز مع التصرف.

* * * *

الفصل العاشر:

معجزات القرآن العلمية

أولا : وحدة الكون:

أظهر النظريات العلمية الحديثة تقول: إن الأرض كانت جزءا من المجموعة الشمسية، ثم انفصلت عنها، وتبردت، وأصبحت صالحة لسكنى الإنسان، ويبرهنون على صحة هذه النظرية بوجود البراكين(١) والمواد الملتهبة في باطن الأرض، وقذفِ الأرض بين حين وحين بهذه الحمم(٢) من المواد البركانية الملتهبة...الخ.

هذه النظرية الحديثة تتفق مع ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ (الانبياء: ٣٠).

يقول الأستاذ "طبَّارة": هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم الحديث الذي قرَّر أن الكون كان شيئا واحدا متصلا من غاز،(٣) ثم انقسم إلى سدائم، وعالمنا الشمسي كان نتيجة تلك الانقسامات...

أما الشطر الثاني من الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فهو من أبلغ ما جاء في تقرير حقيقة علمية أدرك العلماء سرَّها، فمعظم العمليات الكيمياوية تحتاج إلى الماء، وهو العنصر الأساسي

---

(١) البُرْكان: فتحة في القشرة الأرضية تخرج منها مواد منصهرة وغازات وأبخرة، يكون غالبا مخروطيّ الشكل. ويطلق كذلك على الجبل الذي يتكون من تراكم هذا المواد.

(٢) الحُمَمُ: الفَحْمُ، والرّماد، وكل ما احترق من النار. واحدته: حُمَمَة.

(٣) الغَازُ: حالة من حالات المادة الثلاث تكون في العادة شفافة، تتميز بأنها تشغل كل حيّزٍ توضع فيه وتتشكل بشكله، كالمداء والأوكسجين وثاني أكسيد الكربون في درجات الحرارة والضغط العاديّين. و(غازالفحم): مخلوط من الغازات يستعمل في المواقد والإنارة.

لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات، وللماء خواص أخرى تدل على أن مبدع الكون قد صمَّمه بما يحقق صالح مخلوقاته، والماء يمتصّ كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة، وعندما يتجمد تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد الأحياء التي تعيش في البحار من أسماكٍ وغيرها، فما أعجب حكمة القرآن للذي يبين بكلمات جليلة سرَّ الحياة!

وقد روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال في تفسير هذه الأية الكريمة: كانت السماء رتقا لاتمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلا، فتق السماء بالمطر، وفتق الأرض بالنبات.(١)

أقول: هذا التفسير جميل وحسن، ويكون من باب "الاستعارة"، وهو الذي ذهب إليه المفسرون القدامى، ولكن لا يمنع أن يكون في القرآن بعض هذه الروائع العلمية التي كشف عنها العلم الحديث، فالقرآن حمَّال وجوه، وليس هناك تحكُّم في فهم أسراره، فربما فهم المتأخرون ما لم يفهمه المتقدمون، والله تعالى يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣). فلعل هذا من الآيات التي أطلعهم الله عليها في القرن العشرين.

ثانيا : نشأة الكون:

يقول العالم الفلكي جينز: "إن مادة الكون بدأت غازا منتشرا خلال الفضاء بانتظام، وإن السدائم - المجموعات الفلكية - خلقت من تكاثف هذا الغاز".

ويقول الدكتور جامو: "إن الكون في بدء نشأته كان مملوءا بغاز موزّع توزيعا منتظما، ومنه حدثت عمليات".

هذه النظرية نجد لها في القرآن الكريم ما يؤيدها - ولولا أن القرآن أخبر عن ذلك لاستبعدنا

---

(١) تفسير ابن كثير: ١٨٧/٣

هذه النظرية - يقول تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت:١١)، فالقرآن صوَّر مصدر خلق هذا الكون "بالدخان"، وهو الشيء الذي يفهمه القرب من الأشياء الملموسة. أيكون في مقدور أمّيّ - منذ أربعة عشر قرنا - أن يدرك هذا في وقت كان الناس لا يعرفون شيئا عن هذا الكون وخفاياه؟.

ثالثا : تقسيم الذرة:

ظل الاعتقاد السائد حتى القرن التاسع عشر أن الذرة هي أصغر جزء يمكن أن يوجد في عنصر من العناصر. وأنها غير قابلة للتجزئة؛ لأنها الجزء الذي لا يتجزأ، وقد مضت قرون على هذا الاعتقاد، ومنذ عشرات السنين الماضية حوَّل العلماء اهتمامهم إلى مشكلة "الذرة"، فأمكنهم تجزئتها وتقسيمها، وقد وجدوا أنها تحتوي على الدقائق الآتية:

(١) البروتون (٢) النيترون (٣) الإلكترون

وبواسطة هذه التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية، والقنبلة الهيدروجينية، ونعوذ بالله من قيام الساعة ومن شر إبليس اللعين.

استمع إلى قوله تعالى عند الإخبار عن الذرَّة: ﴿وَمَا يَعْزُبُ⁽¹⁾ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:٦١).

فكلمة ﴿أَصْغَرَ﴾ من الذرة في الآية القرآنية: تصريح جلي بإمكان تجزئتها، وفي قوله: ﴿وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ بيان بأن خواص الذرات في الأرض، هي نفس خواص الذرات الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب، فهل درس محمد ﷺ خواص الذرة، وأمكنه تجزئتها، والوقوف على خواصها في الأرض والسماء؟ إنها لدليل قويٌّ على أن القرآن وحيٌ إلهيٌّ.

---

(١) يعزب: أي يغيب ويخفى.

رابعا : نقص الأوكسجين:

منذ اكتشاف الطيران، ظهرت للعلماء بادرة طبيعية، وهي: "نقص الأوكسجين في طبقات الجو العليا"، فكلما حلّق الإنسان وارتفع في أجواء السماء، كلما أدركته هذه الظاهرة، وشعر عند ذلك بضيق الصدر وصعوبة التنفس، حتى ليكاد يشعر بالاختناق، ولهذا فإن الطيّارين يعطون تعليمات للركاب بأن يستعملوا "الأوكسجين الصناعي" حين تعلو بهم الطائرة إلى مرتفعات عالية تزيد عن ٣٥ خمسة وثلاثين ألف قدم. هذه الظاهرة العلمية أشار إليها القرآن الكريم قبل اختراع الطيران، وقيل أربعة عشر قرنا، استمع إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً[1] كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام:١٢٥).

ولقد كان القدماء يفسرون هذه الآية حسب مفاهيمهم التي تتفق مع زمانهم، فكانوا يقولون: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كمن يحاول الصعود إلى السماء، وهو ليس بمستطيع، أو كمن يحاول عمل المستحيل.

وقد جاء هذا العصر، فأظهر معجزة القرآن، وسجل اتفاقا رائعا للآية القرآنية مع الواقع العلمي، فكان تأييدا لصدق نبوة محمد ﷺ، فلِلّه ما أروع هذا القرآن، وما أسماه؟

خامسا : الزوجية منبثّة في كل شيء:

كان الناس يعتقدون بأن الزوجية "الذكر، والأنثى" منبثة بين النوعين "الإنسان، والحيوان" فقط، فجاء العلم الحديث، فأثبت أن الزوجية توجد في النبات كذلك، وفي الجماد، وفي كل ذرة من ذرات الكون والوجود حتى الكهرباء، ففيها "الموجب"، وفيها "السالب"، هذه فيها شحنة كهربائية موجبة، وتلك فيها شحنة كهربائية سالبة، وحتى الذرة فيها "البروتون" و"النيترون"، وكل منهما يشبه الذكر والأنثى، وهذا الاكتشاف سبق إليه القرآن العظيم في عديد من الآيات الكريمة، استمع إلى هذه الروائع البينات:

---

[1] حرجا: شديد الضيق.

أ- ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذريات:٤٩). فالعموم هنا واضح: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ب- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء:٧) الإشارة هنا "للنبات".

ج- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦).

فهذه الآية الكريمة عممت الزوجية في النبات والإنسان، وفي كل شيء مما نعلمه، أو لا نعلمه، فسبحان الإله القدير العليم الذي أحاط علمه بكل الأكوان، وأحصى كل شيء عددا.

سادسا : أغشية الجنين:

ثبت علميا أن الجنين في بطن أمه محاط بثلاثة أغشية، وهذه الأغشية لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق، وتظهر بالعين المجردة كأنها غشاء واحد، وهذه الأغشية هي التي تسمى: "الغشاء المنباري"، و"الخوربون"، و"اللفائفي." هذا ما أثبته الطبّ الحديث، وقد جاء القرآن الكريم مؤيدا هذه الحقيقة العلمية، وذلك في سورة الزُّمر في قوله جل وعلا: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ (الزمر:٦)، ففي هذه الآية معجزة علمية للقرآن، فقد أخبر أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها: "ظلمات"؛ لأن الغشاء حاجز، وحجاب يحجز عنه النور والضياء، وهي في العلم الحديث ثلاثة أغشية.

سابعا : التلقيح بواسطة الرياح:

أثبت العلم الحديث: أن الهواء ينقل الأعضاء المذكّرة إلى المؤنثة في النخيل والتين، وغيرها من الأشجار المثمرة، فيكون التلقيح بواسطة الرياح(١) والهواء، وهذه الناحية العلمية تحدث عنها

---

(١) يقول المستشرق المستر "أجنيري" الأستاذ في مدرسة "أكسفورد" في القرن الماضي: إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرنا، يشير بذلك إلى أن هذا مما سبق إليه القرآن. والفضل ما شهدت به الأعداء.

القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر:٢٢)، وهذا سبق للقرآن في الحقائق العلمية الثابتة مما يدل على صدق النبوة.

ثامنا : الحيوان المنويّ:

اكتشف الطب الحديث أن هذا السائل من منيِّ الإنسان: يحوي حيوانات صغيرة تسمى: "الحيوانات المنوية"، وهي لا تُرى بالعين المجردة، إنما ترى "بالمكرسكوب"، وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل، يشبه دودة العلق في شكلها ورسمها، وأن هذا الحيوان يختلط بالبويضة الأنثوية فيلقحها، فإذا ما تم اللقاح انطبق عنق الرحم، فلم يدخل شيء من بعده إلى الرحم، وأما بقية الحيوانات فتموت، وهذه الناحية العلمية وهي : أن الحيوان المنويَّ يشبه العلق في الشكل والرسم، فقد أثبتها القرآن، استمع إلى قوله جلَّ وعلا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق:١،٢)، فهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن لم يظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين إلى أن اكتشف المجهر المكبّر "المكرسكوب"، وعرف كيف يتكون الإنسان بقدرة الله!

تاسعا : اختلاف بصمات الإنسان:

في القرن الماضي سنة (١٨٨٤)م استعملت في انكلترا رسميا طريقة للتعرف على الشخص بواسطة بصمات الأصابع، وأصبحت هذه الطريقة متبعة في جميع البلاد، ذلك؛ لأن بشرة الأصابع مغطّاة بخطوط دقيقة، وعلى عدة أنواع: "أقواس، عراو، دوامات"، وهذه الخطوط لاتتغير مدى الحياة، وجميع أعضاء الجسم تتشابه أحيانا، ولكن الأصابع لها مميزات خاصة؛ إذ أنها لا تتشابه ولا تتقارب، وهنا المعجزة الإلهية، فلماذا اختار الله سبحانه بنان الإنسان في إقامة الدليل على البعث: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (القيامة:٣،٤).

٧ – الوفاء بالوعد:

ومن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم "الوفاء بالوعد" في كل ما أخبر عنه، وفي كل ما وعد الله سبحانه عباده به، وهذا الوعد ينقسم إلى قسمين:

أ- وعد مطلق.

ب- وعد مقيد.

فالوعد المطلق كوعده بنصر رسوله، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه، ونصر المؤمنين على الكافرين، وقد تحقق ذلك كله، اقرأ إن شئت قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ (الفتح:١-٣).

وقد تتحقق هذا النصر بفتح مكة، وبدخول الناس في الإسلام أفواجا أفواجا، وبذلك تمت النعمة على سيد الأنام محمد ﷺ، وأقر الله عينه بنصره على أعدائه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (النصر:١-٣). وصدق الله وعده بنصرته لأنبيائه وأوليائه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر:٥١).

ومن الوعد المطلق قوله جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:٤٧)، وقد تحقق نصر المؤمنين في مواطن عديدة في بدر وأحد وغيرهما من المعارك العظيمة التي شهدها تاريخ الإسلام، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران:١٢٣)، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ (آل عمران:١٥٢) تحسوهم: أي تقتلوهم قتلا ذريعا.

ومن الوعد المطلق قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (النور:٥٥).

وقد تحقق الوعد، فانتصر المؤمنون حتى فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وسارت جيوشهم حتى بلغت أقاصي المعمورة، وقد كان أبو بكر ﷺ إذا أرسل جيوشه للغزو عرَّفهم ما وعدهم الله؛ ليتقوا بالصبر ويستيقنوا بالظفر، ومن الوعد المطلق قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (الفتح:٢٨). أما الوعد المقيد فهو ما كان فيه شرط كشرط التقوى، وشرط الصبر، وشرط نصرة دين الله وما شابه ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق:٢،٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ (الطلاق:٤).

وقد وعد الله المؤمنين بالنصر بشرط الصبر، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال:٦٥).

٨ - العلوم والمعارف:

ومن وجوه إعجاز القرآن: هذه العلوم والمعارف التي زخر بها القرآن الكريم، والتي بلغت من نصاعة البرهان وقوة الحُجّة مبلغا يستحيل على محمد ﷺ - وهو رجل أميّ نشأ بين الأميّين - أن يأتي بها من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جميعا من أدباء وعلماء، وفلاسفة وحكماء، ومن مشرعين وعباقرة أن يأتوا بمثل هذه العلوم والمعارف، وفي هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن حجة دامغة، وبرهان ساطع، يقصم ظهر كل أفّاك مُعاند، يزعم أن ما جاء به محمد إن هو إلا تعاليم الكتب السابقة، استمدها محمد من بعض أهل الكتاب في عصره، ثم نسبها إلى ربه؛ ليستمد من هذه النسبة قدسيتها: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ (الكهف:٥).

ونحن نقول لهؤلاء الْعُمْيِ: كيف يكون القرآن نسخة عن الكتب السابقة، وقد جاء منكِرا على

أهلها، مخالفا لأكثرها، بل جاء مبطلا وهادما لأصول أفكارها وعقائدها بسبب ما دخل فيها من تحريف وتبديل؟

وكيف يمكن أن تتفق عقيدة "التوحيد" مع عقيدة "التثليث"، وبينهما كما بين السماء والأرض؟ ألم يسمعوا الحكم القاطع الجازم فيهم بأنهم كفرةٌ فجرةٌ، يعبدون أحبارهم ورهبانهم من دون الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠،٣١).

جاء القرآن بالعلوم المتنوعة، والمعارف المتعددة في العقائد والعبادات، والتشريع والتنظيم، وفي الأخلاق والمعاملات، وفي حقول شتى: في التربية والتعليم، وفي السياسة والاقتصاد، وفي الفلسفة والاجتماع، وكذلك في القصص والأخبار، وفي أصول المناظرة والجدل.

ولاشك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب، ولا نشأ في بلد علم وتشريع، ولا في مدينة ذات حضارة ومدنية: أن يأتي بمثل ما في القرآن من هذه العلوم والمعارف تحقيقا وكمالا، مؤيدا بالحجج والبراهين بعد أن قضى معظم حياته لا يعرف شيئا عنها، ولم ينطق بقاعدة أو أصل منها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحيا من الله تعالى؟ وأحب أن أقتصر هنا على مثل من هذه العلوم المتنوعة العديدة، وهو بحث "العقيدة في القرآن"، وأن أقارن بين تعاليم الإسلام، وتعاليم اليهودية والنصرانية على عهد نزوله؛ ليتبين الصبح لذي عينين، ويظهر ضياء الحق الساطع، ونوره الباهر، وكما قيل: "وبضدها تتميز الأشياء".

العقيدة الإسلامية:

جاء القرآن بعقيدة سمحة صافية، بيضاء نقية في ذات الله تبارك وتعالى، وفي حق رسله الكرام، فالله رب العالمين واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، له جميع صفات الكمال،

ومنزه عن جميع صفات النقص: "لا ذاته تشبهها الذوات، ولا حكتْ صفاتِه الصفاتُ": ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١) وهو جل وعلا قيوم ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ (البقرة:٢٥٥) ولا يشغله شأن عن شأن: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (طـه:٦)... هو الخالق المتفرد بالخلق والإيجاد، وبيده ناصية العباد، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة:١٢٠) الكل خلقه، والجميع عبيده: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ (مريم:٩٣) اقرأ إن شئت هذه الآيات الروائع في صفات الله عزوجل:

١- ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ (الصافات:٤،٥).

٢- ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ (طـه:٩٨).

٣- ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً، وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ (الإسراء:١١٠،١١١).

٤- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (فاطر:١٥-١٧).

العقيدة اليهودية:

وضل اليهود بعد موسى عليه السلام، فعبدوا بعلا، وزعموا أن لله ابنا هو العُزير عليه السلام، وشبهوا الله بالإنسان، فزعموا أنه تعب من خلق السماوات والأرض، فاستراح يوم السبت، واستلقى على قفاه، وركبوا رؤوسهم، فقالوا: إنه – جل وعلا – ظهر في صورة إنسان، وصارع إسرائيل، فلم يستطع أن يغلبه، ولم يتخلص منه الرب حتى باركه وذريته، فأطلقه عند ذلك يعقوب، وادّعوا أنهم الشعب المختار من بين الشعوب، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة خالصة

لهم من دون الناس، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، هي مدة عبادتهم العجل أربعين يوما كما افتروا على السيد المسيح "عيسى"، فزعموا أنه ابن زنا، وأن أمه زانية، وأهم صلبوه؛ ليطهّروا بني إسرائيل من هذه الجريمة الشنيعة.

كل هذا – وأمثاله كثير – من أباطيل وأضاليل اليهود، جاء القرآن هادما لها وحربا عليها، فكيف يزعمون أن القرآن نسخة عن التوراة؟

العقيدة النصرانية:

وضل النصارى، فزعموا أن لله ولدا، وذهبوا إلى عقيدة معقّدة من الإيمان بالتثليث: "الأب، والابن، وروح القدس"، وسموها بالأقانيم، فعيسى هو "الأقنوم" الثاني من الثالوث الإلهي الذي هو عين الأول والثالث، وكل منهما عين الآخر، الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، وخلعوا على رجال كهْنُوتِهم ما هو حق لله وحده من التشريع والتحليل والتحريم، وزعموا أن "ابن الإله" صلب؛ ليخلص الإنسان من خطيئته، ويطهره من أوزاره، والأعجب من هذا: أن كثيرين منهم يعتقدون بأن "عيسى بن مريم" هو الله، نزل إلى الأرض بصورة بشر. إلى غير ذلك من الأباطيل والمخازي التي نسبوها إلى الله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ (الإسراء:٤٣).

فانظر مدى البون الشاسع بين الحق الذي جاء به القرآن، وبين الباطل الذي جاء به هؤلاء وهؤلاء على أن القرآن الكريم لم يكتف بسرد هذه الأباطيل والإخبار بها عن تحريف أهل الكتاب، بل رد على أولئك ببراهينه الساطعة، وأدلته القاطعة.

استمع إليه وهو يقول عن أهل الكتاب "النصارى": ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ۝ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ

الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٧١، ١٧٢).

واستمع إليه وهو يتكلم عن أهل الكتاب "اليهود"، فيقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ۝ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٥٥-١٥٨).

ولقد صرح القرآن بالتحريف الذي وقع عند أهل الكتاب في "التوراة والإنجيل"، وبين أن مهمة الرسول إنما هي في تصحيح ما ارتكبه أهل الكتاب من الكذب والبهتان، وفي كشف ما أخفوه من آيات الله في التوراة والإنجيل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥، ١٦).

فهل بعد هذا البرهان من حجة أوضح على صدق سيد المرسلين؟ ويرحم الله "البوصيري" حيث يقول:

كفاك بالعلم في الأمّيّ معجزةً   في الجاهلية والتأديب في اليُتم

٩ - وفاؤه بحاجات البشر:

وهذا الوجه من وجوه الإعجاز ظاهر جلي، يدركه كل متأمل في شريعة الإسلام، فقد جاء القرآن الكريم بهدايات تامة كاملة، شاملة واسعة، تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان، ويتجلى ذلك إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته وإرشاده وهي بإيجاز:

١ - إصلاح الأفراد.
٢- إصلاح المجتمعات.
٣ - إصلاح العقائد.
٤ - إصلاح العبادات.
٥ - إصلاح الأخلاق.
٦- إصلاح الحكم والسياسة.

٧ - إصلاح الشؤون المالية. ٨ - إصلاح الشؤون الحربية. ٩ - إصلاح الثقافة العلمية.

١٠ - تحرير العقول والأفكار من الخرافات.

ولقد أحسن من قال:

شريعة الله للإنسان تبيانُ وكل شيء سوى القرآن خسرانُ⁽¹⁾

١٠ - تأثير القرآن في القلوب:

ومن وجوه إعجاز القرآن ذلك التأثير البالغ الذي أحدثه في قلوب أتباعه وأعدائه، حتى لقد بلغ من شدة التأثير أن المشركين أنفسهم كانوا يخرجون في جنح الليل يستمعون إلى تلاوة القرآن من المسلمين، وحتى تواصوا فيما بينهم ألا يستمعوا إلى القرآن، وأن يرفعوا أصواتهم بالضجيج حينما يتلوه محمد؛ لئلا يؤمن به الناس: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت:٢٦).

ولقد بلغ من تأثير القرآن في القلوب أن يفيء إلى ظلاله أشد الناس عداوة له، وأعظمهم عنادا، فيسلم كثير من هؤلاء الزعماء، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير ﷺ، وغيرهم من القادة والرؤساء، هذا هو عمر بن الخطاب الذي يبلغ من شدة قسوته على المسلمين أن يقول فيه أحدهم: "والله لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب"، والذي يبلغ من شدة عدائه أن يتقلد سيفه بالظهيرة، ثم يخرج ليفتش عن محمد ﷺ ليقتله،ثم لا يأتي المساء إلا وقد رجع معتنقا للإسلام بسبب بضع آيات سمعها في بيت أخته من "سعيد بن زيد" ﷺ والقصة مشهورة.

وتأمل كيف أسلم سعد بن معاذ ﷺ - سيد قبيلة الخزرج - هو وابن أخيه أسيد بن حضير.

تروي كتب السيرة: أن رسول الله ﷺ حين كان في مكة جاءه وفدُ المدينة الذين بايعوه بيعة العقبة،

⁽¹⁾ من قصيدة للأستاذ وليد الأعظمي.

فأرسل معهم مبعوثين جليلين يعلّماهم الإسلام والقرآن، وهما : "مصعب بن عمير، وعبدالله بن أم مكتوم ﵄، فلما وصلا المدينة أخذا يعلّمان الناس القرآن، فبلغ ذلك سعد بن معاذ ﵁ – سيد القبيلة –، فقال لابن أخيه أسيد بن حضير: ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين جاءا يسفِّهان ضعفاءنا، فتنهاهما وتزجرهما عن هذا الصنيع؟

فسار إليهما أسيد، فلما انتهى إليهما قال لهما: ما جاء بكما؟ جئتما تسفِّهان ضعفاءنا، ثم توعدهما وهدّدهما فقال: اعتزلانا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة؟

فقال له مصعب ﵁ : أوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره.

فجلس أسيد وجعل مصعب ﵁ يقرأ، وهو يسمع، فما انتهى من مجلسه حتى أسلم، ثم كرَّ راجعا إلى سعد فقال له: والله ما رأيت بالرجلين بأسا، وأخفى أمامه إسلامه، فغضب سعد وقام بنفسه ثائرا مهتاجا، فقال لهما: ما جاء بكما؟ أجئتما تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا.

فقال له مصعب ﵁: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته منا، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره. فقال: أنصفتما، فجعل مصعب ﵁ يتلو القرآن عليه، وسعد يستمع.

يقول مصعب ﵁: والله! لقد كان وجه سعد يشرق بالإيمان وهو يستمع القرآن، فما انتهى مصعب من القراءة حتى أعلن سيد الأوس إيمانه، ثم كرَّ راجعا، فجمع قبيلته وقال لهم: كيف تعدُّونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، فقال لهم سعد: كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تسلموا بمحمد، فدخلوا جميعا في الإسلام... رضي الله عن سعد وأرضاه.

هكذا كان تأثير القرآن في قلوب الأولياء والأعداء، ولا تنسَ قصة الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة وغيرهما ممن تأثروا بالقرآن، ولولا حبُّ الزعامة، ولولا حب الجاه والسلطان لدخلوا جميعا في دين الله، ولكن الهداية بيد الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ (الرعد:٢٧) و﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦).

ذكر صاحب تفسير المنار أن فيلسوفا من فلاسفة فرنسا ألّف كتابا ردَّ فيه – ما زعمه دعاة

النصرانية من أن محمدا ﷺ لم يأت بمثل آيات موسى، وعيسى عليهما السلام، ولم يكن له من الآيات الخوارق ما كان لمن قبله - فقال ذلك الفيلسوف:

"إن محمدا كان يقرأ القرآن خاشعا مولَها مدلها، صادعا ومتضرعا، فيفعل في جذب القلوب إلى الإيمان به فوق ما كانت تفعله جميع آيات الأنبياء السابقين"(١). وذكر الرافعي كلمة قيّمة في كتابه "إعجاز القرآن" هذه الكلمة نقلها عن الأمير شكيب أرسلان: "أن "لوثير" و"كلفين" المصلحين المعروفين في التاريخ المسيحي، ذكرا مرة أمام "فولتير" فيلسوف فرنسا، فقال: "إنهما لايليقان حذاءين لنعال محمد ﷺ".

سلامته من التناقض:

وأخيرا فإن من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم سلامته من التناقض والتعارض، خلافا لجميع كلام البشر، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ (النساء:٨٢).

هذه بعض وجوه الإعجاز في القرآن، وهناك وجوه أخرى ضربنا عنها صفحا خشية التطويل.

ولا يزال الزمن يكشف عن أسرار إعجاز القرآن، فكلما تقدم الزمن تجلّت نواحٍ من نواحي إعجازه، وقام البرهان القاطع أنه تنزيل الحكيم الحميد، ومع ذلك فإن هذه الأسرار التي ذكرها العلماء، إن هي إلا قطرة من بحر علوم القرآن، ومهما اتسع القول وعظم البيان، فإن كلام الله تعالى لا يحيط به أحد، كما لا يحيط أحد بعظمة ذاته، وجليل صفاته.

دفع شبهة القول بالصرفة:

وإذ قد انتهينا من وجوه إعجاز القرآن الكريم نرى لزاما علينا أن ندفع تلك الشبهة التي ذهب إليها بعض المعتزلة وبعض الشيعة، وهي: "شبهة القول بالصِّرفة".

وخلاصتها: أن الله عزَّ وجل صرف العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته

---

(١) انظر تفسير المنار.

المستوى الذي يعجز عنه البشر، ولولا أن الله صرف همهم عن معارضته لاستطاعوا أن يأتوا بمثله...الخ.

فأنت ترى أصحاب هذا القول يذهبون إلى أن القرآن ليس معجزا بذاته، وإنما كان إعجازه بسبب أمرين:

الأول: الصارف الإلٓهي الذي زهدهم في المعارضة، فكسلوا وقعدوا.

الثاني: العارض المفاجيء الذي عطّل مواهبهم البيانية وقدرتهم البلاغية.

وهذا القول -بشقيه- باطل، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق مع الواقع، وذلك لعدة أسباب:

أولا: لو كان هذا القول صحيحا، لكان الإعجاز في "الصِّرفة" لا في القرآن نفسه، وهذا باطل بالإجماع.

ثانيا: لو صح القول بالصِّرفة لكان ذلك "تعجيزا" لا "إعجازا"؛ لأنه حينئذ يشبه ما لو قطعنا لسان إنسان، ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام، فهذا ليس من باب العجز، وإنما هو من باب التعجيز.

ألقاهُ في اليمِّ مكتُوفاً وقال له إيَّاك إيَّاك أن تَبتلَّ بالماء

ثالثا: لو كان هناك صارف زهَّدهم في المعارضة من "كسل أو ملل" لما وقفوا في وجه نبيِّ الإسلام، ولما آذوه، وأصحابه، ولما عذّبوا المسلمين وشرَّدوهم، ولما قاطعوا الرسول وعشيرته، وحاصروهم في الشعب حتى أكلوا ورق الشجر، ولما فاوضوه وساوموه على أن يترك الدعوة، ثم اضطروه إلى الهجرة هو وأصحابه الكرام إلى غير ما هنالك من دوافع وبواعث، جعلتهم يسلكون كل سبيل للقضاء على الإسلام.

رابعا: لو كان هناك عارض مفاجيء عطّل مواهبهم البيانية لأعلنوا ذلك في الناس؛ ليلتمسوا العذر لأنفسهم، وبالتالي؛ ليقلّلوا من شأن القرآن، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، وهذا باطل واضح البطلان.

خامسا: لو كان هذا العارض المفاجيء صحيحا لأمكننا نحن الآن، وأمكن المشتغلين بالأدب العربي

في كل عصر أن يعارضوا القرآن، وأن يتبينوا الكذب في دعوى إعجازه، وكل هذه الأشياء باطلة، فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ونبيّ القرآن، وأنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل، زاهدين في النزول لذلك الميدان؟ وهل يصح لإنسان يحترم نفسه وعقله أن يصدّق بمثل هذا الافتراء، القول "بتعطيل المواهب والحواس" بعد أن يستمع إلى شهادة ألدِّ الأعداء من صناديد قريش وهو "الوليد بن المغيرة" حين قال كلمته المشهورة: "والله لقد سمعت آنفا كلاما ليس من كلام بشر، ليس بشعر، ولا نثر، ولا كهانة، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى"؟

والفضل ما شهدت به الأعداء...، وأختم هذه الكلمة بما ذكره العلامة القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" حيث قال: "فهذه عشرة وجوه، ذكرها علماؤنا ﷺ في إعجاز القرآن، وهناك قول آخر ذكره النظام: أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، والصِّرفة عند التحدي بمثله، وأن المنع والصِّرفة هو المعجزة دون ذات القرآن، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله، وهذا فاسد؛ لأن إجماع الأمة أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: "إن المنع والصِّرفة هو المعجز لخرج القرآن أن يكون معجزا. (١)

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في عجزهم عن الإتيان بمثل سورة من أقصر سور القرآن مع التحدي اللاذع.

هل حاول أحد معارضة القرآن؟

أجمع رواة التاريخ والآثار على أن أساطين البلغاء وفحول الشعراء من مشركي العرب لم تحدثهم أنفسهم بمعارضة القرآن، و لم ينقل عن أحد منهم أنه حاول أن يأتي بمعارضة للقرآن مع شدة

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ١/٧٥.

حرصهم على صدِّ الناس عن الإسلام، والتكذيب برسالة محمد ﷺ.

ولكن نقل عن بعض السفهاء الحمقى أنهم حاولوا معارضة القرآن، فكان ما أتوا به لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة، أخجلتهم أمام البشر، وجعلتهم أضحوكة لدى العقلاء، فباءوا بغضب من الله، وسخط من الناس، وكان مصرعهم هذا كسبا جديدا للحق، وبرهانا ناصعا على أن القرآن كلام الله الذي لا يستطيع معارضته إنسان.

أ- فمن أولئك: "مسيلمة الكذّاب" الذي ادعى النبوّة، وزعم أنه شريك لرسول الله في شأن النبوة، وقد كتب إليه في السنة العاشرة للهجرة يقول: "أما بعد! فإني قد شوركت في الأرض معك، وإنما لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، لكن قريشا قوم يعتدون".

وقد زعم مسيلمة أن له قرآنا نزل عليه من السماء، ويأتيه به مَلَك يسمى "رحمن"، وها نحن ننقل طائفة من أقواله وهَذَيانه؛ ليظهر كذب هذا الأحمق الدجّال، ويتّضح أمره، فكفاه ذلك الوصف أنّه كذّاب.

قال - أخزاه الله - معارضا سورة العاديات:

(والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا... لقد فضّلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدَر، ريفكم فامنعوه، والمقبر فآووه، والباغي فناوئوه) وقال: "والشاءِ وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المَذْق فما لكم لاتمجعون).

ومن قرآنه المفترى: (الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل...) الخ. وقوله: (يا ضفدع بنت ضفدعين، نقّي ما تنقّين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين).

وقد زعم أنه عارض سورة الكوثر، فخرج إلى الناس بهذا الهذيان:

(إن أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، إن شانئك هو الكافر).

وكل كلامه على هذا النمط واهٍ سخيف لا ينهض ولايتماسك، وأنت خبير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير.

يقول الرافعي رحمه الله: "إن مسيلمة لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية "الصناعة البيانية"، وإنما أراد أن يأخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى، ظنّها أهون عليه وأقرب تأثيرا في نفوسهم، وذلك أنه رأى العرب تعظم الكهّان في الجاهلية، وكانت عامة أساليب الكهّان من هذا السجع القلق، الذي يزعمون أنه من كلام الجن كقولهم: "يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله"، فجعل يسجع؛ ليوهم أنه يوحى إليه على أنه لم يفلح في هذه الحيلة إذ كان أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة، ويقولون: إنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقا، ولا في دعوى النبوة صادقا، وإنما كان اتباعهم إياه على حد قول قائلهم: كذّاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر".

ب- ومنهم: "الأسود العنسي" ادَّعى النبوة في اليمن، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه، فيخفض رأسه إلى الأرض، ثم يرفعه، فيقول: قال لي كذا وكذا – يعني شيطانه الذي يوحي إليه - وكان جبارا، ولكنه كان فصيحا معروفا بالكهانة والسجع، والخطابة، والشعر، والنسب. ولم يذكر أنه حاول المعارضة للقرآن، وإنما اكتفى بدعوى النبوة، وبنزول الوحي عليه ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (الأنعام: ١٢١).

ج- ومنهم: طُلَيْحَة بن خويلد الأسدي" ادّعى النبوة، وكان يزعم أن "ذا النون" يأتيه بالوحي، ولكنه لم يدَّع لنفسه قرآنا؛ لأن قومه كانوا من الفصحاء، ولكنهم تابعوه عصبيّة وطلبا للجاه والشهرة، وقد ذكر صاحب "معجم البلدان" أن له كلاما كان يزعم أنه نزل عليه بالوحي، ولم يظفر من كلامه إلا على هذه المقالة (إن الله لايصنع بتعفير وجوهكم، وقبح أدباركم شيئا، فاذكروا الله قياما، فإن الرغوة فوق الصريح) يريد: لاتركعوا ولاتسجدوا، واكتفوا بالصلاة قياما،

وبذكر الله في حالة القيام، وقد أرسل له أبوبكر جيشا بقيادة خالد بن الوليد، فلما التقى الجمعان، قتل عدد كبير من أتباعه، وتزمّل هو بكساء ينتظر الوحي، فقال له "عيينة": هل أتاك بعد؟ فقال وهو من تحت الكساء: لا، والله! ما جاء بعد، فقال له عيينة: لقد تركك أحوج ما كنت إليه، ثم قال: يا بني فزارة! هذا كذّاب ما بورك لنا وله فيما يطلب، ثم انهزم طليحة ولحق بنواحي الشام، ويقال: إنه أسلم بعد ذلك، وكان له في القادسية بلاء حسن.

د- ومنهم: "النضر بن الحارث"، وهو من صناديد قريش، ورؤساء الكفر والضلالة، وهو لم يدّع النبوّة ولا الوحي، ولكنه زعم أنه يعارض القرآن، فلفّق أخبارا من حوادث الفرس وملوك العجم، وكان يجلس إلى قريش، فيحدّثهم بهذه الأساطير، ثم يقول لهم: هذا خير مما أنزل على محمد.

ه- ويروى أن "أبا العلاء المعرّي" و"المتنبي"، و"ابن المقفع" حاولوا معارضة القرآن، ولكنهم ما كادوا يبدأون هذه المحاولة حتى خجلوا واستحيوا، فكسَّروا الأقلام، ومزَّقوا الصحف. وقد ذكرنا فيما مضى محاولة "ابن المقفع"، وأنه بعد أن عزم على المعارضة، وبدأ بها فعلا، سمع صبيا يقرأ قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود:٤٤).

فمزق ما جمع واستحيا من إظهاره أمام الناس بعد أن قال قولته المشهورة: هذا والله! ما يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، وهذه القصة عن ابن المقفع يذكرها الرافعي رحمه الله، ثم يعقب عليها بقوله:

"إن ابن المقفع من أبصر الناس باستحالة المعارضة، لا لشيء من الأشياء، إلا لأنه من أبلغ الناس، وإذا قيل لك: إن فلانا يزعم إمكان المعارضة، ويحتج لذلك وينازع فيه، فاعلم أن فلانا في الصناعة أحد رجلين اثنين: إما جاهل يصدق في نفسه، وإما عالم يكذب على الناس، ولن يكون ثالث ثلاثة".(١)

---

(١) انظر إعجاز القرآن للرافعي.

فالرافعي ينكر صحة هذه الرواية عن ابن المقفع كما ينكرها على المعرِّي فكلاهما في نظره باطل وافتراء عليهما.

و- وتحدثنا الأيام القريبة أن زعماء "البهائية والقاديانية" وضعوا كتبا يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن، ثم خافوا - أو خجلوا - أن يظهروها أمام الناس، فأخفوها على أمل أن يأتي الوقت المناسب، فيخرجوها بعد أن يكثر الجهل ويطيش العقل.

شبهات حول إعجاز القرآن والرد عليها:

الشبهة الأولى: يقول أعداء الإسلام في معرض الطعن في القرآن، وفي نبي القرآن: إن محمدا ﷺ قد تلقّى هذا القرآن من "بحيرا الراهب"، ونسبه إلى الله عزوجل؛ ليوهم البشر قدسيته.

والجواب: أن هذه فرية ما فيها مرية، وهؤلاء الخبثاء من الصليبيّين وأعوانهم من الملاحدة، إنما يروِّجون مثل هذه الأباطيل؛ ليشوِّشوا على المثقفين من أبناء المسلمين، ويفسدوا عليهم عقائدهم بأمثال هذه الشبهات والافتراءات، وهذه الشبهة باطلة لعدة أمور:

أولا: إن الرسول ﷺ لم يثبت عنه أنه سافر إلى الشام إلا مرتين: مرة في صغره مع عمه "أبي طالب"، ومرة في شبابه مع "ميسرة" غلام السيدة خديجة رضي الله عنها، ولم يحدثنا التاريخ إنه سمع من "بحيرا"، أو تلقّى عنه درسا واحدا. وإنما غاية الأمر أن "بحيرا الراهب" رأى سحابة تظلِّل الرسول ﷺ، فحدَّث عمَّه بأن هذا الغلام سيكون له شأن، ثم طلب منه أن يعيده إلى مكة خوفا عليه من اليهود، ثم هل يعقل والرسول ﷺ في سن الصغر أن يتلقى هذه العلوم والمعارف؟ أو يأتي بمثل هذا القرآن المعجز، وهو لم يتجاوز بعد سن العاشرة؟ وفي المرة الثانية: كان غرضه التجارة، ولم يثبت أنه التقى بأحد من الرهبان في هذه السفرة، فمن أين لهم هذا البهتان والافتراء؟

ثانيا: من المستحيل عقلا على أي إنسان أن يصبح في هذه المرتبة "أستاذ العالم" لمجرد مصادفته لراهب من الرهبان مرتين، مع أنه كان في الأولى صغيرا، وفي الثانية تاجرا، وأن يأتي بهذا الكتاب المعجز وهو أميٌّ لمجرد التقائه بأحد الرهبان مرة أو مرتين.

ثالثا: لو كان هذا الراهب المسمَّى "بحيرا" هو مصدر هذا القرآن، لكان هو الأحرى بالنبوءة والرسالة، أو لكانت عبقريته تفوق عباقرة الدنيا؛ لأنه أتى بكلام أعجز فيه الأولين والآخرين.

رابعا: نقول: إن المشركين من كفّار قريش كانوا أعقل وأسلم تفكيرا من هؤلاء المجانين؛ لأنهم - مع شدة حرصهم على تكذيب الرسول وتبهيته - لم يقبلوا على أنفسهم مثل هذا الكذب الرخيص، ولم يفكّروا أن يقولوا إنه تعلَّم من "بحيرا الراهب" لمجرد الالتقاء به مرتين؛ لأن العقل لا يستسيغ ذلك.

الشبهة الثانية: يقولون: هذا القرآن من تعليم "جبر الرومي"، تعلَّم منه الرسول ﷺ في مكة... إلخ.

والجواب: أن هذه الشبهة قد تولى الله عزوجل الردّ عليها بأبلغ حجة وأنصع بيان، فقال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل:١٠٣). فهذا الرجل الذين ينسبون إليه تعليم محمد ﷺ هو روميّ أعجميّ، لا يعرف اللسان العربي، فكيف يعلّمه القرآن؟ وقد كان "جبر" هذا حدادا يمتهن الحدادة، وقد أسلم، فكان النبي ﷺ كثيرا ما يمر عليه، فيجلس عنده، فقال المشركون: والله! ما يعلّم محمدا هذا القرآن إلا جبر الرومي، وكان سيده يضربه ويقول له: أنت تعلّم محمدا، فيقول: لا، والله! بل هو يعلّمني ويهديني...

ومن الغريب أن هذه التهمة قد لاقت استحسانا عند بعض الأفراد مع أنها في منتهى الغرابة والهزل؛ إذ كيف يكون الأستاذ عبدا حدّادا أعجميا، لا يفقه شيئا من اللغة العربية، ثم يعلّم الرسول لغة الضاد، وهل من المعقول أن يكون هذا الرومي الأعجمي مصدرا لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية؟ ولهذا كان رد القرآن مفحما وقاطعا: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل:١٠٣).

الشبهة الثالثة: إن محمدا عبقرية فذّة، وهذه العبقرية الخارقة، لماذا لا يمكن أن تكون هي منبع هذه الأخبار، وأن يكون هذا القرآن من تأليف محمد وترتيبه؛ لأنه ذو شخصية رائعة؟

والجواب: إن هذا الكلام إنما يصدر عن جاهل لا يعرف شيئا عن حياة النبي ﷺ، ولا عن تاريخ عشيرته وقومه، فالرسول ﷺ عاش أربعين سنة بين قومه وهو يشار إليه بالبنان في صدقه، وأمانته، ونبله، وفضله حتى كان المشركون يلقبونه بـ"الصادق الأمين"، فهل يعقل بعد هذه الحياة الشريفة الطاهرة أن يأتي بأعظم بهتان؟ فيزعم أن هذا القرآن من عند الله، وأنه رسول الله.

وبداية الإنسان تدل على نهايته، فكيف يتفق هذا مع تاريخ الرسول الشريف الطاهر، وحياته الفاضلة العطرة؟

وحين سأل "هرقل" ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله ﷺ: "هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

أجابه أبو سفيان بقوله: لا، بل هو عندنا الصادق الأمين.

فقال له هرقل: لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله!

ومن ناحية ثانية فقد ثبت في التاريخ ثبوتا قاطعا أن محمدا ﷺ كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة، وقد أكّد هذا القرآن بقوله عز من قائل: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَّلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت:٤٨)، فمن أين لرسول الله معرفة أخبار الأولين من الأنبياء والمرسلين؟ ومن أين له معرفة دقائق التاريخ، وأحوال الأمم الغابرة، وأنباء من سبق من البشر على وجه الدقة والتفصيل؟ وهو بعد لم يقرأ كتابا، ولم يدرس علما، ولم يتلق هذه الأنباء عن أحد من علماء أهل الكتاب؟

ثم مهما كانت عبقرية الإنسان فذّة، ونبوغه عظيما، وذكاؤه وافرا، فمن أين له معرفة أمور الغيب، وأحوال المستقبل، وهل يمكن لبشر مهما سما أن يخبر عن الغيب بحيث لا يشذ عن أخباره

واحدة من هذه المغيبات إلا أن يكون رسولا صادقا يوحى إليه من عند الله؟

إن العقل ليجزم بأن هذا ليس في طوق البشر، ومهما بلغت العبقرية من النبوغ والذكاء، ومهما كانت الشخصية قوية ومثالية، فلن تستطيع أن تخرق أستار الغيب أو تخبر بما ليس في مقدورها، وصدق الله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (طـه:٩٩).

الشبهة الرابعة: يقولون: إن عجز البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن لا يدل على أنه كلام الله، وما هذا إلا كمثل عجزهم عن الإتيان بمثل "الكلام النبوي"، فهل يكون كلام الرسول من عند الله؟ أو يقال إنه كلام الله؟

والجواب: أن الحديث النبوي إن عجز عامة الناس عن الإتيان بمثله فلن يعجز أحد الخاصة عن الإتيان بمثل بعضه، ولو بمقدار حديث واحد أو سطر واحد من كلامه، وكلام الرسول ﷺ وإن كان في الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة، إلا أنه لا يخرج عن كونه كلام بشر، وقد يشتبه كلام البشر بعضهم مع بعض حتى لنجد تشابها بين كلام النبوة، وكلام بعض الخواص من الصحابة رضي الله عنهم، ونسمع الحديث فيشتبه علينا أمره: أهو مرفوع ينتهي إلى النبي ﷺ؟ أم هو موقوف عند الصحابي رضي الله عنه، أي: من كلامه؟ أم مقطوع عند التابعي رحمه الله؟

ولا نستطيع أن نميِّز حتى يرشدنا السند إلى عين قائله.

ومن أوتي حاسة بيانية يدرك هذا الشبه كثيرا، وقد يلتبس علينا الأمر حين نسمع كلاما رائعا بليغا لأحد الفصحاء، فنظنه من كلام الرسول ﷺ، فإذا قد يكون هناك بعض الشبه بين كلام أفصح من نطق بالضاد، وبين كلام بعض النبغاء، واستمع مثلا إلى هذه الجملة الرائعة "المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وعوّدوا كل جسم ما اعتاد" فإن الإنسان إذا سمع هذه لم يستبعد أن تكون حديثا لجمالها، وصحتها، وأسلوبها الأخّاذ، وربما جزم بأنها حديث شريف مع أنها ليست بحديث، إنما هي من كلام طبيب العرب المشهور "ابن كندة".

وأما القرآن فذاك له شأن آخر، لا يلتبس مع غيره من الكلام، ولن تستطيع أن تجد له شبيها

أو ندا؛ لأن الذي صنعه على عينه لن تستطيع أن تجد له شبيها أو ندا، فكيف يقاس القرآن الكريم بالحديث الشريف في هذا المقام؟

ثانيا: ومن ناحية ثانية لو كان هذا القرآن من تأليف محمد ﷺ لكان ينبغي أن يكون الأسلوب في "القرآن والسنة" واحدا ضرورة أنهما صادران عن شخص واحد، استعداده واحد، ومزاجه واحد، مع أننا نجد الفرق بينهما واضحا، والبون شاسعا، فأسلوب القرآن ضرب وحده تظهر عليه سمات الألوهية والربوبية التي تجل عن المشابهة والمماثلة، وأسلوب الحديث الشريف ضرب آخر، لا يجل عن المشابهة والمماثلة، بل هو محلق في جو البيان بقدر الأساليب البشرية الرفيعة، ولا يستطيع بحال أن يصعد إلى سماء إعجاز القرآن، وهذا يدركه كل إنسان إذا ما قارن بين الأسلوبين بأبسط نظرة وصدق الله حيث يقول:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمن:٢٧).

وصدق الله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء:٨٨).

* * * *

الفصل الحادي عشر:

في التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن

قال العلامة القرطبي في مقدمة تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" في باب التنبيه على الأحاديث الموضوعة في فضل سور القرآن ما يلي:

"لا التفات لما وضعه الواضعون، واختلقه المختلقون من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة في فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال، قد ارتكبها جماعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم في ارتكابها.

١- فمنهم قوم من الزنادقة مثل المغيرة الكوفي، ومحمد الشامي المصلوب وغيرهما وضعوا أحاديث، وحدثوا بها؛ ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس، منها ما رواه الشامي عن أنس ابن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أنا خاتم النبيين لا نبيَّ بعدي إلا ما شاء الله"، فزاد هذا الاستثناء؛ لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة.

٢- ومنهم جماعة وضعوا الحديث "هَوىً" يدعون الناس إليه، قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: "إن هذه الأحاديث دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيَّرناه حديثا".

٣- ومنهم جماعة وضعوا الحديث "حِسْبَةً" كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال كما روي عن أبي عصمة المروزي قيل له: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في فضل سور القرآن سورة سورة؟

فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حِسبَة. (١)

---

(١) أي لوجه الله وترغيباً في الدين.

قال ابن الصلاح: وهكذا الحديث الطويل الذي يروى عن أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ في فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإن أثر الوضع عليه لبيِّن، وقد أخطأ الواحدي المفسِّر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه في تفاسيرهم.

٤- ومنهم قوم من السُؤال[1] يقفون في الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله ﷺ أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد.

قال جعفر بن الطيالسي:

"صلى أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين في مسجد الرّصافة، فقام بين أيديهما قاص (محدِّث) فقال: حدثنا أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين: قالا: أنبأنا عبد الرزاق، قال: أنبأنا معمر، عن قتادة، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من قال: لا إله إلا الله، يخلق من كل كلمة منها طائر، منقاره من ذهب، وريشه مرجان، وأخذ في قصه نحوا من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى، ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال: أنت حدَّثته بهذا؟ فقال: والله! ما سمعت به إلا هذه الساعة، فسكتا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، فقال: أنا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ماسمعنا بهذا قطّ في حديث رسول الله ﷺ، فإن كان ولا بدَّ من الكذب فعلى غيرنا. فقال له:

أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة، فقال له يحيى:

وكيف علمت أني أحمق؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا، قال: فوضع أحمد كمّه على وجهه، وقال: دعه يقوم، فقام كالمستهزئ بهما".

---

[1] جمع سائل الذي يسأل الناس المعونة.

قال القرطبي: "فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله ﷺ، ومن يجري مجراهم... ثم قال: فلو اقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم في ذلك غنية، وخرجوا عن تحذيره ﷺ حيث قال: "من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار".

فحذار مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين في باب الترغيب والترهيب وغير ذلك. وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقةً منهم بهم، وركونا إليهم، فضلُّوا وأضلُّوا".(١)

هل في القرآن ألفاظ غير عربية؟

من المقطوع به أن القرآن نزل بلسان العرب، وأنه كتاب عربي، نزل على أمة عربية بلسان عربي مبين؛ ليكون منهاجا لحياتهم، ودستورا لمجتمعهم، وليعتبروا به ويذكروا بما فيه: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩). وقد تضافرت النصوص القرآنية الكثيرة على أن القرآن "عربي" في نظمه، وفي لفظه، وفي أسلوبه، وفي تركيبه، وأنه ليس فيه ما يخالف طريقة العرب في المفردات والجمل والأسلوب والخطاب من هذه النصوص الكريمة ما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٥).
٢- وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت:٣).
٣- وقوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢).
٤- وقوله جل وعلا: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر:٢٨).

وقد أجمع العلماء على أن القرآن عربي ولكن اختلفوا هل فيه ألفاظ مفردة من غير كلام العرب؟ على مذهبين:

المذهب الأول: مذهب الجمهور وعلى رأسهم القاضي أبوبكر ابن الطيب، وشيخ المفسرين

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ١/٧٨.

ابن جرير الطبري، والباقلاني، وغيرهم من العلماء الأعلام قالوا: إن القرآن عربي كله، وليس فيه ألفاظ أو مفردات من غير كلام العرب، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات، فإنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها، فتكلمت بها العرب والفرس، والحبشة وغيرهم.

المذهب الثاني: مذهب طائفة من العلماء قالوا: إن في القرآن بعض ألفاظ ليست عربية، وأن تلك الألفاظ - لقلّتها - لا تُخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا، فمثلا لفظ: "المشكاة" بمعنى الكُوَّة، ولفظ: "الكفل" بمعنى الضعف، ولفظ: "قَسْوَرة" بمعنى الأسد، كل هذه الألفاظ هي بلسان الحبشة وهي ألفاظ غير عربية.

وكذلك لفظ: "القسطاس" بمعنى الميزان، بلسان الروم.

ولفظ: "السجيل" بمعنى الحجارة والطين بلسان الفرس.

ولفظ: "الغسَّاق" بمعنى البارد المنتن بلسان الترك.

ولفظ: "اليمّ" بمعنى البحر، و"الطور" بمعنى الجبل بلسان السريانية.

قال ابن عطية: "فحقيقة العبارة أن هذه الألفاظ في الأصل "أعجمية" لكن العرب استعملتها وعرَّبتها، فهي عربية بهذا الوجه. وقد كان للعرب مخالطة لجيرانهم من سائر الألسنة، فعَلِقت العرب بألفاظ أعجمية، استعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرتْ مجرى العربي الصحيح، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن".(١)

أدلة الجمهور:

وقد استدل الجمهور ببعض الأدلة التي تُثبت أن القرآن عربي، وليس فيه ألفاظ غير عربية، وفيه أسماء أعلام لمن لسانه غير لسان العرب، مثل: "إسرائيل" و"جبرئيل" و"عمران" و"نوح" و"لوط". وقد استدل الجمهور بما يلي:

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ٦٨/١ بتصرف.

أولا: الآيات القرآنية السابقة التي أثبتت أن هذا القرآن عربي كله في لفظه وأسلوبه، ونظمه وتركيبه، فقد أخبر الله عزوجل عن القرآن بأنه عربي، فقال تعالى: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾، وتكرر هذا اللفظ في آيات عديدة، ومعلوم أن لفظ القرآن عام، يشمل جميع السور والآيات، ويشمل كل الألفاظ والمفردات.

ثانيا: إن القرآن نزل بلغة العرب ليفهموه ويعقلوه، ويتدبروا معانيه، ويستحيل أن يخاطب الله تعالى قوما بما لا يعلمون، كيف والآيات صريحة في إنزاله بلغة العرب للاعتبار والعمل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢) و﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت:٣)، وهذا ينفي أن يكون فيه ألفاظ غير عربية.

ثالثا: إن الله تعالى قد رد على المشركين حين زعموا أن محمدا ﷺ تلقى هذا القرآن عن بعض أهل الكتاب "جبر الرومي"، وأقام الحجة عليهم باختلاف اللسانين، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾⁽¹⁾ (النحل:١٠٣). فالقرآن عربي، وذاك أعجمي، وشتّان بينهما؟

رابعا: لو كان في هذا القرآن شيء ليس من لغة العرب، أو لا يفهمه العرب، أو ألفاظ "أعجمية" غير عربية، لأعلن المشركون اعتراضهم على القرآن، واحتجوا بذلك على عدم صدق الرسول، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (فصلت:٤٤).

خامسا: إن ما وجد في القرآن من ألفاظ تنسب إلى سائر اللغات، فإنما هو من باب "توارد اللغات واتفاقها" بمعنى أنه هذه اللفظة تكلم بها العرب، وتكلم بها الفرس والعجم، وتكلم بها غيرهم، فهي مما اتفقت عليه اللغات، لا يعني أن هذه الألفاظ غير عربية، فإذا تكلم بها العرب

---

(1) ومعنى الأية: لو أنزلنا القرآن بغير لغتهم، وجعلناه باللغة الأعجمية، لقالوا: هلا بينت آياته ونزلت كلماته بلغتنا العربية؛ لنتفهمه ونتدبره؟ (أعربي وعجمي؟) أي رسول عربي وقرآن عجمي، كيف يكون ذلك؟ وكيف ينزل القرآن الأعجمي على الرسول العربي؟.

فهي عربية، وإذا تكلم بها غيرهم أو استعملها الأعاجم فلا يخرجها عن كونها عربية.

الترجيح:

والصحيح ما ذهب إليه الطبري وجمهور العلماء من أن القرآن كله عربي، وهو ما تشهد له النصوص الكثيرة، والحجج الدامغة القوية التي احتج بها العلماء.

وقد انتصر العلامة القرطبي لرأي الجمهور، ورد الرأي الثاني، وقال – بعد أن ذكر المذهبين-: "إن الأول أصح، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أو لا، فإن كان الأول فهي من كلامهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم.

وإن لم تكن العرب تخاطبت بها، ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عربيا، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم".(١)

* * * *

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٦٩

بحث ترجمة القرآن

معنى الترجمة:

ترجمة القرآن معناها: نقل القرآن إلى لغات أجنبية أخرى غير اللغة العربية، وطبع هذه الترجمة في نسخ؛ ليطّلع عليها من لا يعرف اللغة العربية "لغة القرآن"، ويفهم مراد الله عزوجل من كتابه العزيز بواسطة هذه الترجمة.

أنواع الترجمة:

وتنقسم هذه الترجمة إلى قسمين:

الأول: الترجمة الحرفية.

الثاني: الترجمة التفسيرية.

والمراد بالقسم الأول: "الحرفية" أن يترجم القرآن بألفاظه ومفرداته وجمله وتركيبه، ترجمة طبق الأصل إلى اللغة الإنجليزية، أو الألمانية، أو الفرنسية – مثلا – فيقال: "القرآن باللغة الإنجليزية" أو "القرآن باللغة الألمانية"، وهكذا ... فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفه، وبعض الناس يسمي هذه الترجمة "ترجمة لفظية".

وأما القسم الثاني: "التفسيرية" فهو أن يترجم معنى الآيات الكريمة، بحيث لا يتقيّد الإنسان باللفظ، وإنما يكون همُّه المعنى، فيترجم القرآن بألفاظ لا يتقيد بها بالمفردات والتراكيب، وإنما يعمد إلى الأصل فيفهمه، ثم يصبه في قالبٍ يؤديه من اللغة الأخرى، ويكون هذا المعنى موافقا لمراد صاحب الأصل من غير أن يكلف نفسه عناء البحث والوقوف عند كل مفرد من المفردات، أو لفظه من الألفاظ، وهذا النوع يسمى "الترجمة الحرفية" أو الترجمة المعنوية.

شروط الترجمة:

ويشترط للترجمة سواء كانت حرفية، أو تفسيرية، شروط عدة، نوجزها فيما يلي:

١- أن يعرف المترجم بكسر الجيم اللغتين معا: لغة الأصل، ولغة الترجمة.

٢- أن يكون ملما بأساليب وخصائص اللغات التي يؤد ترجمتها.

٣- أن تكون "صيغة الترجمة" صحيحة بحيث يمكن أن تحلّ محل الأصل.

٤- أن تفي الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده وفاءً كاملا.

كما يشترط للترجمة "الحرفية" زيادة على هذه الشروط شرطان آخران:

الأول: وجود مفردات كاملة في لغة الترجمة، مساوية للمفردات التي هي لغة الأصل.

الثاني: تشابه اللغتين في الضمائر المستترة، والروابط التي تربط الجمل لتأليف التركيب.

هل تجوز الترجمة الحرفية للقرآن؟

وعلى ضوء ما سبق من تقسيم الترجمة إلى حرفية وتفسيرية، ومعرفة معنى كل منهما، والشروط التي ينبغي أن تتوفر في الترجمة يتضح لنا أن الترجمة الحرفية غير جائزة، وغير صحيحة. وذلك للأسباب الآتية:

أولا: أنه لا يجوز كتابة القرآن بغير أحرف اللغة العربية؛ لئلا يقع التحريف والتبديل.

ثانيا: إن اللغات - غير العربية - ليس فيها من الألفاظ والمفردات والضمائر ما يقوم مقام الألفاظ العربية.

ثالثا: إن الاقتصار على الألفاظ قد يفسد المعنى، ويسبب الخلل في التعبير والنظم.

ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك؛ ليتوضح الأمر، فنقول:

لو أردنا ترجمة الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (الاسراء:٢٩)، فإذا أردنا ترجمتها ترجمة حرفية، فإن الترجمة تكون

كالآتي: لا تجعل يدك مربوطة إلى عنقك، ولا تمدَّها كلَّ المد إلى آخره، وهو معنى فاسد لم يقصده القرآن الكريم، بل قد يستنكر المترجَمُ له هذا الوضع، فيقول: لماذا ينهانا الله عن ربط اليد بالعنق، أو مدّها غاية المد؟.

فالتعبير الذي جاء في القرآن إنما هو من باب التمثيل؛ لبيان عاقبة الإسراف أو الشح، وهو معنى من أروع المعاني، لا يدركه إلا مَن فهمَ أساليب العرب في التخاطب بالأسلوب البليغ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء:٢٤)، فإن هذا اللفظ لا يمكن ترجمته ترجمة حرفية لوجود نوع خاص من التعبير البليغ يسمى بـــ"الاستعارة المكنية"، وهذا لا يوجد في غير اللغة العربية، ومثله قوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس:٢)، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر:١٤)، ومثله كذلك قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة:١٨٧)، فإذا ترجمناها ترجمة حرفية يفسد المعنى تماما، ويصبح ضربا من الهذيان في الكلام، وأمثال هذا كثير، وفساده واضح.

ترجمة القرآن بالمعنى:

أما ترجمة القرآن بالمعنى فهي جائزة بالشروط المتقدمة، وهي لا تسمى "قرآنا"، وإنما تسمى تفسيرا للقرآن وذلك؛ لأن الله تعبَّدنا بألفاظ القرآن، ولم يتعبدنا بغيره من الكلام.

فكلام الرسول ﷺ تجوز روايته بالمعنى بأن يقول: قال رسول الله: ما معناه، ولكن القرآن لا يجوز روايته بالمعنى، فلا يصح أن نقول: قال الله تعالى ما معناه، بل لا بد من تلاوة النص بحروفه وألفاظه؛ لأنه موحى به من عند الله، ولأنه معجز بلفظه ومعناه.

فالترجمة في الحقيقة ههنا ليست ترجمة للقرآن، وإنما هي ترجمة لمعاني القرآن، أو ترجمة لتفسير القرآن.

وقد أنزل الله كتابه إلى الخلق أجمعين؛ ليكون مصدر هداية وإرشاد، وإسعاد لهم، فلا مانع لنا

أن ننقل معاني القرآن إلى الأمم الأخرى ممن لا يعرفون اللغة العربية؛ ليستنيروا بهذا القرآن، ويقبسوا من هديه وإرشاده، وهذا بلا شك غرض من أغراض القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩).

فترجمة القرآن بهذا المعنى يجيزها العلماء، بل هي واجبة على المسلمين؛ ليبلغوا الناس دعوة الله، ويحملوا إليهم هداية القرآن، وبغير هذه الترجمة لا يمكن أن يدرك الناس عظمة هذه الشريعة، وروعة هذا الدين، وجمال هذا القرآن، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الكتاب بعونه سبحانه وتعالى

والحمد لله في البدء والختام

فهرس التبيان في علوم القرآن

الموضوع الصفحة

مقدمة الطبعة الرابعة للمؤلف ٣
مقدمة الطبعة الثالثة للمؤلف ٥

الفصل الأول

علوم القرآن

تمهيد.. ٧
ما المقصود بعلوم القرآن ٨
تعريف القرآن ٨
فضائل القرآن ٩
الآيات الكريمة ٩
الأحاديث الشريفة ٩
أسماء القرآن ١٠
وجه التسمية ١٠
متى ابتدأ نزول القرآن ١١
رواية البخاري.......................... ١٢
أول ما نزل وآخر ما نزل.................. ١٣
آية المائدة متأخرة في النزول.............. ١٤
تنبيه ١٤
ويجاب عن هذا الحديث بأجوبة ١٥
أول ما نزل في القتال والخمر والأطعمة ... ١٦

الفصل الثاني

حكمة نزول القرآن مفرقا

نزول القرآن الكريم ١٧
كيف نزل القرآن الكريم ١٧
حكمة نزول القرآن منجما.............. ٢٠
المرحلة الأولى ٢٣
المرحلة الثانية............................ ٢٣
المرحلة الثالثة............................ ٢٤
المرحلة الرابعة ٢٤
كيف تلقى النبي ﷺ القرآن ٢٩
هل السنة النبوية بوحي من الله ٣٠

الفصل الثالث

أسباب النزول

فوائد معرفة أسباب النزول ٣٣
أمثلة على معرفة أسباب الترول ٣٤
توضيح لمعنى الآية الكريمة ٣٥
ما هو سبب النزول...................... ٣٦
كيف يعرف سبب النزول................ ٣٧
هل يتعدد سبب النزول ٣٨
هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب ٤٢

الفصل الرابع

نزول القرآن على سبعة أحرف والقراءات المشهورة

تمهيد ٤٤

الموضوع الصفحة
أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف ٤٤
الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف .. ٤٧
معنى نزول القرآن على سبعة أحرف...... ٤٨
اختلاف العلماء في تفسير الأحرف ٤٩
الترجيح ٥١
هل الأحرف السبعة موجودة في المصاحف الآن...................... ٥٢
حجتهم (جماعة من الفقهاء والقراء) ٥٢
مناقشة مذهب الطبري ٥٣
الرد عليه ٥٣
بعض الشبهات الواردة على سبعة أحرف والرد عليها ٥٥
الشبهة الأولى........................ ٥٥
الشبهة الثانية ٥٦
القراءات المشهورة ٥٧
تعريف القراءات ٥٧
هل كان في عهد الصحابة قراء........... ٥٧
ونعود ونقول كيف نشأت القراءات...... ٥٧
عدد القراءات وأنواعها ٥٩
أول من صنف في القراءات ٦٠
متى اشتهرت قراءة السبعة ٦٠
متى دونت القراءات ٦٠
طريقته ٦١
القراء السبعة المشهورون ٦١
القراء السبعة ٦١
ابن عامر ٦١
الموضوع الصفحة
ابن كثير ٦٢
عاصم الكوفي ٦٢
أبو عمرو ٦٢
حمزة الكوفي......................... ٦٣
نافع ٦٣
الكسائي............................. ٦٣

الفصل الخامس
النسخ في القرآن الكريم وحكمته التشريعية

كلمة لطيفة في النسخ للقاسمي ٦٦
تعريف النسخ لغة واصطلاحا............ ٦٧
سبب النزول لآية النسخ ٦٧
هل النسخ واقع في الشرائع السماوية ٦٨
أدلة الجمهور ٦٨
كلام الإمام القرطبي في جامع الأحكام ... ٦٩
أقسام النسخ في القرآن الكريم ٧٠
الحكمة من نسخ الحكم مع بقاء التلاوة .. ٧٢
هل يُنسخ القرآن بالسنة النبوية المطهرة ... ٧٢
هل يقع النسخ في الأخبار................ ٧٣

الفصل السادس
جمع القرآن الكريم

جمع القرآن في عهد النبوة ٧٤
جمع القرآن في الصدور ٧٤
جمع القرآن في السطور.................. ٧٧
طريقة الكتابة ٧٧

الموضوع الصفحة

جمع القرآن في عهد أبي بكر ﵁ ٧٨

رواية البخاري ٧٩

تساؤلات حول جمع القرآن ٧٩

الخطة الرشيدة في جمع القرآن ٨١

مزايا مصحف أبي بكر الصديق ﵁ ٨٢

لماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد ٨٣

جمع القرآن في عهد عثمان ﵁ ٨٤

سبب جمع عثمان للقرآن الكريم ٨٥

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان ٨٦

الفصل السابع

التفسير والمفسرون

لماذا نفسر القرآن ٨٨

الفرق بين التفسير والتأويل ٨٩

معنى التأويل ٨٩

أقسام التفسير ٩١

القسم الأول

التفسير بالرواية "المأثور" ٩٢

أسباب ضعف الرواية بالمأثور ٩٤

رأي الزّرقاني في مناهل العرفان ٩٥

أشهر المفسرين من الصحابة............... ٩٦

عبد الله بن عباس ﵄ ٩٦

رواية البخاري ٩٧

شيوخ ابن عباس ٩٨

تلامذة ابن عباس ٩٨

عبد الله بن مسعود ﵁ ٩٩

الموضوع الصفحة

القسم الثاني

التفسير بالدراية أو بالرأي ١٠٠

معنى التفسير بالرأي ١٠٠

أنواع التفسير بالرأي ١٠١

أمهات التفسير ١٠٣

العلوم التي يحتاجها المفسر ١٠٣

قصة لطيفة................................ ١٠٥

مراتب التفسير ١٠٨

المرتبة الدنيا ١٠٩

أوجه التفسير................................ ١٠٩

أقوال العلماء في جواز التفسير بالرأي ١٠٩

أدلة المانعين ١١٠

أدلة المجيزين للتفسير بالرأي.............. ١١٠

الرد على أدلة المانعين ١١١

كلمة الإمام الغزالي ١١٣

كلمة الراغب الأصفهاني ١١٣

كلمة الإمام القرطبي........................ ١١٣

القسم الثالث

التفسير الإشاري وغرائب التفسير ١١٥

معنى التفسير الإشاري ١١٥

آراء العلماء في التفسير الإشاري ١١٦

أدلة المجيزين ١١٦

طائفة من أقوال العلماء ١١٧

كلمة الزركشي في البرهان ١١٧

كلمة النسفي والتفتازاني ١١٨

الموضوع الصفحة

كلام السيوطي في الإتقان ١١٩
معنى الحديث الوارد في التفسير الإشاري .. ١١٩
شروط قبول التفسير الإشاري ١٢٠
كلمة قيمة للشيخ الزّرقاني ١٢١
كلمة حجة الإسلام الغزالي ١٢٢
أمثلة على التأويل الإشاري الفاسد ١٢٢
خلاصة البحث ١٢٣
غرائب التفسير ١٢٤
أمثلة على هذه الغرائب ١٢٥
نماذج عن تفسير الشيعة ١٢٥
من تفسيرات الشيعة الاثنا عشرية ١٢٦
من تفسيرات السبيئة ١٢٧
تفسيرات الباطنية ١٢٨
وهم فرق متعددة نذكر أهمها ١٢٨
نماذج عن تفسير الباطنية ١٢٨
أشهر كتب التفسير
بالرواية والدراية والإشارة ١٣٠
أشهر كتب التفسير بالمأثور ١٣٠
التعريف بكتب التفسير بالمأثور ١٣١
تفسير ابن جرير ١٣١
مزايا هذا التفسير ١٣١
تفسير السمرقندي ١٣١
تفسير الثعلبي ١٣٢
تفسير البغوي ١٣٢
تفسير ابن عطية ١٣٣
تفسير ابن كثير ١٣٣

الموضوع الصفحة

تفسير الجواهر ١٣٤
تفسير السيوطي ١٣٥
مشاهير كتب التفسير بالدراية ١٣٦
أشهر كتب التفسير بالدراية "بالرأي" ١٣٦
التعريف بكتب التفسير بالرأي ١٣٧
تفسير الفخر الرازي ١٣٧
تفسير البيضاوي ١٣٧
تفسير الخازن ١٣٧
تفسير النسفي ١٣٨
تفسير النيسابوري ١٣٨
تفسير أبي السعود ١٣٨
تفسير أبي حيان ١٣٩
تفسير الآلوسي ١٣٩
أشهر تفاسير آيات الأحكام ١٤٠
أشهر كتب التفسير الإشاري ١٤٠
أشهر تفاسير المعتزلة والشيعة ١٤١
أشهر كتب التفسير في العصر الحديث ... ١٤٢

الفصل الثامن

المفسرون من التابعين

الطبقة الأولى ١٤٣
مجاهد بن جبر ١٤٣
عطاء بن أبي رباح ١٤٤
عكرمة مولى ابن عباس ١٤٥
طاوس بن كيسان اليماني ١٤٥
سعيد بن جبير ١٤٦
طبقة أهل المدينة ١٤٧

الموضوع الصفحة

محمد بن كعب القرظي ١٤٧
أبو العالية الرياحي ١٤٨
زيد بن أسلم ١٤٨
طبقة أهل العراق ١٤٩
الحسن البصري ١٤٩
مسروق بن الأجدع ١٥٠
قتادة بن دعامة ١٥١
عطاء الخراساني ١٥٢
مرة الهمذاني ١٥٣
تنبيه ١٥٣

الفصل التاسع

إعجاز القرآن

العناية بدراسة القرآن العظيم ١٥٥
القرآن معجزة محمد الخالدة ١٥٥
معنى إعجاز القرآن ١٥٩
متى يتحقق الإعجاز ١٥٩
أسلوب القرآن في التحدي ١٦٠
أنواع التحدي ١٦١
مثل على إعجاز القرآن ١٦٤
شروط المعجزة الإلهية ١٦٦
بم كان إعجاز القرآن ١٦٧
مذهب أهل الصرفة ١٦٨
آراء العلماء في الإعجاز ١٦٩
وجوه إعجاز القرآن الكريم ١٧٠
النظم البديع ١٧١
أمثلة من التاريخ ١٧١
الأسلوب العجيب ١٧٤
خصائص أسلوب القرآن ١٧٤
أمثلة توضيحية على خصائص أسلوب القرآن ... ١٧٥
الإيجاز الرائع ١٨٠
قصة الجارية والأصمعي ١٨٠
التشريع الإلهي الكامل ١٨٣
أمثلة من واقع الحياة ١٨٥
الإخبار عن المغيبات ١٨٧
عدم التعارض مع العلم بالحديث ١٩٢

الفصل العاشر

معجزات القرآن العلمية

أولاً وحدة الكون ١٩٣
ثانياً نشأة الكون ١٩٤
ثالثاً تقسيم الذرة ١٩٥
رابعاً نقص الأوكسجين ١٩٦
خامساً الزوجية منبثة في كل شيء ١٩٦
سادساً أغشية الجنين ١٩٧
سابعاً التلقيح بواسطة الرياح ١٩٧
ثامناً الحيوان المنوي ١٩٨
تاسعاً اختلاف بصمات الإنسان ١٩٨
الوفاء بالوعد ١٩٩
العلوم والمعارف ٢٠٠
العقيدة الإسلامية ٢٠١
العقيدة اليهودية ٢٠٢
العقيدة النصرانية ٢٠٣
وفاؤه بحاجات البشر ٢٠٤

الموضوع الصفحة

تأثير القرآن في القلوب ٢٠٥
سلامته من التناقض ٢٠٧
دفع شبهة القول بالصرفة ٢٠٧
هل حاول أحد معارضة القرآن ٢٠٩
قال معارضا سورة العاديات ٢١٠
شبهات حول إعجاز القرآن والرد عليها .. ٢١٣

الفصل الحادي عشر
في التنبيه على أحاديث وضعت
في فضل سور القرآن

هل في القرآن ألفاظ غير عربية ٢٢٠

الموضوع الصفحة

أدلة الجمهور.............................. ٢٢١
الترجيح ٢٢٣
بحث ترجمة القرآن ٢٢٤
معنى الترجمة ٢٢٤
أنواع الترجمة ٢٢٤
شروط الترجمة ٢٢٥
هل تجوز الترجمة الحرفية للقرآن.......... ٢٢٥
ترجمة القرآن بالمعنى...................... ٢٢٦

* * * *

مكتبة البشرى

قسم الطباعة والنشر
جمعية شودهري محمد علي الخيرية (المسجلة) كراتشي، باكستان

مجلدة

الجامع للترمذي
الموطأ للإمام محمد
مشكاة المصابيح
التبيان في علوم القرآن
شرح نخبة الفكر
المسند للإمام الأعظم
ديوان الحماسة
مختصر المعاني
الهدية السعيدية
رياض الصالحين
القطبي
المقامات الحريرية
أصول الشاشي
شرح تهذيب
علم الصيغه

الصحيح لمسلم
الموطأ للإمام مالك
الهداية
تفسير البيضاوي
تفسير الجلالين
شرح العقائد
آثار السنن
الحسامي
ديوان المتنبي
نور الأنوار
شرح الجامي
كنز الدقائق
نفحة العرب
مختصر القدوري
نور الإيضاح

ملونة كرتون مقوي

شرح عقود رسم المفتي
متن العقيدة الطحاوية
متن الكافي
المعلقات السبع
هداية الحكمة
كافية
مبادئ الأصول
زاد الطالبين
هداية النحو (متداول)
شرح مائة عامل

السراجي
الفوز الكبير
تلخيص المفتاح
مبادئ الفلسفة
دروس البلاغة
تعليم المتعلم
هداية النحو (مع التمارين)
المرقات
ايساغوجي
عوامل النحو

المنهاج في القواعد والإعراب

ستطبع قريبا بعون الله تعالىٰ

ملونة مجلدة

الصحيح للبخاري

Books in English

Tafsir-e-Uthmani (Vol. 1, 2, 3)
Lisaan-ul-Quran (Vol. 1, 2, 3)
Key Lisaan-ul-Quran (Vol. 1, 2, 3)
Al-Hizb-ul-Azam (Large) (H. Binding)
Al-Hizb-ul-Azam (Small) (Card Cover)

Other Languages

Riyad Us Saliheen (Spanish) (H. Binding)
Fazail-e-Aamal (German)
Muntakhab Ahadis (German)

To be published Shortly Insha Allah

Al-Hizb-ul-Azam (French) (Coloured)

مکتبۃ البشریٰ

شعبہ نشر واشاعت
چودھری محمد علی چیریٹیبل ٹرسٹ (رجسٹرڈ) کراچی پاکستان

درس نظامی اردو مطبوعات

- خصائل نبوی شرح شمائل ترمذی
- معین الفلسفہ
- آسان اصول فقہ
- تیسیر المنطق
- فصول اکبری
- علم الصرف (اولین وآخرین)
- عربی صفوۃ المصادر
- جمال القرآن
- نحو میر
- میزان ومنشعب (الصرف)
- تعلیم الاسلام (مکمل)
- عربی زبان کا آسان قاعدہ
- نام حق
- پند نامہ
- عربی کا معلم (اول تا چہارم)
- عوامل النحو (النحو)
- حیات المسلمین
- تعلیم العقائد
- مفتاح لسان القرآن (اول تا سوم)
- بہشتی زیور (تین حصے)

- خیر الاصول (اصول الحدیث)
- الانتباہات المفیدۃ
- معین الاصول
- فوائد مکیہ
- تاریخ اسلام
- علم النحو
- جوامع الکلم
- صرف میر
- تیسیر الابواب
- بہشتی گوہر
- تسہیل المبتدی
- فارسی زبان کا آسان قاعدہ
- کریما
- تیسیر المبتدی
- کلید جدید عربی کا معلوم (اول تا چہارم)
- آداب المعاشرت
- تعلیم الدین
- لسان القرآن (اول تا سوم)
- سیر صحابیات

دیگر اردو مطبوعات

- قرآن مجید پندرہ سطری (حافظی)
- پنج سورہ

- پنج پارہ
- عم پارہ (درسی)

- سورۂ یٰس
- رحمانی قاعدہ
- اعجاز القرآن
- بیان القرآن
- سیرت سید الکونین خاتم النبیین ﷺ
- خلفائے راشدین
- نیک بیبیاں
- تبلیغ دین (امام غزالی رحمہ اللہ)
- علاماتِ قیامت
- جزاء الاعمال
- علیکم بسنتی
- منزل
- الحزب الاعظم (ماہوار مکمل)
- اعمال قرآنی
- مناجات مقبول
- فضائل اعمال
- اکرام مسلم
- فضائل علم
- فضائل امت محمدیہ ﷺ
- منتخب احادیث
- نماز حنفی
- آئینہ نماز
- بہشتی زیور (مکمل)
- روضۃ الادب

- نورانی قاعدہ
- بغدادی قاعدہ
- تفسیر عثمانی
- النبی الخاتم ﷺ
- حیاۃ الصحابہ رضی اللہ عنہم
- امت مسلمہ کی مائیں
- رسول اللہ ﷺ کی نصیحتیں
- اکرام المسلمین/حقوق العباد کی فکر کیجیے
- حیلے اور بہانے
- اسلامی سیاست
- آداب معیشت
- حصن حصین
- الحزب الاعظم (ہفتوار مکمل)
- زاد السعید
- مسنون دعائیں
- فضائل صدقات
- فضائل درود شریف
- فضائل حج
- جواہر الحدیث
- آسان نماز
- نمازِ مدلل
- معلم الحجاج
- خطبات الاحکام لجمعات العام

دائمی نقشہ اوقاتِ نماز: کراچی، سندھ، پنجاب، خیبر پختونخواہ